أولو العزم من الرسل ﷺ

تأليف

عمر أحمد عمر

المجلد الأول

أولو العزم من الرسل

الطبعة الأولى
١٤٠٩ هـ - ١٩٨٨ م

دار حسان
للطباعة والنشر
دمشق - ص.ب ٣٢١٨
عبد الهادي حرصوني

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

إلى من علمني أن أقرأ وأكتب •

إلى من أخذ بيدي لتخط أول حرف وتكتب أول كلمة •

إلى من حبب إلي العلم والمعرفة

إلى من رغبني في المطالعة والكتابة •

إلى من دلني على مناهج البحث وأصول التأليف •

إلى كل معلم ومدرس وأستاذ وشيخ تلقيت عنه العلم والخلق •

إلى من لا زال يمدني بتوجيهاته وارشاداته •

إلى كل من ساهم في تعليمي وكان له فضل في تربيتي •

إلى هؤلاء جميعاً أهدي هذا الكتاب ليشهدوا تفتح أول برعم ويستنشقوا عبير أول زهرة ، ويقطفوا أول ثمرة من الشجرة التي غرسوها وعنوا بها •

راجياً القبول ، مع تحية اجلال واحترام

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، وعلى جميع الرسل والنبيين الذين اصطفاهم الله ـــ سبحانه وتعالى ـــ من خلقه ليهدوهم الى الصراط المستقيم ويسلكوا بهم سبل السلام ، ويشرعوا لهم ماينظم حياتهم ، ويحقق العدل والأمن بينهم .

وإذا كان الرسل أفضل الخلق لما اتصفوا به من الفضائل وكريم الخصال، وما قاموا به من الأعمال لاصلاح أقوامهم وهدايتهم إلى بارئهم ، وما بذلوه من جهود لبناء مجتمع فاضل والقضاء على الظلم والاستغلال ؛ فإن علينا أن ندرس سيرتهم ، ونجعلهم قدوة لنا ؛ ففي ذلك صلاح أنفسنا ومجتمعنا . قال تعالى بعد أن ذكر أسماء ثمانية عشر من الرسل الكرام :

« أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة فان يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين . أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده » .

(سورة الأنعام ٨٩ ـــ ٩٠)

ولقد أرسل الله رسولاً إلى كل أمة من الأمم القديمة ليدعوهم إلى عبادة الله ، ويحذرهم من الكفر والضلال :

« ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين » .

(سورة النحل ٣٦)

ولم يخبرنا الله بالرسل جميعاً ، وإنما قص علينا في القرآن الكريم أخبار خمسة وعشرين ممن كان لرسالتهم أثر في البشرية ، وكانت بلادهم قريبة من الأرض المباركة التي جعلها الله مهبط الوحي المنزل على خاتم رسله . قال تعالى:

« إنا أوحينا إليك كما أوحينا الى نوح والنبيّن من بعده وأوحينا الى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داوُد زبورا . ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليماً . رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكماً » .

(سورة النساء ١٦٣ ـ ١٦٥)

وهؤلاء الرسل متفاوتون في الجهود التي بذلوها لهداية الناس والآلام التي ذاقوها من أقوامهم الكافرين والنتائج التي حصلوا عليها :

« تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات وآتينا عيسى بن مريم البينات وأيدناه بروح القدس » .

(سورة البقرة ٢٥٣)

وأفضل الرسل هم أولو العزم ، أي أصحاب الجد والثبات والصبر الذين عزموا على أمر الله فيما عهد إليهم . وقد أمر الله بالتأسي بهم في الصبر فقال :

« فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل » .

(سورة الأحقاف ١٣٥)

وهم الذين أخذ الله منهم المواثيق الغليظة والعهود المؤكدة على القيام بالعبادة والدعوة :

« وإذا أخذنا من النبيِّن ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم وأخذنا منهم ميثاقاً غليظا » .

(سورة الأحزاب ٧)

وهم الذين اجتباهم الله لهداية الناس ، ووصّى بالعمل بشرائعهم :

« شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كَبُر على المشركين ما تدعوهم إليه الله يجتبي إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب » .

(سورة الشورى ١٣)

وهم الذين يعرف الناس فضلهم يوم القيامة ، ويسألونهم الشفاعة :

عن أنس ــ رضي الله عنه ــ قال : قال رسول الله ﷺ :

« يجمع الله الناس يوم القيامة ، فيقولون : لو استشفعنا على ربنا حتى يريحنا من مكاننا .

فيأتون آدم فيقولون : أنت الذي خلقك الله بيده ، ونفخ فيك من روحه، وأمر الملائكة فسجدوا لك ، فاشفع لنا عند ربنا .

فيقول : لست هناكم[1] ، ويذكر خطيئته[2] . ويقول : ائتوا نوحاً أول رسول بعثه الله .

فيأتونه . فيقول : لست هناكم ، ويذكر خطيئته[3] . ائتوا إبراهيم الذي اتخذه الله خليلاً .

---

(١) كناية عن أن منزلته دون المنزلة المطلوبة . قاله تواضعا واكبارا لما يسألونه . وفيه اشارة الى أن هذا المقام ليس لي ، بل لغيري .

(٢) أي أكله من الشجرة وقد نهي عنها .

(٣) أي دعوته على الكافرين بالهلاك .

فيأتونه • فيقول : لست هناكم ، ويذكر خطيئته[1] ، ائتوا موسى الذي كلمه الله •

فيأتونه • فيقول : لست هناكم ، فيذكر خطيئته[2] ائتوا عيسى •

فيأتونه • فيقول لست هناكم • ائتوا محمداً ﷺ ، فقد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر •

فيأتوني • فأستأذن على ربي • فإذا رأيته وقعت له ساجداً ، فيدعني ما شاء الله ، ثم يقال لي : ارفع رأسك ، وسل تعطه ، وقل يسمع ، واشفع تشفع ••» •

(البخاري ٦٥٦٥ ، وأحمد بن حنبل ، وابن خزيمة)

وهم الذين فضلهم الله على سائر الناس •

عن أبي هريرة ــ رضي الله عنه ــ قــال :

« خيار ولد آدم خمسة : نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين • وخيرهم محمد ﷺ » •

(رواه أبو بكر البزار ، وهو موقوف ، وحمزة الزيات أحد رجال سنده فيه ضعف)

وقد نظم بعضهم أولي العزم على ترتيبهم في الأفضلية فقال :

محمــد إبراهيــم موسى كليمــه   فعيسى فنوح هم أولو العزم فاعلم

ثم ان الانسان يحب القصص ، ويجد متعة في سماع الأخبار • وليس أفضل من قصص الرسل كما جاءت في كتاب الله العليم الحكيم :

« نحن نقص عليك أحسن القصص بمــا أوحينا إليك هــذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين » •

(سورة يوسف ٣)

---

(١) أي كذباته الثلاث • انظر تفصيلها في قصة ابراهيم : المحنة الثانية •

(٢) أي قتل الرجل القبطي • انظر تفصيلها في قصة موسى •

ففي قصصهم المتعة والفائدة ، وفيها الذكرى والموعظة :

« وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك في هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين » •

(سورة هود ١٢٠)

وفيها العبرة والخبر اليقين :

« لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ما كان حديثاً يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون » •

(سورة يوسف ١١١)

ولقد كان بودي منذ الصغر ، حين أصبحت أقرأ القرآن الكريم أن أجمع الآيات التي تتحدث عن الرسل ، وأجعلها سيرة لكل منهم ، ولكني شغلت عن ذلك بمناهج الدراسة المقررة في وزارة التربية والجامعة ، وبالمطالعة في مواضيع مختلفة ، وبأعباء الحياة ، ووجدت من سبقني الى اصدار كتب في قصص الأنبياء فعدلت عن هذا الخاطر ، غير أني لما قرأت ما كتب في هذا الموضوع لم أجد فيه ما يشفي غليلي ؛ لأن بعض المؤلفين يسرد كل خبر ولو كان غريباً بعيد الوقوع ، يريد بذلك التشويق والاثارة ، أو الاستقصاء والاحاطة ، دون أن يتحرى الحقيقة والعبرة • ومنهم من يسترسل في خياله الخصيب ، فيضفي على حياة الرسل هالة تحجبهم عن الظهور على حقيقتهم ، ومنهم من يجري وراء الحفريات وكتب التاريخ أو كتب أهل الكتاب ومؤلفات المستشرقين ؛ ليؤيد رأيه بأقوالهم، أو يفند آراءهم•ومنهم من يهتم بأمور فرعية ، ويفصل مواضيع جزئية ، ويخل بأهم جانب من حياة الرسل ،مما عرضه القرآن الكريم • ومنهم من يكتفي ببعض الآيات المتعلقة بالرسل ، أو ينسب إلى أحدهم ما جاء في آيات تتعلق بغيره • ومنهم من يمر بالآيات والأحاديث مرور الكرام ، ويجعل الآيات مصدقة لما يقوله علماء الآثار ، ويفسر الحوادث بعيداً عن وحي السماء • ومنهم

من يذكر الآيات في جانب ، ويتكلم عن حياة الرسول في جانب آخر ، دون أن يجعل الآيات محور بحثه .

ولهذا عزمت على أن أكتب في سيرة أولي العزم من الرسل ، جاعلاً القرآن الكريم محور حديثي ، فبدأت بجمع الآيات المتعلقة بكل منهم ، ثم رتبتها بشكل مناسب ، وقسمتها إلى مراحل[1] . ونظرت في كتب التفسير لأجلي ما خفي من معانيها ، وبعد ذلك رجعت إلى أمهات كتب التاريخ والسير، واطلعت على أشهر كتب السنة وشروحها ؛ فاستخرجت منها ما له صلة بأولئك الرسل ويبين فضلهم .

فالله أسأل أن يعينني على انجاز هذا العمل ؛ وأن يثيبني على الجهد الذي بذلته فيه ، وأن يجعله نافعاً لكل من اطلع عليه ، وأن يجنبني الزلل ويلهمني الصواب ، إنه سميع مجيب .

عمر عمر

(١) كتبت الآيات كما وجدتها في المصحف بخط مصطفى نظيف أفندي المشهور بقَدرغه‌لى ـ مؤسسة الكتاب للطباعة والنشر ـ دمشق .
ولم أغير في كتابتها شيئاً لأن اتباع خط المصحف سنة كما قال عبد الله بن درستويه في الكتاب المتمم في الخط والهجاء . (الكشاف للزمخشري جـ١ص٩٥)

الجزء الأول

نوح

عليه السلام

أبو البشر الثاني ، وأول الرسل بعد آدم عليه السلام

نــوح في القرآن الكريــم

ذكر نوح ـــ عليه السلام ـــ في القرآن ثلاثاً وأربعين مرة في ثمان وعشرين سورة • وهذا جدول بالسور والآيات التي ورد اسمه فيها :

اسم السورة	رقمها	أرقــام الآيــات	اسم السورة	رقمها	أرقــام الآيــات
آل عمران	٣	٣٣	الشعراء	٢٦	١٠٥، ١٠٦، ١١٦
النساء	٤	١٦٣	العنكبوت	٢٩	١٤
الأنعام	٦	٨٤	الأحزاب	٣٣	٧
الأعراف	٧	٥٩ ، ٦٩	الصافات	٣٧	٧٥ ، ٧٩
التوبة	٩	٧٠	ص	٣٨	١٢
يونس	١٠	٧١	غافر	٤٠	٥ ، ٣١
هــود	١١	٢٥ ، ٣٢ ، ٣٦ ، ٤٢ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٨ ، ٨٩	الشورى	٤٢	١٣
ابراهيم	١٤	٩	ق	٥٠	١٢
الإسراء	١٧	٣ ، ١٧	الذاريات	٥١	٤٦
مريـم	١٩	٥٨	النجم	٥٣	٥٢
الأنبياء	٢١	٧٦	القمر	٥٤	٩
الحـج	٢٢	٤٢	الحديد	٥٧	٢٦
المؤمنون	٢٣	٢٣	التحريم	٦٦	١٠
الفرقان	٢٥	٣٧	نــوح	٧١	١ ، ٢١ ، ٢٦

ولا نجد تفصيلاً لقصته في كل تلك الشواهد القرآنية ، ففي كثير منها نجد خبر تكذيب قومه وهلاكهم فحسب، ونجد تفصيل قصته في أربع عشرة سورة ، كلهـا مكية عدا سورة (التحريم) التي ذكرت فيها امرأته ، وهـي (مدنيـة) .

ولا تعرض الآيات سوى مرحلة واحدة من حياة نوح عليه السلام ، وهي مرحلة الرسالة ؛ فتبين دعوة قومه إلى توحيد الله واصرارهم على عبادة الأصنام، وهلاكهم ، ونجـاة (نوح) ـ عليه السلام ـ والذين آمنوا معه . وإليك خلاصة القصة .

١ ـ خلاصة القصة :

انتشرت عبادة الأصنام بعد آدم عليه السلام ، فأرسل الله نوحاً عليه السلام ، وكان هادياً مهدياً كثير العبادة والشكر لله ، كما كان أميناً ناصحاً لقومه ، فدعاهم إلى عبادة الله وحده ، ونهاهم عن عبادة الأصنام ، ورغبهم بأن الله ينعم عليهم بالمال والبنين والخصب وسعة العيش والمتاع الحسن إلى أجل مسمى إذا أطاعوه ، وحثهم على استغفار الله ، وحذرهم من العذاب إن خالفوه ولم يكن يسألهم أجراً على دعوته •

وكان يحاول اقناعهم بذكر الحجج والبراهين الكونية في الأرض والسماء والإنسان ، ويتحين الفرص لدعوتهم ليلاً ونهاراً ، ويدعوهم سراً وجهراً • ومع ذلك فلم يؤمن معه إلا القليل منهم ، أما أكثرهم فكذبوه وقالوا : « إنه ضال ومجنون » • ثم زجروه وآذوه ؛ ولم يصدقوا بأن واحداً من البشر يُبعث رسولاً ، واحتجوا بأنهم لم يسمعوا ببعثة الرسل في أسلافهم ، ولم يتبعه إلا الأراذل الضعفاء • وأمروه بطردهم من مجلسه وابعادهم عنه ، وهددوه بالرجم إن لم يكف عن دعوتهم •

وبقي نوح ثابتاً على دينه متوكلاً على ربه مشفقاً على أمته دائباً على دعوته مئات من السنين • وقومه يزدادون سخرية منه وعناداً له ، حتى طلبوا منه أن يأتيهم بالعذاب إن كان صادقاً •

وبعد هذا توجه نوح إلى ربه يدعوه ويستنصره ، فأوحى إليه أن يصنع سفينة كبيرة لينجو بها من الطوفان الذي يغرق قومه • وكان منهمكاً في صنع السفينة وقومه يمرون به ويتهكمون عليه • وحين تم صنعها وفار الماء من وجه الأرض أمر أن يحمل فيها أهله ومن آمن معه ، وزوجين من كل نوع ، وقد

امتنع أحد أولاده من ركوب السفينة فغرق مع الكافرين ، كما غرقت امرأة نوح لعدم إيمانها •

ونجا نوح والمؤمنون ، وأصبحوا خلائف الأرض ، وبقيت ذكراه الحسنة وقصته عبرة لغيره •

وهذه هي أهم الحوادث التي تدل عليها الآيات في كتاب الله ، وهي المقطوع لها بالصحة • وما عداها من الوقائع والتفاصيل التي نجدها في بعض التفاسير وقصص الأنبياء وكتب التاريخ فلا نقطع بصحتها ما لم تستند إلى أدلة صحيحة •

وقد آثرنا أن نعرض الآيات المتضمنة للقصة مرتبة بحسب نزول السور التي تضمنتها ، لنرى كيف تكشفت أحداثها لصحابة رسول الله ﷺ أولاً بأول ، مما كان له أثر كبير في غرس العقيدة الصحيحة في قلوبهم ، والتربية القويمة لنفوسهم •

وفيما يلي بيان السور وأرقام آياتها التي جعلناها مرجعاً أساسياً في القصة على الترتيب المذكور •

اسم السورة	رقمها	أرقام الآيات	اسم السورة	رقمها	أرقام الآيات
القمر	٥٤	٩ ـ ١٥	الأنعام	٦	٨٤
الأعراف	٧	٥٩ ـ ٦٤	الصافات	٣٧	٧٥ ـ ٨٢
الفرقان	٢٥	٣٧	نوح	٧١	١ ـ ٢٨
الشعراء	٢٦	١٠٥ ـ ١٢٢	الأنبياء	٢١	٧٦ ـ ٧٧
الإسراء	١٧	٣	المؤمنون	٢٣	٢٣ ـ ٣٠
يونس	١٠	٧١ ـ ٧٣	العنكبوت	٢٩	١٤ ـ ١٥
هود	١١	٢٥ ـ ٤٩	التحريم	٦٦	١٠

والآن لنفصل ما جاء في هذه الآيات • والله المستعان •

٢ ـ جـزاء الكافرين :

نجد أول مشهد من هذه القصةفي سورة القمر التي سبقها في النزول ست وثلاثون سورة ، وهي تهدد المشركين بالعذاب في الآخرة والهلاك في الدنيا ، وتصور عاقبة قوم نوح بأسلوب بليغ مؤثر في بضع آيات هي :

« كذبت قبلهـم[١] قوم نـوح فكذبوا عبدنـا وقالـوا مجنون وازدجر[٢] • فدعا ربه أني مغلوب فانتصر • ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر[٣] • وفجرنا الأرض عيونا فالتقى الماء على أمر قـد قدر • وحملناه على ذات ألواح ودُسُر[٤] تجري بأعيننا[٥] جزاء لمن كان كُفِـر • ولقد تركناها آية فهل من مدّكر[٦] » •

(سورة القمر ٩ ـ ١٥)

لقد كان من واجب قوم نوح أن يؤمنوا بنبيهم وأن يتبعوه ، ولكنهم كذبوه تكذيباً عقب تكذيب ، وزجروه عن أداء الرسـالة ، وعنفوه وشتموه وأغلظوا له ، ووصفوه بالجنون ، كما فعل مشركو مكة من بعدهم •

فتوجه نوح ـ عليه السلام ـ إلى ربه يستنصره ؛ فكان الطوفان الغامر الذي لم تشهد له الدنيا مثيلاً ؛ إذ فتحت أبواب السماء بماء منهمر غزير منصب

---

(١) قبل أهل مكة •

(٢) زجر عن أداء الرسالة بالشتم وهدد بالقتل •

(٣) منصب في كثرة وتتابع •

(٤) الدُسُر : جمع دِسار ، وهو المسمار ، من دسره اذا دفعه لأنه يدسر به منفذه• والدِسار أيضاً : خيط من ليف تشد به ألواح السفينة • (تفسير النسفي جـ٤ ص ١٩٥ ، القاموس المحيط) •

(٥) برعاية الله وحفظه •

(٦) متعظ •

في كثرة وتتابع ، لم ينقطع أربعين يوماً ، وتفجرت الأرض عيوناً وينابيع تفور وتتدفق ؛ فطغى الماء وتلاطمت الأمواج[1] .

أما نوح فنجاه الله بسفينة ضخمة من ألواح خشبية مشبكة بمسامير وحبال ، تجري بأمر الله ، بمرأى منه وتحت حفظه . وهكذا يهلك الكافرون المعاندون وينجو المؤمنون المطيعون .

وهذه الآيات تبين أن الرسول عبد لله بكل ما في كلمة عبد من التواضع والخضوع لرب العالمين . فهو ليس ملكاً ، وليس طاغية متجبراً ، ولا سلطة له على رقاب الناس ؛ وإنما هو فرد منهم يخاطبهم ويدعوهم الى الهدى بدون أن يكون بينه وبين الله وشيجة من النسب ، أو أن يمتاز على غيره بطبيعة إلهية تجعله مختلفاً عنهم .

ويبدو أن قوم نوح أول قوم كذبوا بنبيهم ؛ فسنوا سنة التكذيب للأنبياء ، وباؤوا بأوزار من تبعهم إلى يوم القيامة .

وبقيت ذكرى نوح ـ عليه السلام ـ وستبقى طيلة الحياة شاهداً على أن الله لا يتخلى عن الدعاة إليه ، وأنه لا يعبأ بالقوم المكذبين المستكبرين .

ولا يهمنا أن نقول : هل غمر الطوفان الأرض كلها ؟ أم أنه غمر البقاع التي كان يعيش فيها قوم نوح فحسب! لأنه يبدو أن البشر لم يكونوا منتشرين في أنحاء الأرض ، بل كانوا مجتمعين في تلك البقاع التي غمرها الطوفان .

وإذا رغبت في معرفة ما دعاهم إليه ، فإنك تجد ذلك في الفصل التالي .

---

(١) قال الثعلبي : « أرسل الله الطوفان لتتمة ألفي سنة ومائتي سنة وست وخمسين سنة من لدن اهبط آدم الى الأرض » . (قصص الأنبياء ص ٥١) .
وتنص التوراة على أن آدم عاش /٩٣٠/ سنة . واذا جمعنا عمر آدم حين ولادة ابنه الذي انحدر منه نوح،وأعمار كل أب لنوح حين ولادة ابنه،كما تذكر التوراة ، نجد أن نوحاً ولد بعد خلق آدم ب /١٠٥٦/ سنة ، فيكون بين موت آدم وولادة نوح /١٢٦/ سنة ، وهي مدة غير كافية لتكاثر البشر ولانتشار عبادة الأصنام بالشكل الذي كانوا عليه قبل الطوفان ، كما أن هذه المدة لاتتفق مع حديث أبي أمامة الآتي في الفصل التالي .

٣ ـ عبادة الله الواحد :

نجد المشهد الثاني في سورة الأعراف التي تدعو إلى الإيمان بإله واحد وعبادته ، والإيمان برسله وطاعتهم واتباع ما أنزل إليهم من ربهم ، وتستعرض تاريخ البشرية من خلق آدم إلى يوم الدين ؛ ويتضمن المشهد عرض القصة باختصار ؛ لأن الهدف هنا هو تصوير طبيعة العقيدة وطريقة التبليغ وطبيعة استقبال القوم لها ، وحقيقة مشاعر الرسول وتحقق النذير ، وتذكر من القصة الحلقات المحققة لذلك[1] . فتذكر دعوة نوح ــ عليه السلام ــ قومه إلى عبادة الله وحده ، وتحذيرهم من العذاب . وتبين اعراض قومه عنه ، وظنهم أنهم على حق ، وأن نوحاً في ضلال ، مع أنه كان ناصحاً رحيماً بهم حريصاً على اقناعهم؛ فكذبوه حتى لقوا مصرعهم .

وهاهي الآيات تحكي لنا الحوار بين نوح وقومه في أسلوب هادىء وكلمات مؤثرة :

« لقد أرسلنا نوحاً الى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيرُه إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم . قال الملأ[2] من قومه إنا لنراك في ضلال مبين . قال يا قومِ ليس بي ضلالة ولكني رسول من رب العالمين . أُبلّغكم رسالات ربي وأنصح لكم وأعلم من الله ما لا تعلمون . أوَعجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ولتتقوا ولعلكم تُرحمون . فكذبوه فأنجيناه والذين معه في الفُلك وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا إنهم كانوا قوماً عمين » .

(سورة الأعراف ٥٩ ــ ٦٤)

---

(١) في ظلال القرآن جـ ٢ ص ١٣٠٨ .

(٢) أي السادة والقادة والكبراء والأشراف الذين يملؤون القلوب هيبة والمجالس ابهة .

فنوح واحد من قومه ، يعلم حالهم ، ويكلمهم بلغتهم ؛ وهم جماعته وعشيرته ، وهذا أدعى لفهمه وقبول دعوته . وهكذا كل الرسل يكلمون أقوامهم بلغتهم ، ويحاولون هدايتهم بأنسب الطرق :

« وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم فيضل الله من يشاء ويهدي من يشاء وهو العزيز الحكيم » .

(سورة ابراهيم ٤)

وحين دعا نوح قومه إلى عبادة الله لم يخالفهم في اتباع ما دعاهم إليه ؛ فهو عبد الله متصف بكل معاني العبودية لربه ، يدعو قومه إلى عبادة الله وحده ونبذ عبادة ما سواه ، ويخوفهم من العذاب العظيم ان لم يقصروا عبوديتهم على الله ، ويرغبهم في رحمة الله ورضوانه إن استجابوا له . وليس في هذه الدعوة ، ولا في ارسال واحد من البشر بالموعظة والذكر ما يدعو للعجب والكبر ! ولكن النفوس السقيمة تمضي سادرة لاهية حتى النهاية المفجعة .

والآيات تبين ان أول انحراف طرأ على البشرية هو الشرك بالله لا انكار وجوده . وقد كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الاسلام[1] .

وقد صحح (ابن حبان) من حديث (أبي أمامة) أن رجلاً قال: يارسول الله ! أنبي كان آدم ؟ قال : نعم . قال : فكم بينه وبين نوح ؟ قال : عشرة قرون[2] .

ثم ضل الناس وانحرفوا عن عبادة الله ، وأصبحوا يعبدون الأصنام . فلما تفاقم الأمر أرسل الله ــ سبحانه وتعالى ــ نوحاً ، وهو أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض بعد آدم الذي بُعث إلى زوجه وأولاده .

---

(١) تاريخ الطبري جـ١ ص ١٧٨ ، تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٢٢٣ .

(٢) فتح الباري جـ ٦ ص ٣٧٢ .

وتمادي قوم نوح في غيهم يدل على قوة تأثير العادات والأعراف على الناس ، حتى إنهم ليرون الحق باطلاً والهدى ضلالاً • كما يدل على أن البشرية وان انحرفت عن عبادة الله الواحد لا تبقى بدون آلهة وأصنام تحرص على عبادتها ، وتتهم بالضلال كل من يحاول أن يغير أوضاعها، ولو كان رسولا من رب العالمين •

وعبادة الله وحده هي الأصل الذي اتفق عليه كل الرسل من نوح إلى خاتم المرسلين :

« وإلى عاد أخاهم هوداً قال يا قومِ اعبدوا الله ما لكم من إلـه غيره أفلا تتقون » •

(سورة الأعراف ٦٥)

« وإلى ثمود أخاهم صالحاً قال يا قومِ اعبدوا الله مالكم من إلـه غيره » •

(سورة الأعراف ٧٣ ، سورة هود ٦١)

« وإلى مدين أخاهم شعيباً قال يا قومِ اعبدوا الله ما لكم من إلـه غيره » •

(سورة الأعراف ٨٥ ، سورة هود ٨٤)

وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي اليه أنه لا إلـه إلا أنا فاعبدون » •

(سورة الأنبياء ٢٥)

وحين يبلغ الرسول رسالته ، ويقيم الحجة على قومه يحيق الهلاك بالمكذبين المعرضين عن الحق غير المستبصرين •

٤ ـ مصير الظالمين :

جاء التذكير بهذا المصير في قوله تعالى :

« وقوم نوح لما كذبوا الرسل أغرقناهم وجعلناهم للناس آية[١] وأعتدنا[٢] للظالمين عذابا أليماً » ٠

(سورة الفرقان ٣٧)

وهم كذبوا رسولاً واحداً ولم يكذبوا غيره ، إلا أنهم كانوا ينكرون بعث الرسل أصلاً ٠ أو لأن من كذب واحداً منهم فقد كذب الكل ، لأن كل رسول يدعو الناس إلى الإيمان بجميع الرسل ٠ وكذلك قيل عن عاد وثمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة[٣] بأنهم كذبوا المرسلين مع أن كل قوم كذبوا رسولهم فحسب :

« كذبت عاد المرسلين ٠ إذ قال لهم أخوهم هود ألا تتقون » ٠

(سورة الشعراء ١٢٣ ـ ١٢٤)

« كذبت ثمود المرسلين ٠ إذ قال لهم أخوهم صالح ألا تتقون» ٠

(سورة الشعراء ١٤١ ـ ١٤٢)

«كذبت قوم لوط المرسلين ٠ إذ قال لهم أخوهم لوط ألا تتقون» ٠

(سورة الشعراء ١٦٠ ـ ١٦١)

« كذب أصحاب الأيكة المرسلين ٠ إذ قال لهم شعيب ألا تتقون» ٠

(سورة الشعراء ١٧٦ ـ ١٧٧)

ولا يصح ايمان من كذب بواحد من رسل الله :

---

(١) عبرة ٠

(٢) هيأنا ٠

(٣) هم أهل مدين على الصحيح ، نسبوا الى عبادة (الآيكة) وهي شجرة ، وقيل شجر ملتف كالغيضة كانوا يعبدونها ٠

« إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا • أولئك هم الكافرون حقاً وأعتدنا للكافرين عذاباً مهينا • والذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم أولئك سوف يؤتيهم أجورهم وكان الله غفوراً رحيماً » •

(سورة النساء ١٥٠ ـ ١٥٢)

ولهذا أغرق الله قوم نوح ، وجعلهم عبرة يعتبر بهم الناس • وهذا مصير كل الظالمين المكذبين •

٥ ـ طغيان المستكبرين :

ثم تنزل سورة الشعراء التي تشغل القصص ثمانين ومائة آية من مجموع آياتها البالغة مائتين وسبعاً وعشرين، ويغلب عليها جو الانذار والعذاب الذي يتبع التكذيب ، فتستنكر تكذيب قوم نوح الرسل ، مع أن نوحاً كان أخاً لهم شفيقاً عليهم ، وهو تقي أمين ، يبلغ رسالة ربه ، ولا يطلب أجراً ممن يتبعه ، ولا يكلفه بغير تقوى الله وطاعته :

« كذبت قوم نوح المرسلين . إذ قال لهم أخوهم نوح ألا تتقون . إني لكم رسول أمين . فاتقوا الله وأطيعون . وما أسئلكم عليه من أجر إن أجريَ إلا على رب العالمين . فاتقوا الله وأطيعون » .

(سورة الشعراء ١٠٥ ـ ١١٠)

ومقابل دعوة الأخ الأمين الناصح الذي لا يأخذ من قومه أجـراً جزاء هدايتهم ، كما يفعل الكهان من استغلال الدين لسلب أموال العباد :

« يا أيها الذين آمنوا إن كثيراً مـن الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله » .

(سورة التوبة ٣٤)

ومقابل دعوة البار بقومه الذي لم يطلب منهم إلا التقوى والصلاح كان استكبار علية القوم وترفعهم عن قبول الدعوة ، وأنفتهم من اتباع الداعي لأنه استجاب له نفر من المستضعفين :

« قالوا أنؤمن لك واتّبعك الأرذلون[(١)] . قال وما علمي بمـا كانوا يعملون . إنْ حسابُهم إلا على ربي لو تشعرون . وما أنا بطارد المؤمنين . إنْ أنا إلا نذير مبين » .

(سورة الشعراء ١١١ ـ ١١٥)

---

(١) الرذالة : الخسة والدناءة ، وانما استرذلوهم لا تضاع نسبهم وقلة نصيبهم من الدنيا . وقيل : كانوا من أهل الصناعات الدنية .

وكذلك يكون الفقراء المحرومون أسرع إلى قبول الحق والاستجابة للمصلحين ، إذ لا توجد لهم مصالح وثروات ومناصب تلهيهم عن الاصاخة للحق ، وتمنعهم من طاعة الله الذي خلق الناس جميعاً ، وأمر بالحق والعدل. أما المترفون فيصرون على بقاء الأوضاع التي أكسبتهم المجد والشهرة والجاه ، ويمضون في الضلال والغي ، ويحسبون انهم مهتدون :

« بل قالوا إنا وجدنا اباءنا على أمة[1] وإنا على آثارهم مهتدون • وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها[2] إنا وجدنا اباءنا على أمة وإنا على اثارهم مُقتدون • قال أولو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون • فانتقمنا منهم فانظر كيف كان عاقبة المكذبين » •

(سورة الزخرف ٢٢ ـ ٢٥)

بل ان المشركين من قوم نوح اشترطوا طرد المؤمنين الضعاف ، وكذلك اشترط سادة مكة ليقبلوا الاستجابة للدعوة ؛ فنهي الرسول ﷺ عن طرد المؤمنين المتضرعين الخاشعين ، وأمر بالثبات معهم ولو لم يستجب له أحد من الأغنياء الغافلين عن ذكر الله :

« واصبر نفسك[3] مع الذين يدعون ربهم بالغَداةِ والعَشيّ يريدون وجهه[4] ولا تَعدُ[5] عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هَواه وكان أمره فُرُطاً[6] » •

(سورة الكهف ٢٨)

---

(١) على دين أو طريقة •
(٢) متنعموها الذين أبطرتهم النعمة •
(٣) احبسها وثبتها •
(٤) رضا الله
(٥) لا تجاوز •
(٦) مجاوزاً عن الحق •

ولو أن قوم نوح اكتفوا بالاعراض لهان الخطب ، غير أنهم وجدوا في هذه الدعوة والذين اتبعوها خطراً عليهم ؛ فهددوا نوحاً بالقتل بأبشع طريقة رجماً بالحجارة ان لم ينته عن دعوته :

« قالوا لئن لم تنته يا نوح لتكونن من المرجومين[1] ، قال رب إنّ قومي كذبون • فافتح بيني وبينهم فتحاً[2] ونجني ومن معي من المؤمنين • فأنجيناه ومن معه في الفُلْك المشحون[3] • ثم أغرقنا بعدُ الباقين • إنّ في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين • وان ربك لهو العزيز الرحيم » •

(سورة الشعراء ١١٦ ـ ١٢٢)

فلم تتخلَ العناية الإلهية عن العصبة المؤمنة الضعيفة ؛ التي نجت في السفينة المملوءة بالأمتعة والأزواج التي حملت فيها، وغرقت الكثرة المستكبرة الطاغية ، وأصبحت عبرة وآية للعالمين •

(١) المقتولين بالحجارة •

(٢) أي فاحكم بيني وبينهم •

(٣) المملوء •

٦ ـ شكـر الله على نعمـه :

لا يجمل بذرية نوح ومن نجا معه أن ينسوا مِنَّةَ الله وفضله ، بل عليهم أن يتشبهوا بأبيهم نوح ـ عليه السلام ـ فيكونوا شاكرين عابدين :

« ذرية من حملنا مع نوح إنه كان عبداً شكوراً » .

(سورة الاسراء ٣)

وفي الأثر عن السلف ان (نوحاً) ـ عليه السلام ـ كان يحمد الله على طعامه وشرابه وشأنه كله ، فلهذا سمي عبداً شكوراً :

ـ عن سعد بن مسعود الثقفي قال :

« إنما سمي نوح عبداً شكوراً لأنه كان إذا أكل أو شرب حمد الله » .

(رواه الطبراني)

ـ وعن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ :

« إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها ، ويشرب الشربة فيحمده عليها » .

(رواه مسلم ٨٩ ـ (٢٧٣٤) والترمذي والنسائي وأحمد)

ـ وقال مالك عن زيد بن أسلم :كان نوح يحمد الله على كل حال[١] .

ـ وروى عبد الرزاق بسند مقطوع : « إن نوحاً كان إذا ذهب إلى الغائط قال : الحمد لله الذي رزقني لذته ، وأبقى فيَّ قوته ، وأذهب عني أذاه[٢] » .

ولا يذهل الناس يوم القيامة عن مكانته عند ربه،وانه كان من الشاكرين:

ـ عن أبي هريرة ان الناس يأتون آدم ليشفع لهم يوم القيامة ، فيعتذر ويقول لهم :

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٣ ص ٢٤ .

(٢) فتح الباري جـ ٦ ص ٣٧٢ .

اذهبوا إلى نوح : « فيأتون نوحاً فيقولون : يا نوح ! أنت أول الرسل إلى أهل الأرض ، وسماك الله عبداً شكوراً ، أما ترى إلى ما نحن فيه ؟ ألا ترى ما بلغنا ؟ ألا تشفع لنا إلى ربك ؟ فيقول : ربي غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ، ولا يغضب بعده مثله ، نفسي نفسي ، ائتوا النبي » .

(البخاري ٣٣٤٠)

٧ ـ ثبات نوح عليه السلام :

تذكر سورة (يونس) التي نزلت بعد (الإسراء) ثبات (نوح) عليه السلام وتوكله على الله وعدم مبالاته بكيد قومه ، وتبين أن الله نجاه ومن معه وأورثهم خلافة الأرض :

« واتلُ عليهم نبأ(١) نوح إذ قال لقومه يا قومِ إن كان كبُر(٢) عليكم مقامي وتذكيري بآيات الله فعلى الله توكلت فاجمعوا أمرَكم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غُمَّة(٣) ثم اقضوا(٤) إليّ ولا تنظرونِ (٥) ، فان توليتم(٦) فما سألتكم عليه من أجر إن أجريَ إلا على الله وأُمرت أن أكون من المسلمين .

« فكذّبوه فنجيناه ومن معه في الفلك وجعلناهم خلائف وأغرقنا الذين كذبوا باياتنا فانظر كيف كان عاقبة المنذَرين » .

(سورة يونس ٧١ ـ ٧٣)

فنوح ـ عليه السلام ـ ذكّر قومه بالحجج والبراهين، وهو متوكل على الله ، لا يبالي بقوة قومه وشركائهم الذين يدعونهم من دون الله ، ولا يخيفه تهديدهم برجمه ؛ بل يتحداهم بأن لا يجعلوا أمرهم ملتبساً عليهم، وأن يفصلوا حالهم معه بدون تأخير .

---

(١) خبر .
(٢) عَظُم وثقل .
(٣) أي ملتبسا ، والغُمة الستره ، من غَمَّه اذا ستره .
(٤) أدوا إلي ما هو حق عندكم من هلاكي .
(٥) ولا تمهلوني .
(٦) أعرضتم .

وهكذا يشعر المتوكل على الله بقوة لا تقف أمامها كل قوى الشرك والطغيان :

« ومن يتوكل على الله فهو حَسْبُه(١) إن اللهَ بالغُ أمره(٢) قد جعل الله لكل شيء قَدْراً » • (سورة الطلاق ٣)

وبالتوكل على الله ثبت الرسل والدعاة إلى الإيمان رغم قوة أعدائهم ومكرهم الكبير • قال هود ـ عليه السلام ـ لقومه :

« إني أشهِدُ اللهَ واشهدوا أني بريء مما تشركون • من دونه فكيدوني جميعاً ثم لا تُنْظِرونِ(٣) إني توكلت على الله ربي وربِّكم ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها(٤) إنَّ ربي على صراط مستقيم(٥) » • (سورة هود ٥٤ ـ ٥٦)

والآيات السابقة تبين بجلاء أن نوحاً ـ عليه السلام ـ من المسلمين • والإسلام هو دين رسل الله جميعاً من أولهم إلى آخرهم ، رغم تنوع شرائعهم السماوية وتعدد مناهلهم ، قال يوسف عليه السلام :

« ربِّ قد اتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث فاطرَ السموات والأرض أنت وليٌّ في الدنيا والآخرة توفني مسلماً وألحقني بالصالحين » • (سورة يوسف ١٠١)

---

(١) كافيه •

(٢) اي منفذ امره •

(٣) لا تمهلوني •

(٤) مالكها ومدبرها •

(٥) أي ان ربي على الحق لا يميل عنه ، او أنه يدل على صراط مستقيم •

وقالت ملكة سبأ :

« رب إني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين » .

(سورة النمل ٤٤)

ــ وعن أبي هريرة ــ رضي الله عنه ــ أن سول الله ﷺ قال :

« الأنبياء إخوة لعلات ، أمهاتهم شتى ، ودينهم واحد » .

(أخرجه البخاري ٣٤٤٣ ومسلم ١٤٥ ـ (٢٣٦٥) وابن حبان وأبو داود)

فأولاد العلات هم الاخوة لضرائر عدة وأب واحد . والرسل ــ وان اختلفت شرائعهم ــ دينهم واحد وهو الإسلام .

كما تبين الآيات ان الخلافة في الأرض هي للمؤمنين الصالحين :

« وعدَ اللهُ الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنَّهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليُمكِّنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليُبدِّلنَّهم من بعد خوفهم أمْناً يعبدونني لا يشركون بي شيئاً ومن كفر بعد ذلك فاولئك هم الفاسقون » .

(سورة النور ٥٥)

ومهما انتفش الباطل وزها ، واستكبر الطغاة وبغوا ، فإن النصر الأخير للأتقياء العابدين :

« ولقد كتبنا في الزَبور[1] من بعد الذِّكر[2] أن الأرض يرثها عباديَ الصالحون . ان في هذا لبلاغاً لقوم عابدين » .

(سورة الأنبياء ١٠٥ ـ ١٠٦)

---

(١) كتاب داود ، أو كل كتاب منزل .

(٢) التوراة ، أو اللوح المحفوظ .

٨ ـ طبيعة الرسول :

وفي سورة (هود) التي نزلت بعد سورة (يونس) نجد أكبر قدر من قصة نوح ، لأن القصص قوام هذه السورة التي جاءت لتقرير حقائق العقيدة. وقد رأينا تقسيم آياتها المتعلقة بالقصة الى ثلاثة أقسام ، تبين طبيعة الرسول ، وصنع السفينة ، ومقاطعة الكافرين .

يشمل القسم الأول دعوة نوح قومه إلى عبادة الله، وتخويفهم من العذاب، واعتراض الأشراف عليه بأنه بشر مثلهم ، لم يتبعه إلا أراذلهم من غير روية ، واستخفافهم بالعذاب الذي حذرهم منه :

« ولقد أرسلنا نوحاً الى قومه إني لكم نذير مبين . أن لا تعبدوا إلا الله إني أخاف عليكم عذابَ يوم أليم . فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما نراك إلا بشراً مثلنا وما نراك اتبعك إلا الذين هم أرَاذِلُنا بادي الرأي وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين . قال يا قومِ أرأيتم ان كنتُ على بينة من ربي واتاني رحمة من عنده فَعُمِّيَتْ(١) عليكم أنُلْزِمُكُمُوها وأنتم لها كارهون ويا قومِ لا أسئلكم عليه مالا إنْ اجريَ إلا على الله وما أنا بطاردِ الذين امنوا إنهم ملاقوا ربهم ولكني اراكم قوماً تجهلون . ويا قومِ مَنْ ينصرني من الله إنْ طردتهم أفلا تذكرون . ولا أقول لكم عندي خزائنُ الله ولا أعلم الغيب ولا أقولُ إني ملَك ولا أقول للذين تزدري(٢) أعينكم لن يؤتيهم الله خيراً الله أعلم بما في أنفسهم إني إذاً لمن الظالمين . قالوا يا نوح قد جادلتنا فأكثرتَ جدالنا فاتِنا بما تَعِدُنا إن كنتَ من الصادقين . قال إنما يأتيكم به الله إن شاء وما أنتم بمعجزين . ولا ينفعكم نصحي إن أردتُ أن

---

(١) خفيت . (٢) تعيب وتحتقر .

أنصحَ لكم إن كان الله يريد أن يُغويكُم[1] هو ربُكم وإليه ترجعون • أم يقولون افتراه قل إن افتريتُه فعليَّ إجرامي وأنا بريء مما تُجرمون » • (سورة هود ٢٥ ـ ٣٥)

فهنا نجد الملأ من الكافرين يعترضون على نوح بأنه بشر مثلهم ، ليس بملَك ؛ فكيف أوحي إليه من دونهم ! وبأنه لم يتبعه سوى الأراذل الفقراء من غير روية ونظر وتفكير ، وانه وأتباعه لا يمتازون عليهم في خلق ولا رزق ولا حال ، ويتهمونهم بالكذب فيما يدعونه من البر والصلاح والسعادة في الآخرة •

وهذا الاعتراض دليل على جهلهم وقلة علمهم وعقلهم ؛ فانه ليس بعار على الحق رذالة من اتبعه ، فإن الحق في نفسه صحيح سواء اتبعه الأشراف أو الأراذل • بل اتباع الحق هم الأشراف ولو كانوا فقراء ، والذين يأبونه هم الأراذل ولو كانوا أغنياء •

وقولهم : « بادي الرأي » ليس بمذمة ولا عيب ، لأن الحق إذا وضح لا يبقى للرأي ولا للفكر مجال ، بل لا بد من اتباع الحق والحالة هذه لكل ذي زكاء وذكاء • ولا يفكر هاهنا إلا غبي أو عيي • والرسل ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ إنما جاؤوا بأمر جلي واضح[2] •

وأما بشرية الرسول فضرورية ليمكن لقومه أن يفهموه ، وأن يتلقوا عنه ويقتدوا به • ولو كان أهل الأرض ملائكة لنزل عليهم ملَك :

« قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنَزَّلنا عليهم من السماء ملَكا رسولا » • (سورة الاسراء ٩٥)

---

(١) يضلكم •

(٢) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٤٤٢ •

وكما اعترض قوم نوح عليه بأنه بشر مثلهم ، اعترضت قبيلة عاد على رسولها هود :

« وقال الملأ من قومه الذين كفروا وكذّبوا بلقاء الآخرة واترفناهم في الحياة الدنيا ما هذا إلا بشر" مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون • ولئن اطعتم بشرا مثلكم انكم اذاً لخاسرون » •

(سورة المؤمنون ٣٣ ــ ٣٤)

وبذلك تنعكس المفاهيم عند المترفين ، فيجادلون بالباطل ليدحضوا به الحق • وما أعجب شأن الضالين ، لم يرضوا للنبوة ببشر ، وقد رضوا للإلهية بحجر •

ومن شأن الواحد من البشر ــ وان كان رسولا ــ ألا يعلمَ الغيب إلا ما أطلعه الله عليه ، ولا يطلع على ما في نفوس الناس وضمائرهم ، ولا قدرة له على التصرف في خزائن الله للاغراء باتّباعه • ولا سلطة له على رقاب الناس لاجبارهم على طاعته أو تعذيب من يخالفه •

وفوق تلك الأعذار الواهية التي تعلل بها الكافرون ، فأصبحوا يكرهون الحق ولا يهتدون إلى الحقيقة ، فإنهم تبرموا من النصيحة الواضحة التي لا تكلفهم شيئاً ، واستعجلوا نقمة الله وسخطه كما فعل مشركو مكة من بعدهم :

« واذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحقَ من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم » •

(سورة الأنفال ٣٢)

وينتهي القسم الأول بحكاية قول الكافرين لمحمد ﷺ بأنه افترى هذا وافتعله من عنده ، وتبرئته من هذه التهمة •

٩ ـ صنع السفينة :

ويشمل القسم الثاني صنع سفينة نوح ، وسخرية قومه منه وهم يمرون عليه ، وحمل أهله المؤمنين وهلاك الظالمين :

« واوحي الى نوح أنَّه لن يؤمن من قومك إلاَّ من قد آمن فلا تبتئس[١] بما كانوا يفعلون واصنع الفلك باعيننا ووحينا ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون • ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ" مِنْ قومه سَخِروا منه قال إن تسخروا منا فانا نسخر منكم كما تسخرون • فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل[٢] عليه عذاب مقيم • حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور[٣] قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك الا من سبق عليه القول ومن آمن وما آمن معه إلا قليل • وقال اركبوا فيها باسم الله مَجْراها ومُرْساها إن ربي لغفور رحيم • وهي تجري بهم في موج كالجبال ونادى نوح ابنه وكان في مَعْزِل يا بني اركب معنا ولا تكن مع الكافرين • قال سآوي الى جبل يعصمني[٤] من الماء قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رَحِمَ وحال بينهما الموج فكان من المغرقين • وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي[٥] وغيض[٦] الماء وقضي الأمر واستوت على الجودي[٧] وقيل بعداً[٨] للقوم الظالمين » •

(سورة هود ٣٦ ـ ٤٤)

(١) لا تحزن • (٢) ينزل •
(٣) التنور مكان صنع الخبز ، واختلف في مكانه ، فقيل كان بالهند ، وقيل بناحية الكوفة •
(٤) يمنعني • (٥) امسكي عن المطر •
(٦) نقص • (٧) اسم جبل •
(٨) سحقاً •

لقد أوحى الله إلى نوح لما استعجل قومه نقمة الله بهم وعذابه لهم ألا يحزن عليهم ولا يأبه لأمرهم ، وأمره بصنع السفينة بمرأى منه ، كأن الله معه أعيناً تكلؤه من أن يزيغ في صنعته عن الصواب، وحينما كان ــ عليه السلام ــ يصنع الفلك كان قومه يتضاحكون منه ويقولون له : يا نوح ! صرت نجاراً بعد أن كنت نبياً ! ويهزؤون به ، ويكذبون بما يتوعدهم به من الغرق .

وجاء أمر الله ، فهطلت الأمطار غزيرة متتابعة ، وصارت الأرض عيوناً تفور ، حتى فار الماء من التنانير التي هي مكان النار . وحينئذ أمر الله نوحاً أن يحمل معه في السفينة من كلٍ زوجين اثنين من صنوف المخلوقات التي يحتاج إليها الناس ، وما يستطيع القبض عليه من المخلوقات .

ونعرض هنا عن التفاصيل المتعلقة بأنواع هذه المخلوقات ، كما أعرضنا عن وصف السفينة وأبعادها وخشبها وطبقاتها ومدة صنعها وجريها على وجه الماء ورسوها ، مما يذكره المفسرون والمؤرخون نقلا عن أهل الكتاب . فالله أعلم بحقيقة ذلك ، ولا نرى فيه عظة وعبرة .

والمهم أن نوحاً ــ عليه السلام ــ حمل أهله ، وهم أهل بيته وقرابته إلا من سبق عليه القول منهم ، ممن لم يؤمن ، فكان منهم ابنه يام[1] ، الذي انعزل وحده بعيداً عن أبيه وعن السفينة ، وامرأة نوح ، وكانت كافرة بالله ورسوله . كما حمل معه المؤمنين على قلتهم . وقد اختلفت الأقوال في عددهم:

فقيل : انهم سبعة : نوح وأولاده الثلاثة : سام وحام ويافث،وزوجاتهم.

وقيل : انهم ثمانية : هؤلاء ، وامرأة ابنه الذي غرق .

وقيل : انهم تسعة : بنوه ، وستة ممن آمن معه ، وقيل : عشرة ، أو عشرة سوى نسائهم وقيل ثلاثة عشر : نوح وأولاده الثلاثة ونساؤهم ، وستة آخرون .

---

(١) ويسمى كنعان أيضاً .

وقيل : اثنان وسبعون، أو ثمانية وسبعون،وقيل أربعون رجلاً وأربعون امرأة ، أو ثمانون من الرجال والنساء . والله أعلم[1]

ونحن نستبعد القول الأول والثاني ، لأن القرآن دل على أن نوحاً كان له أتباع من الذين أطلق عليهم الكفار وصف الرذالة .

وهذه القلة المؤمنة لها مكانتها العالية عند ربها ، فمن أجلها كان الطوفان الذي أغرق كل الكافرين ، وهكذا شأن المؤمنين دائماً ؛ فهم كالشامة في زينتها وبهائها وصغر حجمها ، أو كالواحة وسط الصحراء القاحلة ؛ ترعاهم العناية الإلهية،ومن أجلهم تسخر السنن الكونية دون اكتراث بالكثرة الضالة الجاحدة .

« وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين » .

(سورة يوسف ١٠٣)

وبعد أن أقلعت السفينة ، وجرت فوق الأمواج المتلاطمة التي كانت مقابر لجثث الظالمين ، أمرت الأرض أن تبلع ماءها الذي نبع منها واجتمع عليها، وأمرت السماء أن تقلع عن المطر ، ونقص الماء ، ورست السفينة على الجودي . وهو جبل في نواحي ديار بكر من بلاد الجزيرة . يتصل بجبال أرمينية[2] .

قال الضحاك : الجودي جبل بالموصل . وقال بعضهم : هو الطور .

وصور المشهد الهائل بكلمات فخمة معبرة .

« وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء اقلعي وغيض الماء وقضي الأمر واستوت على الجودي وقيل بعداً للقوم الظالمين » .

(سورة هود ٤٤)

وهي تقابل الآيات الدالة على حصول الطوفان :

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٢٢٤ ، ٤٤٥ ـ ٤٤٧ ، تفسير النسفي جـ ٢ ص ٦٣، ١٩٦ ـ ٢٠٣ . تاريخ الطبري جـ ١ ص ١٨٧ ـ ١٨٨ ، الكامل لابن الأثير جـ ١ ص ٧٠ .

(٢) قصص الأنبياء ـ عبد الوهاب النجار ص ٣٧ .

« ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر * وفجرنا الأرض عيوناً فالتقى الماء على أمر قد قدر » * (سورة القمر ١١ ــ ١٢)

مما يشهد لهذا القرآن بالفصاحة والبلاغة ، ويجعل الأدباء عاجزين عن الاتيان بمثل هذا الوصف الدقيق الذي يأخذ بالألباب •

وكان خروجهم من السفينة في العاشر من شهر محرم •

روى ابن جرير عن سول الله ﷺ قال :

« في أول يوم من رجب ركب نوح السفينة ، فصام هو وجميع من معه• وجرت بهم السفينة ستة أشهر ، فانتهى ذلك إلى المحرم ، فأرست السفينة على الجودي يوم عاشوراء ، فصام نوح ، وأمر جميع من معه فصاموا شكراً لله عز وجل(١) » •

وروى عن قتادة قال :

ذكر لنا أنها ــ يعني الفلك ــ استقلت بهم في عشرين من رجب، فكانت في الماء خمسين ومائة يوم ، واستقرت على الجودي شهراً ، واهبط بهم في عشر خلون من المحرم يوم عاشوراء(١) •

وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة ــ رضي الله عنه ــ قال : مر النبي ﷺ بأناس من اليهود ، وقد صاموا يوم عاشوراء فقال « ما هذا الصوم ؟ »•

قالوا : هذا اليوم الذي نجى الله به موسى وبني اسرائيل من الغرق ، وغرق فيه فرعون ، وهذا يوم استوت فيه السفينة على الجودي • فصام نوح وموسى ــ عليهما السلام ــ شكراً لله عز وجل •

فقال النبي ﷺ : « أنا أحق بموسى ، وأحق بصوم هذا اليوم » • فصام وقال لأصحابه « من كان أصبح منكم صائماً فليتم صومه ، ومن كان أصاب من غذاء أهله فليتم بقية يومه »•

وانتهى المشهد بالهلاك والخسار للظالمين والبعد من رحمة الله •

---

(١) تاريخ الطبري جـ ١ ص ١٩٠ •

١٠ ـ لا ولاء للكافرين :

ونستمع في القسم الثالث إلى نوح يدعو ربه لنجاة ابنه ، والقرار الفصل في هذه القضية ، والتعليق عليها :

« ونادى نوح ربه فقال رب إنّ ابني من أهلي وإن وعدَكَ الحق وأنت أحكم الحاكمين • قال يا نوح إنه ليس من أهلك إنّهُ عَمَلٌ غيرُ صالح فلا تَسْئَلْنِ ما ليس لك به علم إني أعظك أن تكون من الجاهلين • قال ربِ إني اَعوذُ بك أنْ أسْئَلَكَ ما ليس لي به علم وإلاّ تغفرْ لي وترحمني اكن من الخاسرين • قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك وأممٌ سنمتعهم ثم يمسُّهم منا عذاب أليم • تلك مِن أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومُك من قبل هذا فاصبر إنّ العاقبة للمتقين » •

(سورة هود ٤٥ ـ ٤٩)

وقد استمعنا في القسم الثاني إلى نوح ينادي ابنه ليركب معه ، ويحذره من البقاء مع الكافرين ، ومضى الابن العاق غير مقدر لمصيره ، وحال بينهما الموج ، وغاب عن أنظار الوالد الحنون •

وما أن استقرت السفينة على شاطىء الأمان حتى ازداد الشوق عند الأب الشفوق ، وهيجه الحنين إلى فلذة كبده ، فابتهل إلى الله متضرعاً ، وأتاه الجواب الحاسم بتنحية ولده عن أهله لسوء عمله ، ولا يعني هذا الطعنَ في نسبه ، فعن ابن عباس قال : « هو ابنه غير أنه خالفه في العمل والنية[1] » •

---

(١) تفسير ابن كثير جـ٢ ص ٤٤٨ •

وفي هذا إيذان بأن قرابة الدين غامرة لقرابة النسب ؛ ويؤكد هذا المعنى نهي المؤمنين عن موالاة آبائهم واخوانهم إن لم يؤمنوا :

« يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم واخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الايمان ومن يتولهم منكم فاولئك هم الظالمون» .

(سورة التوبة ٢٣)

وامتثل نوح ــ عليه السلام ــ أمر ربه ، وسأله المغفرة والرحمة . وهبط مصحوباً بالسلام والبركات من الله عليه وعلى من معه من المؤمنين الأطهار . أما من يكفر بعد ذلك فسيمتعهم الله قليلا في الدنيا بالسعة في الرزق ورغد العيش ، ثم يمسهم العذاب الأليم .

وتطوى القصة بخطاب موجه الى رسول الله ﷺ يبين أنه ما كان هو ولا قومه على علم بهذه الأخبار ، فهي شاهد على أنها منزلة من عند الله عالم الغيب والشهادة ، وما عليه إلا الصبر على تكذيب قومه وأذاهم ، فإن الفوز والنصر والغلبة للمتقين(١) .

---

(١) تفسير الكشاف للزمخشري جـ ٢ ص ٢٦٤ ــ ٢٧٥ .

١١ ــ امــرأة نــوح :

وكما تبرأ نوح من ابنه الكافر تبرأ من امرأته التي أصبحت مثــلاً في الكفر مع امرأة لوط :

« ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتــا تحت عبدَين من عبادنا صالحَين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئاً وقيل ادخلا النار مع الداخلين »[١] • (سورة التحريم ١٠)

وليس المراد بقوله : « فخانتاهما » في فاحشة ، بل في الدين ، فإن نساء الأنبياء منزهات عن الوقوع في الفاحشة لحرمة الأنبياء • وعن ابن عباس قال :

« مازنتا ، أما خيانة امرأة نوح فكانت تسخر منه مع الساخرين من قومه ، وتخبر أنه مجنون • وأما خيانة امرأة لوط فكانت تدل قومها علــى أضيافــه » •

وقال عكرمة والضحاك ومجاهد وغيرهم : « ما بغت امرأة نبي قط • إنما كانت خيانتهما في الدين » • وقد مثل الله ــ بهما حال الكفار في أنهم يعاقبون على كفرهم وعداوتهم للمؤمنين بلا محاباة ، ولا ينفعهم مع عداوتهم لهم ما كان بينهم وبينهم من النسب والمصاهرة[٢] •

وبذلك يبرز مبدأ التبعة الفردية ومسؤولية كل إنسان عن نفسه :

« من اهتدى فانما يهتدي لنفسه ومن ضل فانما يضل عليهــا ولا تزر وازرة وزر أخرى[٣] وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » • (سورة الاسراء ١٥)

---

(١) سورة التحريم ١٠ وهي مدنية ، والآيات التالية من قصة نوح نزلت قبلها لأنها مكية ، ولكنا وضعنا هذه الآية هنا للشبه بين موقف ابن نوح وامرأته في الكفر •

(٢) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٤٤٨ ، جـ٤ص ٣٩٣ ، وتفسير النسفي جـ٤ص٢٦١ •

(٣) أي كل آثمة تحمل ذنوبها ، ولا تحمل ذنوب نفس أخرى •

١٢ ـ الهداية والقدوة :

يشكل المؤمنون المهتدون في كل العصور والرسل جميعاً أمة واحدة ، لا يشوبها أحد من الكافرين ، ولو كان على صلة بهم في النسب أو المصاهرة. وهم في هذا مقتدون بأبيهم نوح عليه السلام :

« ونوحا هدينا من قبلُ ومن ذريته داوُد وسُليمان وأيوب ويوسف وموسى هارون وكذلك نجزي المحسنين • وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس كل من الصالحين • واسماعيل واليَسَعَ ويُونُسَ ولوطاً وكلا فضلنا على العالمين • ومن آبائهم وذرّيَّاتهم واخوانهم واجتبيناهم وهديناهم الى صراط مستقيم • ذلك هدى الله يهدي به من يشاء مِنْ عِبادِه ولو أشركوا لحَبِط(١) عنهم ما كانوا يعملون • أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحُكم والنبوة فان يكفر بها هؤلاء فقد وكّلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين أولئك الذين هداهم الله فبهُداهم اقتده قل لا أسْئَلُكُم عليه أجراً إن هو إلا ذِكْرى للعالمين » •

(سورة الأنعام ٨٤ ـ ٩٠)

والمراد بهداهم الذي أمر الله بالاقتداء به طريقتهم في الايمان باللهوتوحيده، وأصول الدين •

(١) حبط عملهم : ذهب ضياعاً ، كما تهلك الدابة التي ترعى نبتاً مسموماً ، فتنتفخ ثم تموت •

١٣ ـ بقاء ذرية نوح وذكراه :

تدل سورة (الصافات) على أن الطغاة ينقرضون ، وأن المؤمنين يبقون، وتبقى ذكراهم الحسنة ، ينالون السلام والدعاء ممن يخلفهم :

« ولقد نادانا نوح فَلَنِعْمَ المجيبون • ونجيناه وأهلَه من الكرب العظيم • وجعلنا ذريَّته هم الباقين • وتركنا عليه في الاخرين • سلام على نوح في العالَمين • إنَّا كذلك نجزي المحسنين • إنَّه من عبادنا المؤمنين • ثم أغرقنا الاخرين » •

(سورة الصافات ٧٥ ـ ٨٢)

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال : « لم تبقَ إلا ذرية نوح عليه السلام » • وقال سعيد بن أبي عروبة عن قتادة قال : « الناس كلهم من ذرية نوح عليه السلام » •

وروى الترمذي وابن جرير وابن أبي حاتم من حديث سعيد بن بشير عن قتادة عن الحسن عن سمرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ في قوله تعالى : « وجعلنا ذريته هم الباقين » • قال : « سام وحام ويافث » •

أما المؤمنون الذين اتبعوا نوحاً وكانوا معه في الفلك فقد بادوا وهلكوا فلم يبقَ لهم عقب • وإنما الذين هم اليوم في الدنيا من بني آدم ولد نوح وذريته دون سائر ولد آدم •

وفوق بقاء النسل والذرية ، يتلقى السلام ، وينهال عليه الثناء ، فما زال نوح يذكر بخير كما قال ابن عباس رضي الله عنهما • وقال قتادة والسدي : « أبقى الله عليه الثناء الحسن في الآخرين » • وقال الضحاك : « السلام والثناء الحسن »[١] •

وما هذا الثناء والسلام إلاّ جزاء إيمانه •

وأما غير المؤمنين من قوم نوح فكان مصيرهم الهلاك والفناء والعذاب والشقاء الأبدي •

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ١٢ ، تاريخ الطبري ج ١ ص ١٩١ •

١٤ ـ سورة نوح :

هذه السورة مكية ، نزلت بعد سورة النحل ، وآياتها الثمانية والعشرون كلها في قصة نوح عليه السلام • ولا نجد سورة غيرها مخصصة بكاملها لقصة نبي من الأنبياء • وقد رأينا تقسيمها إلى ثلاثة أقسام :

آ ـ الدعـوة

« إنا أرسلنا نوحاً الى قومه أنْ أَنذر قومك من قبل أنْ يأتيَهم عذاب أليم قال يا قوم إني لكم نذير مبين • أنِ اعبدوا الله واتقوه وأطيعونِ • يغفرْ لكم من ذنوبكم ويؤخركم الى أجَل مسمى إنَّ أجل الله إذا جاء لا يؤخر لو كنتم تعلمون • قال ربِّ إنِّي دعوت قومي ليلا ونهارا • فلم يزدهم دعائي إلا فِراراً • وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصرُّوا واستكبروا استكباراً • ثم إني دعوتُهم جِهارا • ثم إني اعلنت لهم وأسررت لهم إسراراً • فقلت استغفروا ربكم إنَّه كان غَفَّارا • يُرسلِ السماء عليكم مِدْراراً ويُمْدِدْكُم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم انهاراً » •

(سورة نوح ١ ـ ١٢)

تبدأ السورة بتقرير مصدر الرسالة ، وهو المصدر الذي صدر منه الوجود كله والحياة ، وهو الله الذي خلق البشر وأودع فطرتهم الاستعداد لأن تعرفه وتعبده • فلما انحرفوا عنها وزاغوا أرسل إليهم رسله يردونهم إليه ، وقد اعتمد نوح على الترهيب والترغيب ، فخوفهم من العذاب الأليم في الدنيا أو في الآخرة أو فيهما معاً • ورغبهم في الحياة الرغيدة والخيرات الكثيرة والتأخير إلى الأجل المضروب ، والتمتع بالأموال والبنين والبساتين والأنهار •

ولم يكلفهم بغير عبادة الله وطاعة رسوله المبلغ عن ربه المفصح عن نذارته، ولم يأمرهم بسوى تقوى الله وترك محارمه وطلب مغفرته•وكان يتحين الفرصة تلو الفرصة لتبليغ الرسالة ، فلا يقصر في ليل أو نهار ، ولا يسأم عنها في السر أو العلانية ، ولا يترك وسيلة يرجو بها الاستجابة إلا سلكها •

لكنّ قومه أصموا آذانهم ، وسدوها بأصابعهم حتى لا يسمعوا صوته، وتغطوا بثيابهم لئلا يعرفهم ، ولا ينظروا إلى وجهه ، واستنكفوا عن اتباع الحق والانقياد له ، كما فعل مشركو مكة بعدهم :

« وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغَوا فيه لعلكم تغلبون » .

(سورة فصلت ٢٦)

مع أنهم لو اتقوا الله واستغفروه لأرغد عيشهم ، ورزقهم المال الكثير والبنين والجنات التي تجري خلالها الأنهار ، ولمد في أعمارهم وأصلح حالهم . وهذا الارتباط بين صلاح القلوب وزكاة النفوس وبين تيسير الأرزاق وعموم الرخاء جاء في قوله تعالى :

« ولو أنّ أهل القرى آمنوا واتّقَوْا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكنْ كَذّبُوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون » .

(سورة الأعراف ٩٦)

كما ورد مثله في أهل الكتاب في قوله سبحانه وتعالى :

« ولو أنّ أهلَ الكتاب آمنوا واتّقَوْا لكفّرنا عنهم سيّئاتهم ولأدخلناهم جنات النعيم . ولو أنهم أقاموا التّوراة والانجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم منهم أمّةٌ مقتصدة وكثير منهم ساء ما يعملون » .

(سورة المائدة ٦٥ ــ ٦٦)

وبينه هود ــ عليه السلام ــ لقومه :

« وياقومِ استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يُرسلِ السماء عليكم مِدْراراً ويزدكم قوة الى قوتكم ولا تتولوا مجرمين » .

(سورة هود ٥٢)

وما من أمة اتقت الله وعبدته وأقامت شريعته ، فحققت العدل والأمن للناس جميعاً إلا فاضت فيها الخيرات ، ومكنها الله في الأرض، فشريعة الله تجعل الأموال تستخرج وتستثمر وتوزع على أسس سليمة عادلة . وتقوى الله تجعل الناس يخلصون في عملهم ، ويزهدون في دنياهم ، ويتخلصون من الاستغلال والغش والخداع ، فتصان الأموال ويبارك فيها .

ولم يكتف نوح بهذه الدعوة المجردة ، وإنما كان يدعم قوله بالأدلة والبراهين العلمية ، فما أدلته ؟

ب ـ الدليل والبرهان

« ما لكم لا ترجون لله وقاراً . وقد خلقكم أطوارا . ألم تروا كيف خلق الله سبع سماوات طباقاً . وجعل القمر فيهن نوراً وجعل الشمس سراجا . والله أنبتكم من الأرض نباتا . ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجا . والله جعل لكم الأرض بساطا . لتسلكوا منها سُبُلاً فجاجاً » .

(سورة نوح ١٣ ـ ٢٠)

فخلق الإنسان والسماء والأرض والشمس والقمر يجعل كل مفكر فيها يؤمن بالله ويعظمه حق عظمته ، ولا بد وأن قوم نوح فهموا من هذه الآيات في أنفسهم وفي الكون من حولهم ما له وقع في نفوسهم ، يقودهم إلى الاستجابة لو أرادوا .

وأطوار خلق الإنسان قد يكون المقصود منها النطفة والعلقة والمضغة والهيكل العظمي والخلق الكامل ، مما يدركه القوم إذا ذكر لهم لأن الأجنة التي تسقط قبل اكتمالها في الأرحام يمكن أن تعطيهم فكرة عن هذه الأطوار .

ويمكن أن يكون مدلولها ما يقوله علم الأجنة من أن الجنين يشبه في أول أمره حيوان الخلية الواحدة • ثم يشبه بعد فترة من الحمل الحيوان المتعدد الخلايا، ثم يأخذ شكل حيوان مائي، ثم شكل حيوان ثديي، ثم شكل المخلوق الإنساني • وقد يكون هذا مدلول قوله تعالى :

« ولقد خلقنا الانسان من سُلالة من طين • ثم جعلناه نطفة في قرار مكين • ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خَلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين » • (سورة المؤمنون ١٢ ـ ١٤)

والتعبير عن نشأة الإنسان من الأرض بالانبات يوحي بالوحدة بين أصول الحياة على وجه الأرض، وأن نشأة الإنسان من الأرض كنشأة النبات • من عناصرها الأولية يتكون، ومنها يتغذى وينمو، فهو نبات من نباتها، وهبه الله هذا اللون من الحياة، كما وهب النبات ذلك اللون من الحياة، وكلاهما من نتاج الأرض • والناس الذين نبتوا من الأرض يعودون الى جوفها مرة أخرى، فيختلط رفاتهم بتربتها، وتندمج ذراتهم في ذراتها، ثم يخرجهم الذي أخرجهم أول مرة •

وإحياء الأرض الميتة دليل على قدرة الله على احياء الموتى يوم القيامة :

« يا أيها الناسُ إنْ كنتم في ريب من البعث فانا خلقناكم من تراب ثم من نُطْفَة ثم من عَلَقَة ثم من مُضْغَة مخلَّقة وغير مخلقة لنبين لكم ونُقِرُّ في الأرحام ما نشاء الى أجَل مسمَّى ثم نُخْرِجُكم طِفلا ثم لتبلغوا أشُدَّكم ومنكم مَنْ يُتَوَفَّى ومنكم مَنْ يُرَدُّ الى أرْذَلِ العُمُر لكيلا يعلمُ من بعد علم شيئاً وترى الأرض هامِدَة فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وَرَبَت وأنبَتَت من كل زوج بهيج » • (سورة الحج ٥)

وقوم نوح يرون الشمس والقمر ، ويرون ما يطلق عليه اسم السماء ، وهو هذا الفضاء ذو اللون الأزرق ، وهذا يكفي لاثارة التطلع والتدبر فيما وراء هذه الخلائق الهائلة من قدرة مبدعة،والسماوات السبع لا يمكن حصرها في مدلولٍ مما تقول به الفروض العلمية في التعريف بالكون ، فهي كلها مجرد فروض • وما يجهله العلماء عن الكون أكثر مما اكتشفوه حتى الآن بأضعاف كثيرة •

وقد يكون في هذا الوصف للشمس والقمر : « وجعل القمر فيهن نوراً وجعل الشمس سراجاً » دليل على أن القمر يستمد ضوءه من الشمس ، وليس منبعاً ضوئياً ، وقد يكون في قوله تعالى :

« وجعلنا اللـَّيل والنـَّهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب وكل شيء فصلناه تفصيلا » •

(سورة الاسراء ١٢)

اشارة إلى هذه الحقيقة العلمية التي اكتشفها العلماء في هذا العصر ؛ مما يدل على الاعجاز العلمي للقرآن الكريم •

وأخيراً وجه نوح قلوب قومه إلى نعمة الله عليهم في تيسير الحياة لهم على هذه الأرض وتذليلها لسيرهم ومعاشهم وانتقالهم • وهذه الحقيقة قريبة من مشاهدهم وادراكهم ، لا يملكون الفرار منها كما كانوا يفرون من صوت نوح وإنذاره • فالأرض بالقياس إليهم مبسوطة ممهدة ، حتى جبالها قد جعل الله عبرها دروباً وفجاجاً ، وفي سبلها ودروبها يمشون ويركبون ويبتغون من فضل الله •

وهم كانوا يدركون هذه الحقيقة المشاهدة لهم بدون حاجة إلى دراسات علمية ، يدرسون بها النواميس التي تحكم وجودهم على هذه الأرض ، وكلما ازداد الانسان علماً أدرك جوانب جديدة وآفاقاً بعيدة ؛ مما يجعل البشرية

تفهم الآيات العلمية في كتاب الله بما يتناسب مع علومها ونظرتها إلى الكون في كل عصر ، وفي هذا دليل ساطع على أن القرآن منزل من عند الله الخلاق العليم . وإلا فكيف يتأتى لبشر في عهد نوح أو محمد ـ عليهما الصلاة والسلام ـ أن يشير إلى حقائق كونية وإنسانية لم يكتشفها العلماء إلا في هذا العصر .

هكذا كان نوح يحاول اقناع قومه . فهل اتبعوه ؟ .

لقد عصوه وتحدوه وهددوه ، مما جعله يتوجه إلى ربه بهذا الدعاء :

ج ـ دعـاء نـوح

« قال نوح ربِّ إنهم عَصَوني واتَّبعوا من لم يزده ماله وولده إلا خَساراً . ومكروا مكراً كُبَّاراً[1] . وقالوا لا تَذَرُنَّ آلهتكم ولا تذرون وَدّاً ولا سُواعاً ولا يَغُوثَ ويَعُوقَ ونَسْراً . وقد أضلوا كثيراً ولا تزد الظالمين إلا ضَلالا . مما خَطيئاتهم أغرقوا فادْخِلوا ناراً فلم يجدوا لهم من دون الله أنصاراً . وقال نوح ربِّ لا تذر على الأرض من الكافرين ديَّاراً[2] . إنك إنْ تَذَرْهُم يُضِلُّوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كَفَّاراً . ربِّ اغفر لي ولوالديَّ ولمن دخل بيتيَ مؤمنا وللمؤمنين والمؤمنات ولا تزد الظالمين إلا تباراً[3] » .

(سورة نوح ٢١ ـ ٢٨)

وبعد هذا العناء ، وبعد الإنذار والاطماع بالمال والبنين والرخاء كان العصيان والسير وراء القيادات الضالة التي تخدع الأتباع بما تملك من المال

---

(١) كبيراً عظيماً .

(٢) قال السدي : الديَّار : الذي يسكن الدار . وقال الضحاك : ديَّاراً : واحداً .

(٣) إلا هلاكاً وخساراً .

والأولاد ومظاهر الجاه والسلطان . ثم مكروا مكراً متناهياً في الكبر لقمع الدعوة ، وأصروا على عبادة الأصنام، وأسماء الأصنام الخمسة المذكورة كانت لقوم صالحين بين آدم ونوح ، فلما ما توا قال أتباعهم : لو صورناهم كان أشوق لنا إلى العبادة إذا ذكرناهم ! فصوروهم . فلما مات هؤلاء أصبحت صورهم تعبد من دون الله(١) .

وقد صارت هذه الأوثان إلى العرب في جاهليتهم : « أما وَدّ فكانت لكلب بدومة الجندل ، وأما سُواع فكانت لهُذَيل ، وأما يَغُوث فكانت لمراد ، ثم لبني غُطيف بالجرف عند سبأ ، وأما يَعُوق فكانت لهمدان ، وأما نَسْر فكانت لِحِمْيَر لآل ذي كلاع(٢) »

فانبعث من قلب نوح النبي الكريم ذلك الدعاء على الظالمين المضلين الماكرين،بعد أن أوحي إليه انه لم يؤمن من قومه إلا من قد آمن.وقبل استكمال نوح دعاءه يأتي الاعلان بأن خصومه أُغرقوا وأدخلوا ناراً ، فنقلوا من تيار البحار إلى حرارة النار ، والفاصل الزمني القصير بين غرقهم وتصليتهم النار كأنه غير موجود ، لأنه في موازين الله لا يحسب شيئاً ، وقد يكون ذلك عذاب القبر في البرزخ ، ولم يجدوا لهم ناصراً ولا معيناً .

ولم ينسَ نوح وقد تطهرت الأرض من رجس الكفار والفجرة الضالين أن يدعو بالمغفرة له ولوالديه ولمن دخل منزله أو سفينته وللمؤمنين والمؤمنات جميعاً ، وقد أجيبت دعوته في حق الكفار ، فتستجاب دعوته في حق المؤمنين إن شاء الله(٣) .

---

(١) رواه ابن جرير عن محمد بن قيس ج ٢٩ ص ٦٢ .

(٢) أخرجه البخاري (٤٩٢٠) عن ابن عباس .

(٣) تفسير النسفي ج ٤ ص ٢٨١ ـ ٢٨٥ . تفسير ابن كثير ج٢ ص ٢٢٣ ، ج٤ ص ٤٢٤ ـ ٤٢٨ ، في ظلال القرآن ج٦ ص ٣٧٠٦ ـ ٣٧١٨ .

١٥ ـ نجاة المؤمنين :

وهكذا تكون النجاة للمؤمنين والداعين إلى دين الله ، ويكون الهلاك للمستكبرين المكذبين :

« ونوحاً إذ نادى مِنْ قبلُ فاستجبنا له فنجيناه وأهلَه من الكرب العظيم[1] • ونصرناه من القوم الذين كذّبوا بآياتنا إنّهم كانوا قوم سَوْءٍ فأغرقناهم أجمعين » •

(سورة الأنبياء ٧٦ ـ ٧٧)

(١) يعني الطوفان وما كان فيه من تكذيب قومه •

١٦ ـ اتبّاع الآباء :

وبعد هذا تذكّر سورة (المؤمنون) بخلاصة دعوة نوح ورد قومه عليه بأنه بشر مثلهم ، وأنهم لم يسمعوا ببعثة البشر في آبائهم وأجدادهم :

« ولقد أرسلنا نوحاً الى قومه فقال يا قومِ اعبدوا الله ما لكم مِنْ إلـه غيرُهُ أفلا تتقون • فقال المَلَؤُ الذين كفروا من قومه ماهذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم ولو شاء الله لأنزل ملائكة ما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين إنْ هو إلا رجلٌ به جنّةٌ فتربصوا[١] به حتى حين • قال ربِّ انصرني بما كذبون • فَأوحينا إليه أنِ اصنع الفُلكَ بأعيننا ووَحينا فاذا جاء أمرُنا وفار التنور فاسلُك فيها[٢] من كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول منهم ولا تخاطبني في الذين ظَلموا إنهم مُغرَقُون • فاذا استويت أنت ومن معك على الفُلك فقلِ الحمدُ لله الذي نجّانا من القوم الظالمين • وقل رب أنزلني مُنزَلا مُبَاركاً • وأنت خيرُ المُنزلين إنَّ في ذلك لآيات وإنْ كنا لمبتلين[٣] •

(سورة المؤمنون ٢٣ ــ ٣٠)

فالجمود على ما عليه الآباء اذن يحول دون اتباع الحق ورؤية الحقيقة• ولهذا كانت الآيات تلوم المشركين لاتباعهم آباءهم بدون علم :

---

(١) انتظروا واصبروا عليه مدة حتى تستريحوا منه •

(٢) ادخل في السفينة •

(٣) لمختبرين للعباد بارسال الرسل •

« وإذا قيل لهم اتَّبعُوا ما أنزل الله قالوا بل نَتَّبع ما ألفينا[1] عليه آباءنا أوَلو كان آباؤُهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون » .

(سورة البقرة ١٧٠)

ولا تفصيل هنا لما حدث للقوم بعد هذا الأمر ، فقد تقرر انهم مغرقون ، ولكن الآيات تمضي في تعليم نوح كيف يشكر نعمة ربه ، وكيف يحمد فضله، وكيف يستهديه طريقه . ثم تعقب على القصة وما تتضمنه خطواتها من دلائل القدرة والحكمة :

« إن في ذلك لآيات وإن كنا لمبتلين » .

والابتلاء ألوان : ابتلاء للصبر وابتلاء للشكر ، وابتلاء للأجر وابتلاء للتوجيه ، وابتلاء للتأديب وابتلاء للتمحيص وابتلاء للتقويم . وفي قصة نوح أنواع من الابتلاء له ولقومه ولأبنائه القادمين[2] .

---

(١) وجدنا .

(٢) في ظلال القرآن جـ ٤ ص ٢٤٦٦ .

١٧ ـ مدة الدعوة :

ولنا أن نسأل بعد هذا كله : كم لبث نوح في قومه قبل أن يدعو عليهم ذلك الدعاء المدمر ؟ ونذهل حين نقف على تحديد المدة في قوله تعالى :

« ولقد أرسلنا نوحاً الى قومه فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً فأخذهم الطُوفَان وهم ظالمون • فأنجيناه وأصحاب السفينة وجعلناها آية للعالمين » •

(سورة العنكبوت ١٤ ـ ١٥)

فالمدة إذن طويلة مديدة تربو على تسعة قرون ، وهو صابر على أذى قومه •

قال محمد بن اسحق : « لم يلقَ نبي من قومه من الأذى مثل نوح إلا نبي قُتل » •

وكم عاش نوح حتى لبث في قومه كل هذه الأعوام ؟

لا نجد آية أو حديثاً في ذلك ، وإنما نجد أقوالاً مختلفة لبعض الصحابة والتابعين ، وغيرهم نستأنس بها وان لم نقطع بصحتها :

١ ـ قال قتادة : يقال ان عمره كله ألف سنة إلا خمسين عاماً ، لبث فيهم قبل أن يدعوهم ثلاثمائة سنة ، ودعاهم ثلاثمائة سنة ، ولبث بعد الطوفان ثلاثمائة سنة وخمسين عاماً ، وهو قول غريب •

٢ ـ وقيل : بعث نوح لخمسين سنة ، وأرسل الله الطوفان بعد مضي ستمائة سنة من عمره[١] • وتذكر التوراة أن الطوفان حدث بعد ٦٠٠ سنة من ولادة نوح ، وأنه عاش بعد الطوفان ٣٥٠ سنة •

---

(١) قصص الأنبياء للثعلبي ص ٥١ •

وظاهر السياق من الآية أنه مكث في قومه يدعوهم إلى الله ألف سنة إلا خمسين عاماً .

٣ ــ قال عون بن أبي شداد : إن الله تعالى أرسل نوحاً إلى قومه وهو ابن خمسين وثلاثمائة ، فدعاهم ألف سنة إلا خمسين عاماً ، ثم عاش بعد ذلك ثلاثمائة وخمسين سنة .

وهو أيضاً غريب ، رواه ابن أبي حاتم وابن جرير(١) .

٤ ــ وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : بعث نوح لأربعين سنة ، ولبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً، وعاش بعد الطوفان ستين عاماً ؛ حتى كثروا وفشوا ، وهو أقرب إلى الصحة والله أعلم .

ومن المحتمل أن قومه أيضاً كانوا يعيشون طويلا في تلك العصور الغابرة؛ لأن قلة السكان على وجه الأرض حينئذ يعوض عنها طول الأعمار . وهذا ما يشاهد في بعض الأنواع من المخلوقات التي يقل عددها وتعمر طويلاً كما في النسور والسلحفاة ، حتى يبلغ عمر بعضها مئات الأعوام ، بينما الذباب الذي يتوالد بالملايين لا تعيش الواحدة منه أكثر من أسبوعين . والشاعر يعبر عن هذه الظاهرة بقوله :

بغاث الطير(٢) أكثرها فراخاً وأم الصقر مقلاة نزور(٣)

ويساعد على العيش المديد حينئذ أن النوع الإنساني في بدء نشأته لم يصب بالأمراض المختلفة ، ولم تنهك قواه الأطعمة التي يتفنن في طهيها الآن ، ولايقدر جسمه على تمثلها ، ولم يكن يضطلع بحمل هموم تقلقه وتؤرقه .

---

(١) تاريخ ابن جرير الطبري ج ١ ص ١٧٩ .
(٢) ضعافه .
(٣) مقلة في الفراخ .

ولم يكن يعاني من الضجيج وتلوث البيئة والمشاكل التي تنغص عيشه ؛ فمن المعقول لهذا أن الانسان في ذلك الحين كان يعيش طويلا . ثم تناقصت الأعمار كما قصرت الأجسام على مر الأعوام .

عن مجاهد قال : قال لي ابن عمر : كم لبث نوح في قومه ؟ قلت : ألف سنة إلا خمسين عاماً . قال : فإن الناس لم يزالوا في نقصان من أعمارهم وأحلامهم وأخلاقهم إلى يومك هذا[1] .

وعن أبي هريرة — رضي الله عنه — عن النبي ﷺ قال :

« خلق الله آدم على صورته ، طوله ستون ذراعاً ، فكل من يدخل الجنة على صورة آدم . فلم يزل الخلق ينقص بعد حتى الآن »[2] .

(١) تفسير النسفي جـ ٢ ص ٦٢ ، جـ ٣ ص ٢٥٣ ، تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٢٢٣، جـ ٣ ص ٤٠٧ ، البداية والنهاية لابن كثير جـ ١ ص ١٠١ .

(٢) أخرجه البخاري /٦٢٢٧/ ومسلم /٢٨٤١/ .

١٨ ـ العبرة :

بقيت قصة نوح وستبقى آية للعالمين إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ؛ لأن الله قد أنزل فيها آيات كريمة،وجعل المسلمين يتلونها في صلواتهم •وكذلك بقيت سفينة نوح دهراً طويلاً بعده•فعن قتادة : ان الله أبقاها بأرض الجزيرة، وقيل على جبل الجودي حتى أدركها أوائل هذه الأمة[١] •

وعلّم الله الناس فيما بعد صناعة سفن أضخم وأقوى منها ، تذكرهم بنعمته على خلقه كيف أنجاهم من الطوفان :

« وآيةٌ لهم أنّا حملنا ذُرِّيتهم في الفلك المشحون • وخلقنا لهم من مثله ما يركبون • وإن نشأ نغرقهم فلا صريخ لهم ولا هم ينقذون • إلاّ رحمة منا ومتاعاً الى حين » •

(سورة يس ٤١ ــ ٤٤)

« إنا لمّا طغا الماء حملناكم في الجارية • لنجعلها لكم تذكِرَة وتعيها أُذُنٌ واعية » •

(سورة الحاقة ١١ ــ ١٢)

ولا يزال الناس يتضرعون إلى الله كلما شعروا بالخطر في عرض البحر ، ويعدون بالعبادة والشكر :

« هو الذي يسيِّركم في البر والبحر حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم اُحيط[٢] بهم دَعَوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونَنّ من الشاكرين • فلما أنجاهم

(١) تفسير النسفي جـ٤ ص ١٩٥ ، تفسير ابن كثير جـ٢ ص ٤٤٦ ، جـ٣ ص٤٠٧ •

(٢) أهلكوا ، جعل احاطة العدو بالحي مثلا في الاهلاك •

إذا هم يبغون في الأرض(١) بغير الحق يا أيها الناس إنّما بغيكم على أنفسكم متاعَ الحياةِ الدنيا ثم إلينا مرجِعُكُم فننبِّئُكم بما كنتم تعملون » ٠

(سورة يونس ٢٢ ــ ٢٣)

ولا يجمل بالانسان الكفر بعد الشكر ، ولا البغي والظلم بعد الاستكانة والوجــل :

« ربكم الذي يُزجي(٢) لكم الفُلكَ في البحر لتبتغوا من فضله إنّه كان بكم رحيما ٠ وإذا مَسَّكم الضر في البحر ضل من تدعون إلاّ إيّاه(٣) فلما نجّاكم الى البر أعرضتم وكان الانسان كَفُوراً » ٠

(سورة الاسراء ٦٦ ــ ٦٧)

وكيف يكفر الإنسان ويعرض عن عبادة ربه ، وهو ضعيف لا يستطيع أن يدفع عن نفسه الكارثة في البر أو البحر :

« أفَأَمِنْتُمْ أن يَخْسِفَ بكم جانب البر أو يرسل عليكم حَاصِباً(٤) ثم لا تجدوا لكم وكيلا ٠ أم أمِنتُمْ أن يعيدكم فيه تارة أخرى فيرسل عليكم قاصِفاً(٥) من الريح فيُغْرِقَكُمْ بما كفرتم ثم لا تجدوا لكم علينا به تَبيعا(٦) » ٠

(سورة الاسراء ٦٨ ــ ٦٩)

---

(١) يفسدون فيها ٠

(٢) يجري ويسير ٠

(٣) ذهب عن أوهامكم كل من تدعونه في حوادثكم إلا إياه وحده ، فإنكم لا تذكرون سواه ٠

(٤) هي الريح التي تحصب ، أي ترمي بالحصباء ٠

(٥) هي الريح التي لها قصيف ، وهو الصوت الشديد ، وهو الكاسر للفُلك ٠

(٦) مطالباً ، أي نفعل ما نفعل بهم ، ثم لا يجدون أحداً يطالبنا بما فعلناه انتصاراً منا ودركاً للثأر من جهتنا ٠

١٩ ـ خاتمة :

وهكذا نطوي الصفحة الأخيرة من القصة بدون أن نجـد فيها تحديداً لمكان أحداثها سوى تلك الاشارة العابرة إلى استواء السفينة ، وما قيل عـن التنور ، أو تحديداً لزمانها ، وان كنا نعلم أنها وقعت في فجر البشرية ، بعد آدم بقرون عديدة ، ضل فيها الناس وانحرفوا عن دينهم . لأن اطلاق أحداثها وراء الزمان والمكان يجعل لها أثراً أقوى وأضخم ، والتحديد ليس له أثر في العبرة المتوخاة من القصة ، فيكفي أن نعلم أنها وقعت فوق هذه الأرض التي نعيش عليها ، قبل أن نأتي بدورنا إلى هذه الحياة ، وانا مكلفون بما كلف به قوم نوح من الإيمان بالله واليوم الآخر والرسل .. ومأمورون كمـا أمروا بعبادة الله وحده . وانا موعودون كما وعدوا بالتأجيل وارغاد العيش إذا قبلنا هذه التكاليف ، ومهددون بالعذاب ان أعرضنا عنها ؛ وقد يكون العذاب الذي يستأصل الكافرين من نوع ما أصاب قوم نوح ؛ فلا نزال نسمع بفياضانات تحـدث في شرق الأرض وغربهـا ، تودي بألوف من الناس بدون أن يتمكن الإنسان من أن يقي نفسه من أخطارها ، وقد يكون العذاب من نوع آخـر وقع مثله أو لم يقع ، فالأخطار تحيط بالناس من كل جانب :

« قل هو القادر على أنْ يبعث عليكم عذابا من فوقكم[١] أو من تحت أرجلكم[٢] أو يلبسكم شِيَعاً[٣] ويذيق بعضكم بأس بعض انظر كيف نصرف الايات لعلهم يفقهون » .

(سورة الأنعام ٦٥)

---

(١) كما أمطر على قوم لوط وعلى أصحاب الفيل الحجارة .

(٢) كما غرق فرعون وخسف بقارون .

(٣) يخلطكم فِرقاً مختلفين على أهواء شتى ، وينشب القتال بينكم .

(٤) يقتل بعضكم بعضاً .

والله قادر على تعذيب الكافرين في كل حين :

«أَفَأَمِنَ أهلُ القُرى أن يأتيهم بأسنا بياتاً[٥] وهم نائمون • أوَ أمِنَ أهلُ القرى أن يأتيَهم بأسنا ضحى وهم يلعبون • أفأمِنُوا مكر الله[٦] فلا يأمَنُ مكر الله إلا القوم الخاسرون • أوَ لم يَهْدِ للذين يرثون الأرض من بعد أهلها أنْ لو نشاء أصبناهم بذنوبهم ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون » •

(سورة الأعراف ٩٧ ــ ١٠٠)

ولا مكانة في هذه الأرض للمعرضين عن الله :

« وإن تتولوا يستبدل قوما غيرَكم ثم لا يكونوا أمثالكم » •

(سورة محمد ٣٨)

ومهمازها الباطل وانتفش فهو إلى زوال :

«حتى إذا أخَذَتِ الأرض زُخْرُفَها[١] وازَّينت وظَنَّ أهلُها أنَّهم قادرون عليها اتاها أمرنا ليلا أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تَغْنَ بالأمس كذلك نفصل الايات لقوم يتفكرون » •

(سورة يونس ٢٤)

ثم إنا لم نجد في القصة ذكراً لمولد نوح ونشأته وبعثته ووفاته، ولا وصفاً لحال قومه في اقتصادهم ومعاشهم وأخلاقهم ، ولا تفصيلا للعبادات التي أمرهم بها والأحكام التي شرعت لهم•وكل ما وجدناه هو الدعوة إلى عبادة الله وحده؛ لأن هذا هو الأصل الذي تنبثق منه كل الفروع والأحكام المنظمة لجوانب الحياة المختلفة • وعبادة الله لا تقتصر على طقوس تؤدى في معزل عن الحياة ؛

---

(١) ليلاً •

(٢) أخذه الكفار من حيث لا يشعرون •

(٣) زينتها بالنبات واختلاف ألوانه •

فمعناها شامل لكل أمر ، إذ هي طاعة الله في كل شيء ، وتلقي التعاليم والنظم والتصورات والقيم والمثل والنظرة الى الوجود والحياة من الله وحده . ولهذا فإن الرسل جميعاً جعلوها أهم هدف في دعوتهم ، وقد رأينا كيف تكررت هذه الدعوة الى عبادة الله الواحد ، ورد قومه عليها بأساليب مختلفة، باختصار حيناً، وباسهاب حيناً آخر ، بما يتناسب مع موضوعات وأهداف السور التي وردت فيها ؛ بدون أن نشعر بملل من التكرار ، أو نجد اختلافاً في الوقائع ؛ مما يدل على أن هذه الآيات منزلة من العليم الحكيم :

« أفلا يتدبَّرون القُرْآنَ ولو كان من عند غير الله لَوَجَدوا فيه اختلافاً كثيراً » .

(سورة النساء ٨٢)

كما انا لا نجد نوحاً ــ عليه السلام ــ قد اعتمد على معجزات في دعوته كما اعتمد من بعده صالح وموسى وعيسى عليهم السلام . وقومه لم يطالبوه بشيء من المعجزات لأنهم كانوا أقرب الى الفطرة ، ولم يكونوا قد برعوا في شيء ليطلبوا من نبيهم أن يأتي بأهم منه . وانما خاطب نوح عقولهم وأفكارهم وقلوبهم ، وحثهم على التفكير في أنفسهم وفي الكون من حولهم ؛ ليعلموا ان وراء هذا الكون خالقاً مدبراً هو المستحق للعبادة والطاعة . وهذه الطريقة في الاقناع والإيمان نجدها واضحة في دعوة خاتم المرسلين ﷺ مما يدل على وحدانية الله تعالى واتفاق الرسل في العقيدة .

الجزء الثاني

ابراهيم عليه السلام
أبو الأنبياء

ابراهيم في القرآن الكريم

ذكر ابراهيم(١) ـ عليه السلام ـ في القرآن الكريم سبعاً وستين مرة في خمس وعشرين سورة وثلاث وستين آية • وهذا جدول بالمواضيع التي ورد اسمه فيهـا :

اسم السورة	رقمها	أرقـام الآيـات	اسم السورة	رقمها	أرقـام الآيـات
البقرة	٢	١٢٤، ١٢٥، ١٢٦، ١٢٧، ١٣٠، ١٣٢، ١٣٣، ١٣٥، ١٣٦، ١٤٠، ٢٥٨، ٢٦٠	الأنبيـاء	٢١	٥١، ٦٠، ٦٢، ٦٩
			الحـج	٢٢	٢٦، ٤٣، ٧٨
			الشعراء	٢٦	٦٩
			العنكبوت	٢٩	١٦ ، ٣١
آل عمران	٣	٣٣، ٦٥، ٦٧، ٦٨، ٨٤ ، ٩٥ ، ٩٧	الأحزاب	٣٣	٧
			الصافات	٣٧	٨٣، ١٠٤، ١٠٩
النساء	٤	٥٤، ١٢٥، ١٦٣	ص	٣٨	٤٥
الأنعـام	٦	٧٤، ٧٥، ٨٣، ١٦١	الشورى	٤٢	١٣
التوبـة	٩	٧٠ ، ١١٤	الزخرف	٤٣	٢٦
هـود	١١	٦٩، ٧٤، ٧٥، ٧٦	الذاريات	٥١	٢٤
يوسف	١٢	٦ ، ٣٨	النجـم	٥٣	٣٧
ابراهيم	١٤	٣٥	الحـديد	٥٧	٢٦
الحجر	١٥	٥١	الممتحنـة	٦٠	٤
النحل	١٦	١٢٠ ، ١٢٣	الأعلـى	٨٧	١٩
مريم	١٩	٤١ ، ٤٦ ، ٥٨			

ولا يتضمن القرآن الكريم ذكـراً لمكان أو زمان ولادتـه ، ولا وصفاً لطفولته ونشأته • وقـد اختلف في الموضع الذي ولد فيـه : فقيل : ولـد بالأهواز ، وقيل : ببابل ، وهي بجانب الكوفـة في العراق • وقيل في قريـة

(١) معنى ابراهيم بالعبرية : مطيع الله • ومعناه بالسريانية : أب راحم • (فتح الباري ج ٦ ص ٣٨٩) ويرى بعضهم أن اسمه « ابرام » ، وهـو مؤلف من « أب » ، و « رام » بمعنى أحب ، فاسمه يعني محبوب الله •

أور التي تقع بين الكوفة والبصرة عند ملتقى الفرات ودجلة • وقيل في حران شمال سورية[1] •

وذكر (النسفي) أنه كان بين نوح وابراهيم /٢٦٤٠/ سنة[2] • وذكر الثعلبي أن ولادة ابراهيم بعد الطوفان بـ /١٢٦٣/ سنة ، وبعد خلق آدم بـ /٣٣٣٧/ سنة[3] • ولا يتفق هذا التاريخ مع ما أورده عن تاريخ الطوفان وهو سنة / ٢٢٥٦ / بعد نزول آدم الى الأرض ؛ لأنا إذا أضفنا إليه /١٢٦٣/ يكون بين ولادة ابراهيم وخلق آدم /٣٥١٩/ سنة • واذا جمعنا عمر أب ابراهيم حين ولادة ابنه ، واعمار كل أب له الى نوح حين ولادة ابنه الذي انحدر منه ، كما تنص التوراة ، تكون ولادة ابراهيم بعد الطوفان بـ / ٢٩٠ / سنة أو بعد خلق آدم بـ / ١٩٤٦ / سنة •

وهكذا يبدو أن التواريخ المذكورة في التوراة والتي نقلها الأقدمون عنها ليست مضبوطة ولا دقيقة ، ولا يتفق بعضها مع بعض •

وقد رجح الأستاذ عباس محمود العقاد ان ابراهيم ــ عليه السلام ــ عاش فيما بين القرن العشرين والقرن السابع عشر قبل الميلاد، بناء على ما دلت عليه الحفريات وما تضمنته كتب التاريخ والعهد القديم[4] • وذكر الاستاذ عبد الرحمن حبنكة الميداني أنه عاش بين عامي ١٨٦١ ــ ١٦٨٦ ق•م•[5]

وتبدأ قصة ابراهيم ــ عليه السلام ــ في القرآن الكريم بمشهد يصور طريقة توصله الى الايمان بالله ، ودعوة قومه الذين كانوا يعبدون الأصنام والكواكب والنجوم الى الايمان بالله الواحد وترك ما يعبدون من دونه •

---

(١) تاريخ الطبري ج١ ص ٢٠٣ ، ٢٣٣ ، ٢٣٦ •
(٢) تفسير النسفي ج٤ ص ٢٣ •
(٣) قصص الأنبياء للثعلبي ص ٦٣ •
(٤) ابراهيم أبو الأنبياء للعقاد ص٢٣ ، ٦٨ ، ٩٩ ، ١٦٦، ١٦٧، ٢٠٧، ٢٣٤ •
(٥) انظر كتابه : العقيدة الاسلامية واسسها ــ طبعة ثانية ، دار القلم ، دمشق ص ٥١٩ •

١ ـ طريق الايمـان بالله

نرى في هذا الفصل ابراهيم ـ عليه السلام ـ يتوصل بفطرته ونظره في الكون الى الايمان بالله الخالق ، ونراه ينكر على أبيه عبادة الأصنام ، ونرى موقف قومه منه :

« وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر[1] أتتخذ أصناماً آلهة إني أراك وقومك في ضلال مبين ٠

---

(١) آزر : اسم أبيه أو لقبه ٠ قال الضحاك عن ابن عباس : « ان أبا ابراهيم لم يكـن اسمـه آزر وانما كان اسمه تارخ » ٠ (رواه ابن أبي حاتم) ٠ وقد يكون آزر اسماً للصنم الذي كـان أبو ابراهيم يخدمه ، ومن ثم غلب عليـه اسمه ٠ وعن ابن عباس : « يعني بآزر الصنم » ٠ وبه قال مجاهد والسدي ٠ وذكر (يوسبيوس) المؤرخ المسيحي اليوناني أن أبا ابراهيم يدعى (آثر) ٠ ويرى الاستاذ عباس محمود العقاد أن (آزر) هو الاسم الصحيح وان تارح محرف ، اذ قال : « إن « آزر » هي النطق الصحيح الذي عرف به اسم « أسور » القديم ٠ وان « تيرة » و « تيرح » هي نطق الذين يكتبونها « اتيره » و «اتيرح» وينطقون بكلمة « اتور » بين الواو والياء ٠ وكلمة « تارح » تنطق « تيرح » على لسان الكثيرين من الناطقين باللغات السامية ، وتنطق « تيرا » و « تيره » عند الذين لا يستطيعون النطق بالحـاء ٠ والقول في نسبـة ابراهيم الى آزر بمعنى اسور أقرب من القول بأن أباه يسمى تارحاً من الحزن أو من الكسل » ٠ (ابراهيم بو الأنبياء للعقاد ص ٢١٠ ـ ٢١١) ٠

أي أن اسم « آزر » تحول الى « اسور » الذي يطلق على الاشوريين أو السوريين القدماء ٠ ثم الى « أتور » و « اتير » وكانت تكتب « اتيره » و « اتيرح » ثم الى « تيره » و « تيرح » ٠ واخيراً الى « تارح » ٠

« وكذلك نُري ابراهيم ملكوت[1] السموات والأرض وليكون من الموقنين • فلما جنَّ[2] عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربي فلما أفل[3] قال لا أُحب الآفلين • فلما رأى القمر بازغاً[4] قال هذا ربي فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لاكونن من القوم الضالين • فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر فلما أفلت قال ياقوم إني بريء مما تشركون • إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض[5] حنيفاً[6] وما أنا من المشركين •

« وحاجّه قومه[7] قال أتُحاجونّي في الله وقد هدان ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربي شيئاً وسع ربي كل شيء علما أفلا تتذكرون • وكيف أخاف ماأشركتم ولاتخافون أنكم أشركتم بالله مالم يُنزّل به عليكم سلطانا فأي الفريقين أحق بالأمن انكنتم تعلمون • الذين أمنوا ولم يَلبِسُوا إيمانهم بظلم[8] أولئك لهم الأمن وهم مهتدون • وتلك حُجّتُنا آتيناها ابراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم » •

(سورة الأنعام ٧٤ ـ ٨٣)

---

(١) مبالغة من الملك •
(٢) اظلم •
(٣) غاب •
(٤) طالعا •
(٥) خلقهما وابتدعهما على غير مثال •
(٦) مائلا عن الشرك الى التوحيد •
(٧) جادلوه وناظروه •
(٨) المقصود بالظلم هنا هو الشرك بالله • فعن عبد الله بن مسعود قال : لما نزلت هذه الآية قال أصحاب النبي ﷺ : « وأينا لم يظلم نفسه ؟ » فنزلت : « إن الشرك لظلم عظيم » • (لقمان ١٣) •

(أخرجه االبخاري ٤٦٢٩ وأحمد وابن أبي حاتم)

فقد أدرك ابراهيم بفطرته السليمة أن الاصنام التي يعبدها أبوه وقومه ليست آلهة تستحق أن تعبد ؛ فالاله لا يمكن أن يكون صنماً من حجر أو وثناً من خشب ، وعبادة الأصنام ضلال بين • ومن ثم راح يتأمل فيما حوله من الموجودات على سطح الأرض ، وينظر الى السماء وكواكبها ، ويتدبر تلك المشاهد حتى تنطق له بسرها المكنون ، وكأنه ينظر إليها لأول مرة • فلما أظلم عليه الليل رأى كوكباً مضيئاً لامعاً متميزاً عن غيره من المصابيح التي تزين السماء فقال : «هذا ربي» فهو بنوره وارتفاعه أقرب من الأصنام الى أن يكون رباً • ولكن لا ! إنه يكذب ظنه ويغيب • والإلـه كما تدل عليه فطرته يجب أن يبقى حاضراً ليدبر خلقه • وهو لا يحب الآفلين •

ثم اتجه نظره الى القمر فرآه يذهب وحشة الليل ويملأ النفوس بهجة وأنساً ، ويتفرد في السماء بنوره الساحر ، فقال « هذا ربي » • ولكنه أيضاً يغيب ، والرب — كما يعرفه ابراهيم بقلبه — لا يغيب !

وانقضى الليل وابراهيم يقظـان يفكر ، ويبحث عن الله ، ويلتمس منه الهداية والسداد • وبزغت الشمس ، فبددت الظلام ، وملأت الفضاء بضوئها ودفئها ؛ فقال : « هذا ربي » ؛ فهي أكبر — كما تراها العين — من كل الأجرام السماوية • ولكنها لم تبق مشرقة ، فقد غابت وتوارت بدورها عن الأنظار •

فالنجوم والكواكب بما فيها من شمس وقمر ليست آلهة تعبد ؛ فهي متحولة ، تطلع وتغرب ، وهذا يدل على حدوثها ، ولا بد من إلـه خالقها وأبدعها وسيرها •

« إن ربكم الله خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يُغشِي اللَّيل النهـار[1] يطلبه حثيثاً[2] والشمسَ

(١) يلحق الليل بالنهار والنهار بالليل •
(٢) سريعـاً •

والقمر والنجوم مسخرات بأمره ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين » • (سورة الأعراف ٥٤)

وهنا يجد ابراهيم إلهه في وعيه وادراكه كما هو في فطرته ، ويقع التطابق بين الاحساس الفطري المكنون والتصور العقلي الواضح • يجده خالقاً لكل ما تراه العين ويحسه الحس وتدركه العقول •

وعندئذ يشعر بوجود فاصل بينه وبين قومه في كل ما يعبدون من آلهة زائفة ، فيبرأ في حسم لا مواربة فيه من وجهتهم وشركهم ، ويتجه الى الله فاطر السموات والأرض ، الاتجاه الحنيف الذي لا ينحرف الى الشرك •

وسواء أكان ابراهيم في هذا المقام ناظراً وباحثاً عن الله سبحانه وتعالى ، أو كان مناظراً لقومه ، مبيناً لهم بطلان ما كانوا عليه من عبادة الهياكل والأصنام[1] ، فان العقيدة لا تتلقى عن الآباء بدون فهم وقناعة ، وان التفكير في هذا الوجود وما عليه من اتساق وانسجام وابداع دليل قاطع على وحدانية الله تعالى :

وفي كل شيء له آية   تدل على انه واحد

وان الايمان بالله ينطلق كالنور من المؤمن ليبدد الظلام من حوله ويهدي الضالين الى سواء السبيل • وكما يشع الضوء من الشموع والمصابيح فان العقيدة التي تملأ قلب المؤمن تنتشر منه الى قلوب الآخرين ؛ فيصبح داعياً الى الله ورسوله •

وبهذه الطريقة نهى إبراهيم قومه عن عبادة الأصنام والكواكب والشرك بالله • لكنه وجد قلوباً غلفاً وآذاناً صماً وعيوناً عمياً • وبلغ بهم العناد والاستكبار أن خوفوه من سخط آلهتهم وغضبها عليه • وكيف يخاف من جمادات لا تملك من أمرها شيئاً ، ولا تملك لنفسها ضراً ولا نفعاً ! وكيف يخاف من فوض أمره الى الله الذي هداه وهو مولاه • قال الله تعالى :

---

(١) هذا ما جنح اليه الزمخشري والنسفي ورجحه ابن كثير •

« إن الـــذين تدعون مـــن دون الله عبـــاد أمثالكـــم فادعوهـــم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين • ألهم أرجل يمشون بهـــا أم لهم أيد يبطِـشون بها أم لهم أعين يبصرون بها أم لهم أذان يسمعون بها قل ادعوا شركاءكم ثم كـِيدُونِ فلا تُنظِـرُون • إن وليّ الله الذي نــزل الكتاب وهـــو يتولى الصالحين • والـــذين تدعون من دونـــه لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون ، وان تدعوهم الى الهدى لا يسمعوا وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون » •

(سورة الأعراف ١٩٤ـ١٩٨)

وكيف يخاف هذه الآلهة الزائفة العاجزة ، ولا يخافون هم أنهم أشركوا بالله مالم يجعل له سلطاناً ولا قوة ولا حجة • وأي الفريقين أحـــق بالأمن ؟ الذي يؤمن بالله ويتوكل عليه ، أم الذي يشرك بالله ، لو كان لهـــم شيء من العلم والفهم ! فالذين أخلصوا العبادة لله وحده ، ولم يشركوا به شيئاً هـــم الآمنون المهتدون •

ولما واجههم ابراهيم بهذه الحجة التي ألهمه الله إياها سقطت حجتهم ، وعلت حجته • وارتفع ابراهيم على قومه عقيدة وحجة ومنزلة ••

وهكذا يرفع الله من يشاء درجات متصرفاً في هذا بحكمته وعلمه[1] •

---

(١) الكشاف للزمخشري ج٢ ص ٢٩ـ٢٣ ، تفسير النسفي ج٢ ص ٢١ ـ ٢٣ ، تفسير ابن كثير ج٢ ص ١٤٩ـ١٥٤ ، في ظلال القرآن ج٢ ص ١١٣٧ـ١١٤٢

٢ ـ بطلان عبـادة النجوم والأصنام

قلنا ان قوم إبراهيم كانوا يعبدون النجوم والأصنام • ولا نجد آيات تذكر عبادتهم للنجوم والكواكب سوى الآيات التي استعرضناها في الفصل السابق عن رؤية إبراهيم الكوكب ثم القمر والشمس وقوله عن كل منهـا : « هذا ربي » على احتمال أنه قال ذلك مناظرة لقومه ، لينتهوا عن عبادتهـا ويعبدوا الله الذي خلقها ، وآية أخرى سنتعرض لها فيما بعد وهي :

« فنظر نظرة في النجوم • فقال إني سقيم » •

(سورة الصافات ٨٨ ــ ٨٩)

وربما كانت عبادتهم للنجوم من قبيل تعظيمها والاعتقاد بأنها تنبىء عما يحدث على الأرض كما يزعم المنجمون، وكما يظن كثير من الناس في المجتمعات التي لا تدين بعقيدة دينية صحيحة ، من أن مطالع النجوم وجريها في أفلاكها يدل على أحوال الناس في حاضرهم ومستقبلهم •

وأراد إبراهيم ــ عليه السلام ــ أن يكف قومه عن هذا الزعم ، وأن يوقنوا بأن الله وحده يضر وينفع ويعطي ويمنع ، ولا علاقة للنجوم في سعادة الناس أو شقاوتهم وفي حياتهم أو موتهم •

وقد استمر ظن تأثير النجوم على أهل الأرض حتى بعثة النبي محمد ﷺ فلما مات ابنه إبراهيم كَسَفَتِ الشمس فقـال الناس : كَسَفَتِ الشمس لموت إبراهيم • فقال رسول الله ﷺ :

« إن الشمس والقمر لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته ، فإذا رأيتم ذلك فصلوا وادعوا الله »[١] •

---

(١) رواه البخاري /١٠٤٣/ ومسلم عن المغيرة بن شعبة •

لكن شعوباً كثيرة لم تهتدِ بهذا الدين بقيت تعيش في الوهم والخرافة حتى عصر العلم والاختراعات العجيبة ، فقلما تخلو صحيفة أو مجلة تصدر في أوروبا أو أمريكا وغيرها من زاوية « حظك اليوم » و « ما تقوله الأبراج » • وإذا نسيت إحدى الصحف أو المجلات زاوية الحظ فإن المكالمات الهاتفية تنهال عليها معلنة استياءها وغضبها وتشاؤمها من ذلك اليوم النحس الذي لا يدرون فيه هل يذهبون الى المنتزهات،وهل يسافرون أو يعقدون صفقات تجارية أم لا! وليس العوام وحدهم يراجعون المنجمين فكثير من رجال الأعمال والحكم يبني قراراته على أقوال المنجمين • وقد أصبح لهؤلاء مكاتب معروفة ، وأصبحت مراجعة الأفراد لهم كمراجعة الأطباء والمحامين على حد سواء[1] ، مما يدل على الخواء والقلق والحيرة لدى الإنسان حين لا تكون عقيدته صحيحة تبين لـه ما يأخذ وما يدع، ويدل على أن الإنسان يظل يتخبط في الظلام إذا لم يقتبس من هذا الدين عقيدته ونظرته إلى الوجود •

أما الأصنام ! فكانت ترمز إلى القمر والنجوم التي تعبد في السماء ، كما كانت ترمز إلى الملك وغيره من العظماء والصالحين ، فكان لكل معبود صنم يرمز إليه ، وكانت الأصنام كثيرة ، وبعضها أكبر من بعض ، ولكل منها مكانة خاصة لديهم ، وتتناسب مكانة الصنم مع أهمية ما يرمز إليه • وكانوا يقدمون القرابين لأصنامهم ويتقربون إليها بأنواع من الطقوس في مناسبات خاصة بكل منها • وقد ملأت هذه الأصنام قلوبهم حباً وتقديساً وتبركاً وتعظيماً بدليل ذكر عبادتهم لها في ستة مواضع من كتاب الله عدا الآيات التي سلفت في الفصل السابق • حتى ان إبراهيم ــ عليه السلام ــ مع ما أوتي من حجة وحكمة وعلم وحلم لم يستطع أن يجعل قومه يتركون عبادتها •

---

(١) أصبح للمنجمين اتحاد معترف فيه قانونياً في المانيا الغربية • وأصبحت مهنة منجم تسجل على البطاقة الشخصية وجواز السفر لمن يتعاطى التنجيم عندهم • وقد انفق الشعب الألماني على المنجمين ستين مليون مارك عام ١٩٨١م • (مجلة العربي عدد /٢٨٠/) •

وقد كان لهذه الآيات في قصة إبراهيم ، كما كان للآيات في قصة نوح ـ عليهما السلام ـ أثر كبير في تكوين العقيدة الصحيحة ، ولهذا فإنها نزلت في مرحلة بناء العقيدة في العهد المكي ، فكانت تلهم الرسول ﷺ وصحابته الصبر والثبات ، وتدلهم على الطريقة التي يقضون بها على الوثنية والشرك . وهي تدل على الجهد الشاق والعناء الكبير الذي بذله وتحمله خاتم الرسل ﷺ حتى طهر أرض العرب من رجس الأوثان .

ومع أن البشرية لم تعد إلى عبادة الأصنام في صورتها البدائية الساذجة ، فإنها تردت في مهاوي الشرك والضلال من جديد حين أعرضت عن هذا الدين، واتخذت لنفسها آلهة عديدة في صورة طاغية من البشر أو سقط من المتاع أو لذة عابرة أو شهوة هابطة :

« أرَأيْتَ من اتخذ إلهَهُ هَوَاهُ أفأنت تكونُ عليه وكيلا . أمْ تحْسبُ أنَّ أكثرهم يسمعون أو يعقلون إنْ هم إلا كالأنعام[1] بل هم أضل سبيلا » .

(سورة الفرقان ٤٣ ـ ٤٤)

فلنتعلم من هذه الآيات كيف نواجه الشرك والإلحاد ، ولنمضِ على درب الهداية والرشاد .

---

(١) الأنعام هي الحيوانات من الابل والبقر والماعز والغنم .

٣ ـ الأب الضـال

يبدو أن إبراهيم ـ عليه السلام ـ وجه اهتمامه أولاً لأبيه الذي رآه يصنع الأصنام أو يخدمها ويتعهدها :

« واذكر في الكتاب ابراهيم إنه كان صِدّيقا نبياً • إذ قـال لأبيه يا أبت لِمَ تعبدُ ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئاً • يا أبت إني قد جاءني من العلم ما لم يأتِك فاتبعني أهدِك صراطاً سويا • يا أبت لا تعبد الشيطان ان الشيطان كان للرحمن عَصيا • يا أبت إني أخاف أن يمسَك عـذاب من الرحمن فتكونَ للشيطان وليا • قال أراغب أنت عن آلهتي يا ابراهيم لئن لم تنته لأرجمنك[1] واهجرني مَليّا[2] • قال سلام عليك سأستغفر لك ربي إنه كان بي حَفيّا[3] • وأعتزلُكم وما تدعون من دون الله وأدعوا ربي عسى ألا أكونَ بدعاء ربي شقياً • فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له اسحق ويعقوب وكلا جعلنا نبياً • ووهبنا لهم من رحمتنـا وجعلنا لهم لسان صدق علياً » •

(سورة مريم ٤٠ ـ ٥٠)

وتبرز في هذه الحلقة شخصية إبراهيم الرحيم الحليم ، وتظهر وداعتـه وحلمه في ألفاظه وتعبيراته التي يحكي القرآن ترجمتها بالعربية ، وفي تصرفاته ومواجهته للجهالة من أبيه • كما تتجلى رحمة الله به وتعويضه عن أبيه وأهله المشركين ذرية صالحة تنسل أمة كبيرة فيها الأنبياء والصالحون •

---

(١) لأقتلنك أو لأطردنك رمياً بالحجارة •
(٢) زماناً طويلا •
(٣) لطيفـاً •

يصف الله إبراهيم بأنه كان صِدِّيقاً كثير الصدق والتصديق ، وقد آتاه الله النبوة ، فبدأ ينهى أباه عن عبادة ما لا يَسمع ولا يَرى ولا ينفع في شيء؛ والأصل في العبادة أن يتوجه بها الإنسان إلى من هو أعلى منه وأقوى وأعلم ؛ فكيف يجهل أبوه ذلك ويعبد الأصنام ! وإذا كان معذوراً لجهله ، فلا عذر له بعد أن أعلمه ابنه بهذه الحقيقة ، وما عليه إلا اتباع من يهديه • ولا غضاضة في أن يتبع الوالد ولده إذا كان الولد على اتصال بمصدر أعلى ، فإنما يتبع ذلك المصدر ، ويسير في الطريق الى الهدى • وإن لم يستجب لهذه الدعوة فإنه يطيع الشيطان الذي يزين الشرك بالله وعبادة الأوثان ، ويكون بذلك معرضاً لغضب الله وعذابه •

لكن هذه الدعوة اللطيفة من الابن البار الناصح إلى أبيه بأحب الألفاظ وأرقها : «يا أبتِ» لم تلقَ من الأب سوى الاصرار على عبادة الأصنام والتهديد بالضرب والقتل والطرد والهجر الطويل •

ولم يغضب إبراهيم ، ولم يغير قوله المهذب الحسن أمام هذه القسوة والفظاظة ، ولم يزد على أن قال : « سلامٌ عليك سأستغفر لك ربي •• » فلا جدال ولا أذى ولا رد للتهديد والوعيد ، بل قول رقيق ودعاء بالمغفرة والرحمة والهداية ، وهجر جميل إذا كان وجوده يضايق أباه •

وبعد أن اعتزل إبراهيم أباه وقومه وعبادتهم وآلهتهم ، وهجر أهله ودياره ، فإن الله لم يتركه وحيداً ، بل وهبه ذرية طيبة مباركة ، وهبه اسحق وهو من امرأته سارة ، ويعقوب وهو ابن اسحق ، وكان كل منهما نبياً كريماً، وأبقى الثناء الحسن عليهم •

ولكن قبل أن يفارق إبراهيم قومه كرر دعوتهم ، وحاول اقناعهم مراراً وبوسائل مختلفة • وحدث أمر رهيب تتبينه فيما يلي •

٤ ـ البراءة من الأصنام

لا يمكن ان يحصل تعايش بين الايمان والكفر ، كما لا يوجد ولاء بين المؤمنين والكافرين ، فبين الجانبين فاصل لا لبس فيه ولا غموض والمؤمن يعلن بوضوح واستعلاء تبرؤه من الكفر وأهله حين اعراضهم عن دعوته كما فعل ابراهيم قبله :

« وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إنني بَراء" مما تعبدون • الا الذي فطرني فانه سيهدين • وجعلها[1] كلمة باقية في عَقِبِه لعلهم يرجِعُون » •

(سورة الزخرف ٢٦ ـ ٢٨)

فالمرحلة الثانية بعد الدعوة الى الدين ، وبعد بذل الجهد في محاولة الهداية هي المنابذة والمفاصلة بين المؤمنين وان لم يكن في صفهم غير واحد وبين الكافرين مهما كان عددهم وقوتهم ، فلكل وجهته ، ولا مهادنة بين الجبهتين :

« قل يا أيها الكافرون • لا أعبُدُ ما تعبُدُون • ولا أنتم عابدون ما أعبد • ولا أنا عابد ما عبدتم • ولا أنتم عابدون ما أعبد • لكم دينكم ولي دين » •

(سورة الكافرون)

ولا تعني هذه المفاصلة التقوقع على النفس والانزواء في جانب ضيق ، فقد يبقى المؤمن يعيش وسط غيره ، ولكنه يترفع عنهم في أخلاقه وتصوراته وعادته وعقيدته ونظرته الى الوجود ، ويشعر بالعزة من دونهم لأنه معتصم بحبل الله :

---

(١) اي كلمة التوحيد والتبرؤ من الشرك •

« ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين » •

(سورة المنافقون : ٨)

ولا خوف على المؤمن في ذلك ، فالله الذي خلقه يحميه ويهديه ، ويجعل كلمته باقية كما بقيت كلمة ابراهيم ــ عليه السلام ــ في عقبه والأجيال من بعـــده •

ولقد عرفت البشرية كلمة التوحيد قبل ابراهيم على لسان نوح وهود وصالح •• لكن هذه الكلمة لم تستقر في الأرض إلا من بعده ؛ اذ ظلت متصلة في أعقابه ، وقـــام عليها من بعده رسل متصلون لا ينقطعون حتى كان خاتمهم محمد ﷺ ، وهو ابنه من نسل اسماعيل •

وفي العالم اليوم أكثر من ألف مليون إنسان يدينون بالأديان التي جاء بها موسى وعيسى ومحمد صلوات الله عليهم وسلامه ، وهم الأنبياء الثلاثة الكبار الذين ينتمون جميعاً الى ابراهيم عليه السلام • وأتباع الأديان الثلاثة يكنون له المحبة والتقدير •

٥ ــ الله هــو المعبــود

ثم نسمع نبأ ابراهيم ــ عليه السلام ــ وهو يدعو أباه وقومه الى الايمان بالله واليوم الآخر ، ويفند عبادتهم للأصنام ، ويعلن عداوته لها ، ويذكر فضل الله على خلقه :

« واتلُ عليهم نبأ إبراهيم • إذ قال لأبيه وقومه ما تعبُدون • قالوا نعبد أصناماً فنظل لها عاكفين[١] • قــال هــل يسمعونكم إذ تدعون • أو ينفعونكم أو يَضُرّون • قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون • قال أفرَأيتم ما كنتم تعبدون • أنتم وآباؤكم الأقدمون • فانهم عدو لي إلا ربَّ العالمين • الذي خلقني فهو يهدين • والذي هو يطعمني ويَسقين • وإذا مَرِضتُ فهو يَشفين • والذي يميتني ثم يُحيين والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يومَ الدين » •

(سورة الشعراء ٦٩ ــ ٨٢)

إن ابراهيم ــ عليه السلام ــ لم يكن يجهل ما يعبد أبوه وقومه ، ولكنه سألهم سؤال مقرر لينكر عليهم عبادتهم ، ويريهم ان ما يعبدونه ليس مستحقاً للعبادة • وهم لم ينكروا انها أصنام منحوتة من الحجر ، ومع ذلك يعكفون لها ، ويدأبون على عبادتها • وحاول ابراهيم ان يوقظ قلوبهم وينبه عقولهم إلى هذه الحماقة التي يفعلونها دون وعي وتفكير • فأقل ما ينبغي لإله يعبد أن يكون له سمع كعابده ! وهذه الأصنام لا تسمع من يعبدها ويدعوها ، فهل تستطيع أن تضر أو تنفع في شيء ؟ •

إنهم يسلمون بعجز الأصنام في هذه المرة ؛ فقد خوفوه بها سابقاً[٢] فلم

---

(١) مقيمين على عبادتها ودعائها •

(٢) انظر فصل طريق الايمان بالله •

تضره ولم تنفعهم في شيء ! ولكنهم يجيبون بأنهم يتبعون آباءهم في دينهم وعبادتهم ، تماماً كما فعل قوم نوح قبلهم حين احتجوا بأنهم لم يسمعوا بالرسل في آبائهم[1] ، وكما فعل مشركو مكة من بعدهم . وأمام هذا الجمود الفكري والتحجر العقلي لم يجد إبراهيم — على حلمه وأناته — إلا أن يهزهم بعنف، ويعلن عداوته للأصنام وللعقيدة الفاسدة التي تسمح بعبادتها . واستثنى إبراهيم « ربّ العالمين » من عدائه لما يعبدون هم وآباؤهم ، فقد يكون من أسلافهم من عبد الله ، وقد يكونون معترفين بوجود الله — عز وجل — لكنهم يشركون به .

ثم يمضي إبراهيم — عليه السلام — في بيان صفات الله الذي يستحق أن يكون معبوداً من كل الناس ، فهو خلقهم ويهدي من يؤمن به ويعبده :

« والذين اهتدوا زادهم هُدى وآتاهم تقواهم » .
(سورة محمد ١٧)

يهديه إلى طريقه الذي يسلكه ، وإلى منهجه الذي يسير عليه . وهو يطعم عباده ويسقيهم ، وهو يشفي المريض ، ويحيي ويميت ، ومهما استكبر الإنسان وطغى فإنه يشعر بالضعف حين المرض ، ويطلب من الله الشفاء :

« وإذا مس الانسانَ الضُر دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً فلما كشفنا عنه ضُرَّهُ مَرَّ كأنْ لم يدعنا إلى ضُرٍّ مسه كذلك زُين للمسرفين ما كانوا يعملون » . (سورة يونس : ١٢)

ويقف عاجزاً أمام الموت ، ولا يمكنه أن يفعل شيئاً لدفعه :

« فلولا إذا بلَغتِ الحُلْقُومَ . وأنتم حينئذ تنظرون . ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تُبصرون . فلولا إن كنتم غير مدينين . تَرْجِعُونَها إن كنتم صادقين » . (سورة الواقعة ٨٣ — ٨٧)

---

(١) انظر فصل اتباع الآباء في قصة نوح .

وإن الإيمان بإلـه غفور رحيم :

« غافرِ الذنب وقابلِ التوبِ » .

(سورة غافر ٣)

والإيمان باليوم الآخر يجعل المرء يعيش مطمئناً راضياً ، لا يخشى انقضاء العمر ودنو الأجل ما دام سيبعث يوم القيامة وينال جزاء عمله .

وهكذا يجمع إبراهيم في صفة ربه عناصر العقيدة الصحيحة : توحيد رب العالمين ، والإقرار بتصريفه للبشر في أدق شؤون حياتهم على الأرض . والبعث والحساب بعد الموت ، وفضل الله وتقصير العبد ؛ حتى انه يشعر بيد الله في كل حركة ويستسلم لمشيئة ربه في طمأنينة وثقة ، ويتأدب بأدب النبوة الرفيع ، فلا ينسب مرضه إلى ربه ، وهو يعلم انه بمشيئته يمرض ويصح ، ويخشى أن تكون له خطيئة ، ويطمع في مغفرة الله ورحمته .

٦ ـ عـزة الايمـان

تعرض هذه الحلقة دعوة إبراهيم قومه إلى عبادة الله وتقواه وشكره على رزقه ، وإلى نبـذ الأوثان الضعيفة العاجزة ، وتأمر بالنظر في أنحـاء الأرض ومشاهدة دلائل قدرة الله والاعتبار بآثار المكذبين الأولين ، كمـا تدعو إلى الإيمان باليوم الآخر . وهكذا انتقل إبراهيم من إعلان براءتـه من الأصنام وعداوته لها في الحلقتين السابقتين إلى زجر قومه وتخويفهم بأن يلقوا مصير من كذب قبلهم .

أما قومه فلم يقتنعوا ولم يعتبروا ، بل حاولوا أن يحرقوه . وبعد أن أنجاه الله رحل عنهم مهاجراً إلى ربه :

« وإبراهيم إذ قال لقومه اعبدوا الله واتقوه ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون . إنما تعبدون من دون الله أوثاناً وتَخْلُقُون إفكا[1] إن الذين تعبُدُون من دون الله لا يملِكون لكم رزقاً فابتغوا[2] عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له إليه تُرْجَعون . وإن تكذبوا فقد كذب أمم من قبلكم وما على الرسول إلا البلاغُ المبين . ألـم يروا كيف يُبْدِئُ اللهُ الخلق ثم يعيده إن ذلك على الله يسير . قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بَدَأَ الخلقَ ثم الله ينشئ النشأة الآخرة إن الله على كل شيء قدير . يعذب من يشاء ويرحم من يشاء وإليه تُقْلبون . وما أنتم بمعجزين في الأرض ولا في السماء وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير . والذين كفروا بآيات الله ولقائه أولئك

---

(١) الافك : الكذب . واختلاقهم الافك : تسميتهم الأوثان آلهة .

(٢) اطلبوا .

يئسوا من رحمتي وأولئك لهم عذاب أليم • فما كان جوابَ قومه إلا أن قالوا اقتلوه أو حرّقوه فأنجاه الله من النار إنّ في ذلك لآيات لقوم يؤمنون • وقال إنما اتخذتم من دون الله أوثاناً مودة بينكم في الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضا ومأواكم النار وما لكم من ناصرين • فآمَنَ له لوط وقال إني مهاجر إلى ربي إنه هو العزيز الحكيم • ووهبنا له اسحق ويعقوب وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب وآتيناه أجْرَهُ في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين » •

(سورة العنكبوت : ١٦ ـ ٢٧)

فعبادة الله وتقواه فيها الخير كله ، والله هو المستحق للعبادة والشكر ؛ فهو يعطي الرزق ، وهو الخالق القادر ، وهو الذي يعذب المكذبين ويهلك الكافرين • وإليه الرجوع يوم القيامة ليلقى كل واحد جزاءه • أما الأصنام ! فهي مخلوقة ضعيفة ، نحتها أصحابها وسموها آلهة ! وهي لا تنفع من يعبدها، ولا تملك له رزقاً • ولا يوجد أي دليل على عبادتها • بينما يشهد هذا الكون لخالقه بالقدرة والحكمة • ولهذا دعت الآيات إلى أن يتأملوا وينظروا كيف بدأ الله الخلق،وانهم ليشاهدون مثل ذلك في النبتة النامية وفي البيضة والجنين• والذي بدأ الخلق قادر على إعادته :

« وهو الذي يبدؤا الخلقَ ثم يعيدُه وهو أهون عليه وله المثل الأعلى في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم » •

(سورة الروم : ٢٧)

وإليه الرجوع يوم القيامة ، ولا يعجزه أحد من أهل السموات والأرض، والذين جحدوا هذه الآيات ، وكفروا بالمعاد لا نصيب لهم في رحمة الله وجنته، ولهم عذاب أليم •

ولم يجد قوم إبراهيم جواباً لهذه الدعوة المؤيدة بالدليل الساطع والبرهان القاطع غير القضاء على الداعية بالقتل أو التحريق • فأنجاه الله من النار ، وجعل نجاته وعجزهم عن إيذائه آيات لمن يتدبر ويؤمن •

ولم يكن تجمعهم على عبادة الأوثان اعتقاداً واقتناعاً بأحقية هذه العبادة ، وإنما كان يجامل بعضهم بعضاً ، ويوافق بعضهم بعضاً ؛ وستنقلب هذه المودة عداوة يوم القيامة لأنها كانت على حساب الحق والعقيدة :

« الأخلاء[1] يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين » •

(سورة الزخرف : ٦٧)

ولم يؤمن مع إبراهيم سوى لوط ابن أخيه[2] • ومع ذلك فقد بقي ثابتاً على دعوته ، لم يرهبه التهديد ، ولم يضعف أمام التعذيب ، ولم يثنه القاؤه في النار عن دينه ، بل بقي يدعوهم وينصحهم ، ويوبخهم ويحذرهم حتى آخر لحظة معهم •

وسنرى ما فعله إبراهيم بأصنامهم قبل أن يلقوه في النار في الحلقتين القادمتين، ونترك الكلام عن بشارته باسحق ويعقوب إلى حينه إن شاء الله تعالى •

---

(١) الأصحاب المتوادون •

(٢) كان لابراهيم أخوان هما : هاران وناحور ، وولد لهاران لوط • (البداية لابن كثير ج١ ص ١٤٠) •

٧ ـ تحطيم الأصنام

لم يبق أمام إبراهيم إلا وسيلة واحدة حاول بها أن يجعل قومه يتركون عبادة الأصنام ، وهي تحطيمها والقضاء عليها . وهذه الحلقة تصور لنا إبراهيم وهو يثني قومه عن عبادة الأصنام ، ويدعوهم الى عبادة الله ، ثم تصوره وهو يحمل الفأس ، فيكسر به أصنامهم . وبعد ذلك تعرض محاكمته السريعة ، وتنفيذ الحكم والنجاة :

« ولقد آتينا إبراهيم رُشده من قبل[١] وكنا به عالمين . إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون . قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين . قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين . قالوا أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين . قال بَلْ ربكم رب السموات والأرض الذي فطرهن وأنا على ذلكم من الشاهدين . وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تُوَلّوا مدبرين . فجعلهم جُذَاذاً[٢] إلا كبيراً لهم لعلهم إليه يرجعون . قالوا من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين . قالوا سمعنا فتى يَذْكُرُهُمْ يقال له إبراهيم . قالوا فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون[٣] . قالوا ءَانت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم . قال بل فعله كبيرهم هذا فَسْئَلُوهمْ إن كانوا ينطقون . فَرَجَعُوا إلى أنفسهم فقالوا انكم أنتم الظالمون . ثم نُكِسُوا على رُؤوسهم لقد علمت ما هؤلاء ينطقون . قال افتعبدون من دون الله

(١) من قبل بلوغه ، أو من قبل موسى وهارون المذكورين سابقاً : (الأنبياء : ٤٨) .

(٢) قطعاً ، من الجذ وهو القطع .

(٣) يشهدون عليه بفعله ، ويشهدون عقابه .

ما لا ينفعكم شيئاً ولا يضركم • أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون • قالوا حرّقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين • قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم • وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخسرين • ونجيناه ولوطاً إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين • ووهبنا له اسحق ويعقوب نافلة وكلا جعلنا صالحين • وجعلناهم أئمة يهتدون بأمرنا وأوحينا إليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين » •

(سورة الأنبياء : ٥١ ـ ٧٣)

وفي هذه الحلقة نرى إبراهيم فتى شاباً[1] قوياً، آتاه الله الرشاد والهدى، وألهمه الحجة والحكمة ، وقد أنذر قومه بأنه سيفعل بتلك الأصنام أمراً كبيراً، بعد أن نهاهم عن عبادتها ، وبين لهم أن ربهم هو خالق السموات والأرض ، واحتجوا بأنهم على دين آبائهم • والآيات تصور لنا كل هذا باختصار شديد لأنه سبق عرضه من قبل •

ثم أقسم إبراهيم على كيد أصنامهم حين يتولون عنها • ولم يكن في هذا كما لم يكن في دعوته لاعباً هازلا ! فهاهو قد فرغ من تحطيم الأصنام ، وأبقى على كبيرها ، وعلق الفأس في رأسه لعلهم يرجعون إليه فيسألونه كيف حدث الأمر ، أو لعلهم يفكرون بأن الصنم الكبير يغار من الأصنام الصغيرة حوله ، ولا يرضى بوجودها إلى جانبه ؛ فيعلموا أن الله واحد لا شريك له •

وعاد قومه مذعورين ، وقد كبر عليهم أن تصرع آلهتهم ، وتصبح قطعاً متفرقة ، فهالهم الأمر ، وسألوا من فعل هذا بالآلهة ؟ إنه معتد ظالم !

عندئذ تذكر من سمع إبراهيم ينكر عبادتها ويتوعدها بالكيد بعد انصرافهم عنها • فوجهوا التهمة إليه، وأحضروه أمام الأشهاد، وبدأت المحاكمة•

« قالوا : أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم ؟ » •

---

(١) قال الشعبي : ألقي ابراهيم في النار وهو ابن ست عشرة سنة • (قصص الأنبياء للثعلبي ص : ٦٨)

فهم ما زالوا يصرون على أنها آلهة ، وهي جذاذ مهشمة .

أما إبراهيم فقد رد عليهم بتهكم وسخرية : « بل فعله كبيرهم هـذا[١] فاسألوهم إن كانوا ينطقون » . ويبدو أن هذا الرد قد هزهم وردهم الى شيء من التدبر ، فشعروا ما في موقفهم من سخف ، وما في عبادتهم لهذه التماثيل من ظلم ، وما في هذه المحاكمة التي تعوزها البينات من جناية !

ثم عادوا إلى المجادلة بالباطل والمكابرة وقالوا : « لقـد علمت ما هؤلاء ينطقون » ! وهل هذه حجة لهم أم حجة عليهم ! فقد اعترفوا بعجز آلهتهم عن النطق ، كما سلموا من قبل بأنها لا تسمع ولا تبصر ولا تغني عنهم شيئاً . وكان ينبغي عليهم أن يعلنوا براءة إبراهيم ، وأن يتبعوه في عبادة الله ، ويتركوا عبادة الأصنام ، لكنهم لم يفعلوا شيئاً من ذلك كله .

ومن ثم جابههم بعنف وضيق :

« أف لكم ولما تعبدون من دون الله ، أفلا تعقلون ! » .

ولما دحضت حجتهم ، وبان عجزهم ، وظهر الحق ، وانقمع الباطل عدلوا إلى القوة الغاشمة والعذاب الغليظ ، فأصدروا الحكم عليه بالاعدام حرقاً بالنار

---

(١) يقول الامام الرازي : « ليس هذا القول بكذب ؛ لأنه لم يكن قصد ابراهيم ان ينسب الفعل الى الصنم ، وانما قصـد تقريره لنفسه على أسلوب تعريضي ، يبلغ فيه غرضه من الزامهم الحجة وتبكيتهم . أو أنه اسند الفعل الى كبيرهم لأن غيظه منه كان اشد ؛ فهو السبب في استهانته بها . أو انه عنى بكبيرهم نفسه ، فالانسان أكبر شأناً من كل صنم . والقول بأنه كذب مرغوب عنه » .
(التفسير الكبير للامام محمد الرازي ج٦ ص ١٦٤)
ونحن معه في عدم اطلاق الكذب على قول ابراهيم ؛ فهو يقصد تقريعهم وثنيهم عن عبادة الأصنام ، وان كنا لا نخاله أسند الفعل الى كبيرهم لشدة غيظه منه ؛ يبلغ فيه غرضه من الزامهم الحجة وتبكيتهم . أو أنه أسند الفعل الى كبيرهـم لأن هذا يجعله يبدأ بتكسيره لا بتكسير غيره وتركه . ولا أنه عنى نفسه بقوله: فالانسان لا يضاف الى الأصنام ، ولا يعتبر مساوياً أو كبيراً لها .

انتصاراً لآلهتهم[1] وبسرعة جمعوا الحطب الكثير ، وأضرموا النيران ، وألقوه فيها .

ومع ذلك فإنه لم يضعف ولم يخف ، ولم يحن ظهره أمامهم ، بل فوض أمره الى الله قائلاً : « حسبي الله ونعم الوكيل »[2] . وعندئذ أدركته العناية الإلهية :

« قلنا يانار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم » .

فلم تضره النار ، ولم تحرق سوى وثاقه . وخرج سالماً معافى !

أما كيف لم تحرقه النار ، وكيف أصبحت برداً وسلاماً عليه ، والمشهود المعروف أن النار تحرق الأجسام الحية ؟ فهذا لا يَرِد أمام القدرة الإلهية ، فالله هو الذي جعل النار تحرق في الأحوال العادية ، وهو الذي جعلها لاتحرق في تلك الحالة ، وهو على كل شيء قدير :

« إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون » .

(سورة يس ٨٢)

وبذلك نجى الله إبراهيم من الكيد الذي أريد به ، وباء الكافرون بالخسارة والخذلان . ثم كانت الهجرة مع لوط الذي آمن به وصدقه . وعوضه الله عن قومه بذرية صالحة ، فوهبه ابنه اسحق وحفيده يعقوب، وجعل من نسله أئمة يهدون الناس بأمر الله ، ويفعلون الخيرات ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ، ويطيعون الله .

---

(١) كان الاحراق عقوبة مقررة في شريعة بابل . ولم يرد خبر قط عن نبي توعده قومه باحراقه غير ابراهيم . (ابراهيم أبو الأنبياء ـ العقاد ص : ٢٩٥) .

(٢) أخرجه البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما /٤٥٦٤/ .

٨ ـ هزيمة الكافرين

تذكر الحلقة الأخيرة من هذا الفصل إنكار إبراهيم على أبيه وقومه عبادتهم ، وضربه لآلهتهم ، وإذلالهم بعد أن أرادوا تحريقه :

« وإنَّ من شيعته[١] لابراهيم • إذ جاء ربه بقلب سليم • إذ قال لأبيه وقومه ماذا تعبدون • أئفكاً آلهة دون الله تريدون • فما ظنكم برب العالمين • فنظر نظرة في النجوم • فقال إني سقيم[٢] فَتَولَّوا عنه مدبرين • فراغ الى آلهتهم[٣] فقال ألا تأكلون مالكم لا تنطقون • فراغ عليهم[٤] ضرباً باليمين • فأقبلوا إليه يَزِفّون[٥] • قال أتعبدون ما تَنْحِتُون • والله خلقكم وما تعملون • قالوا ابنوا له بنياناً فألقوه في الجحيم • فأرادوا به كيداً فجعلناهم الأسفلين • وقال إني ذاهب الى ربي سيهدينِ » •

(سورة الصافات ٨٣ ـ ٩٩)

فالأنبياء والمؤمنون من شيعة وملة واحدة ، وإن نأت ديارهم وتباعدت أزمانهم ، فمع أنه كان بين نوح وإبراهيم قرون كثيرة ، فإن ذلك لم يحل بينهما[٦] ، فهما يشتركان في العقيدة والدعوة والمنهج الإلهي ، ويلتقيان في

---

(١) اي ممن شايع نوحاً على أصول الدين فكان على منهاجه وسنته • وقد ذكر نوح قبل ذلك في الآيات ٧٥ ـ ٨٢ •
(٢) ضعيف •
(٣) مال إليهم سرا •
(٤) اقبل عليهم •
(٥) يسرعون •
(٦) أي لم يكن الفاصل الزمني حائلا ومفرقاً بينهما •

طريق واحد . وها هو إبراهيم يتبع نوحاً عليهما السلام ، ويجيىء ربه بقلب منيب صاف خال من الشرك ، فينكر على أبيه وقومه عبادتهم . فإن ما يعبدونه ليس من شأنه أن يعبد ، ولا أن يكون له عابدون ، إنما هـو الافك المحض والافتراء الذي لا شبهة فيه . فكيف فعلوا ذلك ! وما ظنهم برب العالمين حتى كفروا به وجعلوا الأصنام له أنداداً ، وما هو فاعل بهم وقد عبدوا غيره !

وكان للقوم عيد يخرجون فيه الى الحدائق والمتنزهات بعد أن يضعوا الطعام بين يدي آلهتهم لتباركه ، ثم يعودون بعد الفسحة والمرح الى طعامهم المبارك . فانتهزها إبراهيم ــ عليه السلام ــ فرصة ليكيد أصنامهم ، عسى أن يصرفهم بذلك عن عبادتها . فما كان منه إلا أن نظر الى السماء متفكراً ، ليريهم أنـه ينظر في النجوم ، ويوهمهم أنه يستدل بها على ما يصيبه من سقم ، لاعتقادهم علم النجوم ، وربما كان سقمه يعني ضيقه وتعبه مما كابده معهم ، أو لعله كان به سقم قليل . فظن قومه أنه مصاب بالطاعون ، فتركوه مخافة العدوى ، ولم يتلبثوا ليفحصوا عن أمره ، بل أسرعوا الى مهرجانهم واحتفالهم .

وأسرع إبراهيم الى آلهتم المزعومة ، وكانت في بهو عظيم ، ومقابل باب البهو صنم كبير ، إلى جنبه أصغر منه ، بعضها الى جنب بعض . فلما نظر إليها بدأ يخاطبها بما يشفي نفسه من السقم والهم والضيق : « ألا تأكلون . ما لكم لا تنطقون » ! ثم انهال عليها ضرباً .

وعاد القوم ، واطلعوا على جذاذ الآلهة ، واستدلوا على الفاعل، وأحاطوا به على عجل ، وتجمعوا حوله ، إذ به يؤنبهم ويسفه أحلامهم .

« أتعبدون ما تنحتون . والله خلقكم وما تعملون » .

فالمعبود الحق ينبغي أن يكون هو الصانع لا المصنوع . ومع وضوح هذا المنطق وبساطته فان القوم لم يستمعوا له ؛ ومتى استمع الباطل الى صوت الحق ! فأمر طغاتهم ببناء بنيان مرتفع تضرم فيه النار ، ويلقى فيها إبراهيم ،

أرادوا بذلك هلاكه ، ولكن الله أبطل مكرهم ورد كيدهم عليهم ، فقهرهم وجعلهم الأسفلين الأخسرين . ويقال بأن الله أهلكهم بالبعوض[1] .

وتنتهي المرحلة الأولى من حياة إبراهيم ــ عليه السلام ــ بهجرته من وطنه ، بعد أن أعيته الحيلة في هداية قومه . فهم لم يقبلوا منه نصيحة ، ولم يتخلوا عن عبادة الأصنام التي علموا أنها لا تسمع ولا تبصر ولا تنطق ، ولا تدفع عن نفسها شراً ، لا لشيء إلا أنهم وجدوا آباءهم يعبدونها .

وكان حري بهم أن يتخلوا عن تلك الأصنام التي لم تصمد أمام ضربات الفأس ، أو أن ينظروا في أمر إبراهيم بعد نجاته من النار ، فيعلموا أنه صادق مخلص ، وإن يد الله ترعاه وتحميه ، لو كانوا يعقلون !

وكانت هذه الحلقات تعرض على سول الله ﷺ وعلى صحابته في مستهل الدعوة ، فيتعلمون منها الثبات والصبر ، ويرسمون على ضوئها الطريق للقضاء على الشرك والكفر ، وقد أصبح واضحاً أن تطهير الأرض من الأصنام لا يفيد قبل أن تطهر منها القلوب ، ولهذا مضى رسول الله ﷺ في دعوته حتى قبلها من أراد الله بهم خيراً ، واستأصل لوثة الشرك من نفوسهم ، وبعد ذلك حطم الأصنام ، فلم يبق لها أثر ، ولم تقم لها قائمة .

وقبل أن يفارق إبراهيم قومه لا بد من وقفة نهائية مع أبيه ومع الملك .

---

(١) تفسير النسفي جـ ٣ ص ٨٦ .

٩ ـ استغفار إبراهيم لأبيه

لقد بذل إبراهيم ـ عليه السلام ـ أعظم الجهود في سبيل اسلام أبيه ؛ يدل على ذلك أنه وجه دعوته لأبيه مع قومه في خمس من الحلقات السابقة ، وخصه بالدعوة على انفراد في حلقة أخرى . ولم يكن أبوه أقل عناداً وإصراراً على عبادة الأصنام من قومه ان لم يفقهم . وكأن الآباء ينظرون الى الأبناء دوماً على أنهم صغار يجب أن يكونوا أتباعاً ، وانهم لا يصح أن يصبحوا متبوعين مهما علا شأنهم .

وكلما أمعن الأب في الكفر والضلال كان إبراهم يزداد حرصاً على هدايته، ويكثر من الدعاء والاستغفار له . وقد مر معنا استغفاره لأبيه في قوله :

« سلام عليك سأستغفر لك ربي إنه كان بي حفيًّا » .

(سورة مريم ٤٧)

ولم يكن ينساه من الاستغفار كلما توجه الى الله بالدعاء :

« واغفر لأبي إنــه كان من الضالين » .

(سورة الشعراء ٨٦)

ولكن ذلك كان وهو يطمع في إيمانه . فلما انقطع رجاؤه ، وتحقق أن أباه عدو لله تبرأ منه وقطع استغفاره :

« وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه(١)
فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه إنّ إبراهيم لأوّاه حليم(٢) » .

(سورة التوبة ١١٤)

---

(١) أي وعد أبوه إياه أن يسلم ، أو هو وعد أباه أن يستغفر له كما سبق في : « سأستغفر لك ربي » . ويؤيد ذلك قراءة الحسن : « وعدها أباه » .

(٢) الأواه : كثير التأوه لرقته وخشيته وفرط ترحمه . والحليم : الصبور على البلاء ، الصفوح عن الأذى .

ولذلك فمن واجب المؤمنين أن يتبرؤوا من ذويهم الكافرين ، ولا يجوز لهم أن يخصوهم بدعاء أو استغفار .

« قد كانت لكم أسوةٌ[1] حسنة في إبراهيم والذين معه[2] إذ قالوا لقومهم إنا بُرآؤُا منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم[3] وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده إلا قولَ ابراهيم لأبيه لأستغفرنَّ لك وما أملِكُ لك من الله من شيء ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا[4] وإليك المصير » .

(سورة الممتحنة ٤)

وقد كان بعض المؤمنين يدعون لآبائهم الذين ماتوا على الشرك ، ويستغفرون لهم ، ويقولون : إن إبراهيم كان يستغفر لأبيه . فأمرهم الله بمصارمة الكافرين[5] وعداوتهم ومجانبتهم والتبرىء منهم ماداموا على كفرهم ، وبيّن لهم أن إبراهيم قدوة حسنة في تبرئه من قومه وآلهتهم لا في استغفاره لأبيه[6] ، فقد انقطع ذلك الاستغفار وحل مكانه تبرؤه من أبيه بعد أن تحققت عداوته لله .

ونهى الله المؤمنين عن الاستغفار للمشركين مهما كانت قرابتهم وعلاقتهم بهم:

---

(١) قدوة في التبرىء من الأهل .

(٢) يعني أصحاب ابراهيم من المؤمنين ؛ فقد آمن به لوط وزوجه سارة . وقال ابن زيد : « هم الأنبياء » (الجامع لأحكام القرآن ـ القرطبي ، جـ١٨ص٥٦) .

(٣) أي بدينكم وطريقكم ، وما آمنتم به من الأوثان وبأفعالكم ، وانكرنا ان تكونوا على حق .

(٤) أقبلنا . (٥) أي بمقاطعتهم .

(٦) تفسير ابن كثير جـ٤ ص ٣٤٨ ، تفسير النسفي جـ ٤ ص ٢٣٧ .

«ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم» .

(سورية التوبة ١١٣)

وقد أصبحت الصورة واضحة أمام المؤمنين ، واكتملت جوانبها . فنوح ـ عليه السلام ـ قطع علاقته بابنه وبامرأته لأنهما لم يقبلا دينه ، ولم يخصهما بشيء من دعائه بالمغفرة الذي شمل والديه ومن دخل بيته مؤمناً والمؤمنين والمؤمنات جميعاً . وإبراهيم ـ عليه السلام ـ تبرأ من أبيه وقومه ، وامرأة فرعون تبرأت من زوجها وسألت الله الخلاص منه :

« وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأت فرعون إذ قالت رب ابن لي عندك بيتاً في الجنة ونجني من فرعون وعمله ونجني من القوم الظالمين » .

(سورة التحريم ١١)

١٠ ـ الملك الظالم :

لم تظهر شخصية نمرود ملك بابل في الحلقات السابقة ، لأنه كان يعيش بعيداً في قصره ، أو لأنه لم يكن يشارك قومه في تمسحهم بالأصنام والتبرك بها علواً واستكباراً ، إذ كان يدعي الألوهية ، وكان أهل بابل يعبدون الملوك بجانب عبادة الكواكب والأصنام ، ويزعمون أنهم هبطوا من السماء بعد الطوفان(١) • ولم يكن ما يدور بين إبراهيم وقومه من أحداث خافياً على الملك ، ولعله كان من الآمرين بتحريقه ، أو أن هذه العقوبة نالت موافقته قبل تنفيذها على أقل تقدير •

أما بعد أن نجا إبراهيم من النار ، فلا بد من تعرف الملك عليه عن كثب والتحقيق معه لمعرفة شأنه ، أو إن إبراهيم ـ عليه السلام ـ أراد أن يقيم عليه الحجة كما أقامها على قومه قبل أن يشد رحله ، ويهاجر من بينهم(٢) •

والموضوع الأساسي الذي طرح في ذلك اللقاء هو الألوهية كما صورته الآية التالية :

« أَلَمْ تَرَ إلى الذي حاجَّ ابراهيم في ربه أن آتاهُ اللهُ المُلْكَ إذ قال ابراهيم ربي الذي يحيي ويميت • قال : أنا أُحيي وأميت • قال ابراهيم فانَّ الله يأتي بالشمس من المشرق فأتِ بها من المغرب • فَبُهِتَ(٣) الذي كفر ، والله لا يهدي القوم الظالمين » •

(سورة البقرة ٢٥٨)

---

(١) ابراهيم أبو الأنبياء ـ للعقاد ص ٢٧٩ ، ٢٨١ •

(٢) قيل ان هذه المحاجة جرت بعد تحطيم الأصنام وقبل الحكم على ابراهيم •
(الكشاف للزمخشري جـ١ ص ٣٨٨ ، تاريخ الطبري ، الكامل لابن الأثير)•
وقد أوردها الثعلبي قبل تحطيم الأصنام ، (قصص الأنبياء ص ٦٦) •
غير أنا آثرنا أن نجعلها فصلا مستقلا لأنها وردت في القرآن هكذا • والآيات التي ذكرت محاكمة ابراهيم في سورة الأنبياء والصافات مكية ، أما الآية التي ذكرت المحاجة مع الملك فمدنية • وهذا يعضد ما آثرناه • والله أعلم •

(٣) تحير ودهش •

والآية تعرض الحوار في أسلوب التعجب من هذا المجادل الذي كان من واجبه أن يؤمن ويشكر نعمة ربه عليه ، ولكن المُلك أبطره وأورثه الكِبْر .

ويبدأ الحوار باخبار إبراهيم عن ربه بأنه الذي يحيي ويميت ، والإحياء والإماتة هما الظاهرتان المكرورتان في كل لحظة المعروضتان لحس الإنسان وعقله . وهما ــ في الوقت نفسه ــ السر الذي يحير ، ويدل على وجود الله .

ولكن الملك ادّعى هذه القدرة لنفسه ، أو رد بأنه يؤتى برجلين قد استحقا القتل ، فيأمر بقتل أحدهما فيموت ، ويأمر بالعفو عن الآخر ، فتمنح له الحياة من جديد .

عندئذ عدل إبراهيم عن طريقة العرض المجرد للصفة الإلهية إلى طريقة التحدي وطلب تغيير سنة الله في الكون ؛ فهذه الشمس تبدو كل يوم من المشرق ، فإن كنت إلهاً تحيي وتميت ــ كما ادّعيتَ ــ فأتِ بها من المغرب .

وكان التسليم أولى والإيمان أجدر ، ولكن الكِبْر أمسك بالذي كفر ، فبهت وتحير ، ولم يهتد الى الحق ، لأنه لم يرغب فيه ، ولم يتلمس الهداية ، ولم يلتزم القصد والعدل[1] .

---

(١) الكشاف للزمخشري جـ١ ص ٣٨٦ ــ ٣٨٩ ، تفسير النسفي جـ١ ص ١٢٦ ، تفسير ابن كثير جـ١ ص ٣١٣ ، في ظلال القرآن جـ١ ص ٢٩٧ ــ ٢٩٩ .

١١ ـ سر الحياة :

بعـد أن قال إبراهيم للملك : « ربي الذي يحيي ويميت » ، تشوف إلى ملابسة سر الصنعة الإلهية ، وهذا التشوف لا يتعلق بوجود الإيمان وثباتـه وكماله ، وليس للبرهان أو تقوية للإيمان ، إنما هو الشوق الروحي إلى ملابسة السر الإلهي في أثناء وقوعه العملي؛ ليحصل على مذاق هذه الملابسة،فيستروح بها ويعيش معها :

« وإذ قال ابراهيم ربّ أرني كيف تُحْيي الموتى . قال : أوَ لم تؤمن ! قال بلى ولكن ليطمئن قلبي . قال : فخذ أربعة من الطـير فَصُرهُنّ(١) إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جُزْءاً ثم ادعُهُنّ يأتينك سعياً واعلم أن الله عزيز حكيم » .

(سورة البقرة ٢٦٠)

ولقد استجاب الله لهذا الشوق والتطلع في قلب إبراهيم ، فأمره أن يختار أربعة من الطير ، فيقربها منه ، ويضمها إليه ، ليتأملها ويعرف أشكالها وهيئاتها، ثم يذبحها وينتف ريشها ، ويقطعها ويخلط أجزاءها ، ويفرقهـا على الجبال المحيطة. ثم يدعوها. وإذ بالأجزاء المبعثرة تتجمع،وتعود الطيور إليه ساعيات.

ورأى إبراهيم هذا السر يقع بين يديه .. طيور فارقتها الحياة ، وتباعدت أجزاؤها ، تدب فيها الحياة مرة أخرى ، وتعدو إليه سعياً !

وهذا السر يقع في كل لحظة ، ولا يرى الناس إلا آثاره بعد تمامه . إنه سر هبة الحياة التي جاءت أول مرة بعد أن لم تكن ، والتي نشأت مـرات لا حصر لها في كل حي جديد .

وهذا السر يعلو على ادراك البشر ، ويصدّق به المؤمن ، وإن لم يدرك طبيعته ، ولم يعرف طريقته . إنه من أمر الله العزيز الحكيم .

---

(١) اضممهن .

ولم يكن سؤال إبراهيم عن شك ــ والعياذ بالله ــ في قدرة الله على الاحياء ، ولكنه سؤال عن كيفية الإحياء ، ويدل على ذلك ورود السؤال بصيغة « كيف » ، وموضعها السؤال عن الحال ، ولم يكن عند السؤال فاقداً لطمأنينة الإيمان ، ولكنه أراد أن يزول عن قلبه التفكير في كيفية الحياة ، لأنه إذا شاهدها سكن قلبه عن الجولان في كيفياتها المتخيلة ، كما أراد أن يعلم أنه مجاب الدعوة .

عن أبي هريرة ــ رضي الله عنه ــ قال : قال رسول الله ﷺ :

« نحن أحق بالشك من إبراهيم ، إذ قال : رب أرني كيف تحيي الموتى. قال : أو لم تؤمن ؟ قال : بلى ولكن ليطمئن قلبي »[1] .

ومعنى ذلك : إذا لم نشك نحن فابراهيم أولى أن لا يشك .

وقيل : لما نزلت الآية قال بعض الناس : شك إبراهيم ولم يشك نبينا ، فبلغه ذلك فقال: « نحن أحق بالشك من إبراهيم »، ليدفع عنه ، يعني: لا شك عندنا جميعاً .

ولقد كان الله يعلم إيمان خليله إبراهيم ، ولكنه قال له : « أوَلم تؤمن »؟ ليكشف عن إيمانه ويبينه[2] .

---

(١) أخرجه البخاري /٤٥٣٧/ ومسلم /١٥٢/ ـ (١٥١) /٠

(٢) الكشاف للزمخشري جـ١ ص ٣٩١ ـ ٣٩٢ ، تفسير النسفي جـ١ ص ١٢٨ ، تفسير ابن كثير جـ١ ص ٣١٥ ، في ظلال القرآن جـ١ ص ٣٠١ ـ ٣٠٢ ، فتح الباري جـ٦ ص ٤١١ ـ ٤١٣ .

١٢ ـ الهجرة :

جاء ذكر الهجرة في ثلاثة مواضع من فصل بطلان عبادة الأصنام :

أولها : ما اختتم به دعوته لأبيه :

« واعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعوا ربي عسى ألاّ أكون بدعاء ربي شقياً . فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له إسحق ويعقوب وكُلاّ جعلنا نبيا » .

(سورة مريم ٤٨ ـ ٤٩)

وهذه العزلة لا تكون في الهجرة فحسب ، وإنما تكون في المفاصلة بالشعور والمفارقة بالتصور والاعتقاد ، ولو لم يفارق قومه بجسمه . وهذه العقيدة والمشاعر والتصورات المتميزة عن الآخرين أولى مقدمات الهجرة ، وبدونها لا يبقى دافع الى الهجرة ومفارقة الأهل والبلد في سبيل الله .

ولكن مما يدل على أن المراد بهذه العزلة الهجرة الحقيقية ما تضمنته الآية من أن الله وهبه اسحق ويعقوب بعدها.وولادتهما لم تكن في أرض قومه. كما يدل على أن الهجرة هي المقصودة بذلك ما جاء في الموضع الثاني من قوله تعالى :

« فآمن له لوط، وقال إني مهاجر الى ربي إنه هو العزيز الحكيم»

(سورة العنكبوت ٢٦)

وسواء كان المهاجر هنا إبراهيم أو لوط عليهما السلام ، لأنهما هاجرا معاً كما هاجر أبو بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ بصحبة سيدنا محمد ﷺ .

والآية لم تحدد وجهة الهجرة ، سوى أنها هجرة في سبيل الله ، للدعوة إلى دينه والعمل بشريعته . وقلب المؤمن لا يكون متعلقاً بأرض معينة لذاتها ، وإنما يحرص على أن يعيش فوق الأرض التي يهتدي أهلها بنور الله .

ومصاحبة الصديق الوفي تهون من مشاق السفر ، وتخفف من لوعة الغربة ، وتبعد عن الغواية والضلال ولذلك نهى الرسول ﷺ عن أن يسافر الرجل وحده[1] •

وقيل : الرفيق قبل الطريق •

والموضع الثالث : جاء فيه وصف الأرض التي هاجر إليها :

« ونجيناه ولوطاً الى الأرض التي باركنا فيها للعالمين » •
(سورة الأنبياء ٧١)

والأرض المباركة هي بلاد الشام[2] وبخاصة الموضع الذي بني فيه المسجد الأقصى وما حوله • وبركتها أن أكثر الأنبياء منها ، فانتشرت في العالمين آثارهم الدينية • وهي أرض خصبة ، ماؤها عذب ، وجوها معتدل ، وهواؤها عليل ، يطيب فيها العيش •

ولا شك في أن هذه الآيات رغبت المسلمين في الهجرة من مكة حين قاوم أهلها الدعوة الى حيث يأمنون على أنفسهم ، ويتمكنون من نشر دينهم •

قال الله تعالى :

« إنَّ الذين تَوفّاهُمُ الملائكةُ ظالمي أنفسِهِم قالوا فِيمَ

---

(١) أخرجه أحمد من حديث ابن عمر بسند صحيح ، وهو عند البخاري بلفظ « لو يعلم الناس ما في الوحدة ما سار راكب بليل وحده » •

(٢) هاجر ابراهيم أولا الى حاران التي تقع بين خابور ونهر الفرات في شمال سورية، وكان عمره ستين سنة، ثم خرج منها وهو ابن خمس وسبعين سنة، فهاجر الى فلسطين ، واختار سكنه في شكيم في موقع نابلس الآن على الأرجح ، وكان فيها الكنعانيون •

(تاريخ ابن جرير الطبري جـ١ ص ٢٤٤ ، البداية والنهاية لابن كثير جـ١ ص ١٤٠ ، تاريخ ابن العبري ، سفر التكوين : الاصحاح الثاني عشر ، ابراهيم أبو الانبياء العقاد ص ٢٣ ــ ٢٤ ، ١٦٢ .

كنتم قالوا كنا مستضعفين في الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيراً • إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا • فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم وكان الله عفواً غفوراً » •
(سورة النساء ٩٧ ـ ٩٩)

وقد وعد الله المهاجر في سبيله بسعة العيش والثواب الجزيل :

« والذين هاجروا في الله من بعد ما ظلموا لنبوئنهم في الدنيا حسنة ولأجر الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون • الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون » •
(سورة النحل ٤١ ـ ٤٢)

وهذا الثواب يأتيهم وإن أدركهم الموت قبل الوصول إلى المكان الذي أرادوا الهجرة إليه :

قال الله عز وجل :

« ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراغماً(١) كثيراً وسعة ومن يخرج من بيته مهاجراً الى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله وكان الله غفوراً رحيماً » •
(سورة النساء ١٠٠)

« ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا ثم جاهدوا وصبروا إن ربك من بعدها لغفور رحيم » •
(سورة النحل ١١٠)

وقال العلماء : كل هجرة لطلب علم أو حج أو جهاد أو فرار الى بلد يزداد فيه طاعة أو قناعة أو زهداً أو ابتغاء رزق طيب فهي هجرة إلى الله ورسوله(٢) •

---

(١) مهاجراً وطريقاً يراغم بسلوكه قومه •

(٢) تفسير النسفي ج ١ ص ٢٤٤ •

١٣ ـ المحنة الثانية :

إن الدنيا دار بلاء وامتحان :

« الذي خلق الموت والحياةَ ليبلوكم أيُّكم أحسنُ عملا وهو العزيز الغفور » .

(سورة الملك ٢)

والمؤمن لا ينجو من مصيبة حتى يقع في غيرها ، ليلقى الله وليس عليه ذنب ، ولترتفع درجته في الآخرة. و« أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم »(١) .

ومحنة إبراهيم ـ عليه السلام ـ هذه المرة كانت في أهله سارة ، التي آمنت به وهاجرت معه ، وكانت ابنة عمه(٢) ، وهي من أحسن النساء .

---

(١) رواه البيهقي والنسائي والحاكم .

(٢) وقيل إنها بنت أخيه ، وإنه لم يكن الزواج من بنت الأخ محرماً . ولعل منشأ هذا القول تطابق اسم أخيه وعمه هاران ، فمن غاب عنه اسم عمه ظنها بنت أخيه . كما قيل انها بنت تارح ، وانها أخت ابراهيم لأبيه . وهذا القول مأخوذ عن أهل الكتاب ، فقد جاء في سفر التكوين : « انها أختي بالحقيقة ابنة أبي وليست ابنة أمي » . وقد قال بذلك العلامة رحمه الله الهندي في كتابه اظهار الحق (ج١ ص ٢٤٨) . وفي روايات أخرى : إن المقصود بأبيه جده ؛ فتكون بنت عمه ، وأنهم كانوا يطلقون الأخت على بنت العم . وقيل إنها بنت ملك حاران ، وان ابراهيم تزوجها لما هاجر من بلاد قومه إليها . ولعل منشأ هذا القول التشابه بين اسم ابيها هاران واسم البلدة التي استقر فيها ابراهيم حيناً من الدهر . (فتح الباري ج٦ ص ٣٩٢) .
والذي يدل عليه الحديث الصحيح انها بنت عمه . وهذا ما رجحه الطبري اذ نص على أنها سارة بنت هاران الأكبر عم ابراهيم ، وابن كثير اذ قال : « والمشهور أنها ابنة عمه هاران . ومن زعم أنها ابنة أخيه هاران أخت لوط فقد أبعد النجعة وقال بلا علم » .
(تاريخ الطبري ج١ ص ٢٤٤ ، البداية والنهاية ج١ ص ١٥٠) .

روى أبو يعلى عن أنس — رضي الله عنه — قال : « أعطى يوسف وأمه شطر الحسن ، يعني سارة[1] » ومن هنا أتت المحنة ! وإليك ذكرها كما جاءت في الصحيح :

عن أبي هريرة — رضي الله عنه — قال : قال النبي ﷺ :

« هاجر إبراهيم — عليه السلام — بسارة ، فدخل بها قرية فيها ملك من الملوك — أو جبار من الجبابرة — فقيل : دخل إبراهيم بامرأة هي من أحسن النساء ، فأرسل إليه أن يا إبراهيم من هذه التي معك ؟

قال : أختي[2] .

ثم رجع إليها فقال : لا تُكَذِّبي حديثي ، فإني أخبرتهم أنك أختي ، والله ان على الأرض من مؤمن غيري وغيرك . فأرسل بها إليه ، فقام إليها ، فقامت توضّأ وتصلي ، فقالت :

اللهم ان كنت آمنت بك وبرسولك ، وأحصنت فرجي إلا على زوجي فلا تسلط عليّ الكافر فَغُطَّ حتى ركض برجله[3] .

---

(1) سارة الجدة الثانية ليوسف ، وسميت أمه لأنها من أصوله .

(2) استبعد الاستاذ عبد الوهاب النجار قول ابراهيم : « هي أختي » ومصادرة زوجه . وقال : « إن سارة لما كانت في مصر كانت بنت سبعين سنة أو أكثر » فلا يطمع ملك فيمن هي في تلك السن ! واستند الى طعن الامام الرازي في حديث كذبات ابراهيم بقوله : « أما الخبر فلأن يضاف الكذب الى رواته أولى من أن يضاف الى الأنبياء . وكذلك زعم الأستاذ عبد الحميد السحار ان الحديث من اختلاق بعض من أسلم من اليهود .
(قصص الأنبياء للنجار ص ٨٤ — ٨٨ ، ابراهيم أبو الأنبياء للسحار ص٣٥٠)
مع أن الحديث صحيح ، ويوضح ان مراد ابراهيم : انها أخته في الايمان . فلا يدل على الكذب .
والرازي لم يقطع بضعف الحديث اذ قال : « ولو صح الخبر فهو محمول على المعاريض . (تفسير الرازي ج٦ ص ١٦٤) .

(3) يعني أنه اختنق حتى صار كأنه مصروع . وقيل : الغط : صوت النائم من شدة النفخ .

قالت : اللهم ان يمت يقال : هي التي قتلته • فأرسل • ثم قام إليهـا ، فقامت تتوضأ وتصلي وتقول : اللهم ان كنت آمنت بك وبرسولك ، وأحصنت فرجي إلا على زوجي فلا تسلط علي هذا الكافر • فغط حتى ركض برجله •

فقالت : اللهم ان يمت يقال : هي التي قتلته • فأرسل في الثانية أو في الثالثة •

فقال : والله ما أرسلتم إليّ إلا شيطاناً(١) أرجعوها الى إبراهيم، وأعطوها آجَر(٢) •

فرجعت الى إبراهيم ـ عليه السلام ـ فقـالت : أشعرتَ أن الله كبت(٣) الكافر وأخدم(٤) وليدة(٥) » •

والجبار المذكور ! قيل انه كان على مصر ، وان إبراهيم انحدر إليهـا بسبب مجاعة حدثت في أرضه(٦)•وقيل : كان على الأردن • فلما دخل إبراهيم أرضه ، رأى زوجَهُ بعضُ أهل الجبار فأتاه فقال : لقد قدم أرضك امرأة لا ينبغي أن تكون إلا لك ، فأرسل إليها •

وادعى إبراهيم أنها أخته لأن الظالم إن علم أن لها زوجاً حملته الغيرة على

---

(١) المراد بالشيطان المتمرد من الجن • وكانوا يعظمون أمر الجن ، ويرون كل ما وقع من الخوارق من فعلهم وتصرفهم •

(٢) يعني هاجر ، وهو اسم سرياني • ويقال : ان أباها كان من ملوك القبط •

(٣) أي أخزاه ورده خائباً ، وأحزنه وصرعه وصرفه وأذله •

(٤) مكن من الخدمة •

(٥) صحيح البخاري /٢٢١٧/ •

(٦) الاصحاح الثاني عشر • وقـال الاستاذ السحار : ان سارة أخذت أسيرة الى مصر • واعتمد بذلك على المؤرخ اليهودي يوسيفوس الذي ولد في القرن الأول للميلاد •
(ابراهيم أبو الأنبياء ـ السحار ص ٣٥٠)

قتله أو حبسه واضراره بخلاف ما إذا علم أن لها أخاً ، فإن الغيرة حينئذ تكون من قبل الأخ خاصة لا من قبل الملك فلا يبالي به •

وقيل : كان الجبار لا يقرب المتزوجة حتى يقتل زوجها ؛ فلذلك قال إبراهيم : هي أختي • لأنه ان كان عادلاً خطبها منه ، ثم يرجو مدافعته عنها • وإن كان ظالماً خلص من القتل •

وليس مراد إبراهيم بقوله: « ليس على وجه الأرض مؤمن غيري وغيرك » كل الأرض ، بل مراده الأرض التي وقع لها فيها ما وقع ، إذ كان لوط ـــ عليه السلام ـــ مؤمناً حينئذ في بعض أصقاع الأرض •

وقد انجلت المحنة ، وكف الله يد الظالم ، ونجى سارة كما نجى إبراهيم من النار ، لفضله وصلاح أهله ، وتفويض أمره الى الله •

وفي رواية أخرى للحديث عن أبي هريرة ـــ رضي الله عنه ـــ قال :

« لم يكذب إبراهيم ـــ عليه السلام ـــ إلا ثلاث كذبات[1] : ثنتين منهن في ذات الله عز وجل :

قوله : « إني سقيم » • وقوله : « بل فعله كبيرهم هذا » • وقال : بينا هو ذات يوم وسارة، إذا أتى على جبار من الجبابرة، فقيل له : إن هاهنا رجلاً معه امرأة من أحسن الناس •

فأرسل إليه فسأله عنها ، فقال : من هذه ! قال : أختي • فأتى سارة ، قال : يا سارة ! ليس على وجه الأرض مؤمن غيري وغيرك ، وإن هذا سألني عنك فأخبرته أنك أختي ، فلا تكذبيني •

---

(١) اطلق الكذب على الأمور الثلاثة لكونه قال قولا يعتقده السامع كذبا • لكنه اذا حقق لم يكن كذباً • لأنه من باب المعاريض المحتملة للأمرين • فليس بكذب محض •

فأرسل إليها ، فلما دخلت عليه ذهب يتناولها بيده ، فأخذ . فقال : ادعي الله لي ولا أضرك فدعت ، فأطلق ، ثم تناولها الثانية ، فأخذ مثلها أو أشد . فقال ادعي الله لي ولا أضرك . فدعت فأطلق . فدعا بعض حجبته فقال : إنكم لم تأتوني بإنسان ، إنما آتيتموني بشيطان . فأخذمها هاجر . فأتته وهو قائم يصلي ، فأومأ بيده : مهيم[1] ؟ قالت رد الله كيد الكافر — أو الفاجر — في نحره ، وأخدم هاجر »[2] .

وهذه رواية مسلم[3] للحادثة :

عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال :

لم يكذب إبراهيم قط إلا ثلاث كذبات : ثنتين في ذات الله . قوله : « إني سقيم » ، وقوله : « بل فعله كبيرهم هذا » . وواحدة في شأن سارة .

فإنه قدم أرض جبار ومعه سارة ، وكانت من أحسن الناس ، فقال لها : إن هذا الجبار إن يعلم أنك امرأتي يغلبني عليك،فإن سألك فأخبريه أنك أختي، فإنك أختي في الإسلام ، فإني لا أعلم في الأرض مسلماً غيري وغيرك .

فلما دخل أرضه رآها بعض أهل الجبار ، أتاه فقال له :

لقد قدم أرضك امرأة لا ينبغي لها أن تكون إلا لك . فأرسل إليها . فأتى بها . فقام إبراهيم — عليه السلام — الى الصلاة .

فلما دخلت عليه لم يتمالك أن بسط يده إليها . فقبضت يده قبضة شديدة . فقال لها : ادعي الله أن يطلق يدي ولا أضرك . ففعلت . فعاد ، فقبضت أشد من القبضة الأولى . فقال لها مثل ذلك . ففعلت.فعاد ، فقبضت

---

(١) يعني ما الخبر ؟ وهي منحوته من « ماهايوم » العبرية بمعنى : ما يومك ؟ اي ما خبرك ؟

(٢) البخاري / ٣٣٥٨ / .

(٣) صحيح مسلم / ١٥٤ ـ (٢٣٧١) / .

أشد من القبضتين الأوليين. فقال : ادعي الله أن يطلق يدي ، فَلَكِ الله[1] أن لا أضرك . ففعلت . وأطلقت يده .

ودعا الذي جاء بها فقال له: إنك إنما أتيتني بشيطان، ولم تأتني بإنسان. فأخرجها من أرضي ، وأعطها هاجر .

قال : فأقبلت تمشي ، فلما رآها إبراهيم ــ عليه السلام ــ انصرف فقال لها : مهيم ؟

قالت : خيراً ، كف الله يد الفاجر ، وأخدم خادماً » .

وقد وهبها هاجر لتخدمها ، لأنه أعظمها أن تخدم نفسها .

وهكذا يذهب الكرب ويأتي الفرج ، ويزول العسر ويعقبه اليسر ، بعد أن يفعل العبد ما بوسعه ، ويفوض أمره الى الله .

---

(١) أي شاهد وضامن ألا أضرك .

١٤ ـ فتنة الولد :

مضت سنوات على زواج إبراهيم ولم تنجب امرأته • وحب الولد غريزة في نفس الانسان • ومما زاد في رغبة إبراهيم في الذرية أنه يعيش بعيداً عن قومه في البلاد التي هاجر إليها • وكانت زوجه لا تقل عنه حنيناً الى ولد تأنس به وتقر به عينها ؛ فوهبته هاجر ليتسرى بها ، عسى أن يرزقا منها ولداً • وحملت هاجر ، ووضعت طفلا أسموه اسماعيل(١) • وبدأت الغيرة بين سارة وبين أم اسماعيل • وأصبحت الغيرة تشتد يوماً بعد يوم • ولم يستطع إبراهيم أن يطفىء نارها ؛ فأمر بابعاد اسماعيل وأمه ؛ فخرج بهما الى مكة • وهذا الحديث يصور لنا ما حدث لهم :

قال ابن عباس رضي الله عنهما :

« أول ما اتخذ النساء المِنْطَق(٢) من قبل أم اسماعيل ؛ اتخذت منطقاً لتعفِّي(٣) أثرها على سارة • ثم جاء بها ابراهيم وبابنها اسماعيل ــ وهي ترضعه ــ(٤) حتى وضعها عند البيت عند دوحة(٥) فوق زمزم في أعلى

---

(١) كان ابراهيم ابن ست وثمانين سنة لما ولدت هاجر اسماعيل • (تفسير ابن كثير ج٤ ص ١٤) و « اسماعيل » يعني : المسموع من الله ، لأن الله استمع للدعاء فيه • (ابراهيم أبو الأنبياء للعقاد ص ٣١ ، ١٥٧)

(٢) ما يشد به الوسط •

(٣) لتخفي • فقد حلفت سارة لتقطعن من هاجر ثلاثة أعضاء ؛ فاتخذت هاجر منطقاً فشدت به وسطها وهربت ، وجرت ذيلها لتخفي أثرها •

(٤) تذكر رواية أخرى في تاريخ الطبري ان اسماعيل أبعد مع أمه بعد ولادة اسحق حتى لا يرث من أبيه ، وكان حينئذ ابن بضع عشرة سنة • ولكن هذه أصح لورودها في الصحيح • ولو كان كبيراً ما كان يبقى مكانه لتذهب أمه باحثة عن الماء •

(٥) شجرة كبيرة •

المسجد[1] . وليس بمكة يومئذ أحد ، وليس بها ماء . ووضع عندها جِراباً فيه تمر وسِقاء[2] فيه ماء . ثم قَفَّى[3] إبراهيم منطلقاً فتبعته أم اسماعيل ، فقالت : يا إبراهيم ! أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه إنس ولا شيء ؟ فقالت له ذلك مراراً ، وجعل لا يلتفت إليها[4] . فقالت له : الله أمرك بهذا ؟ قال نعم . قالت : إذن لا يضيعنا[5] . ثم رجعت .

فانطلق إبراهيم حتى إذا كان على الثَّنيَّة حيث لا يرونه استقبل بوجهه البيت ، ثم دعا بهؤلاء الكلمات ورفع يديه فقال :

« ربنا إني أسكنت من ذُريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون » .

(سورة ابراهيم ٣٧)

« وجعلت أم اسماعيل ترضع اسماعيل ، وتشرب من ذلك الماء حتى إذا نفد ما في السقاء عطشت[6] وعطش ابنها . وجعلت تنظر إليه يتلوى ــ أو قال: يتلبط[7] ــ فانطلقت كراهية أن تنظر إليه ، فوجدت الصفا أقرب جبل في

---

(١) أي مكان المسجد ، اذ لم يكن حينئذ بيت ولا زمزم ولا مسجد .

(٢) قِربة صغيرة .

(٣) أي ولى راجعاً الى الشام .

(٤) في رواية أخرى عن سعيد بن جبير أنها : « نادته ثلاثاً فأجابها في الثالثة فقالت له : من أمرك بهذا ؟ قال : الله » .

(٥) في رواية أخرى : « قالت : رضيت بالله » .

(٦) زاد الفاكهي من حديث أبي جهم : « فانقطع لبنها » . وفيها : « وكان اسماعيل حينئذ ابن سنتين » .

(٧) يتمرغ ويضرب بنفسه الأرض ، ويقرب منها . ورواية عطاء بن السائب : « فلما ظمىء اسماعيل جعل يضرب الأرض بعقبيه

الأرض يليها ، فقامت عليه ، ثم استقبلت الوادي[1] تنظر هل ترى أحداً ، فلم ترَ أحداً . فهبطت من الصفا ، حتى إذا بلغت الوادي رفعت طرف درعها[2] ثم سعت سعي الإنسان المجهود حتى جاوزت الوادي ، ثم أتت المروة فقامت عليها فنظرت هل ترى أحداً ، فلم ترَ أحداً ، ففعلت ذلك سبع مرات[3] .

قال ابن عباس : قال النبي ﷺ : « فذلك سعي الناس بينهما » .

« فلما أشرفت على المروة سمعت صوتاً فقالت : صهٍ ــ تريد نفسها[4] ــ ثم تسمعت أيضاً فقالت : قد اسمعت ان كان عندك غواث ، فاذا هي بالمَلَك[5] عند موضع زمزم ، فبحث بعقبه ــ أو قال بجناحه ــ حتى ظهر الماء ، فجعلت تحوّضه[6] وتقول بيدها هكذا ، وجعلت تغرف من الماء في سقائها وهو يفور بعدما تغرف .

قال ابن عباس : قال النبي ﷺ : « يرحم الله أم اسماعيل لو تركت زمزم ــ أو قال : لو لم تغرفِ من الماء ــ لكانت زمزم عيناً معيناً[7] » .

« قال : فشربت وأرضعت ولدها . فقال لها الملك : لا تخافوا الضيعة[8]،

---

(١) في رواية عطاء بن السائب : « والوادي يومئذ عميق » (٢) أي ثوبها .

(٣) في رواية ابراهيم بن نافع انها « كانت في كل مرة تتفقد اسماعيل وتنظر ما حدث له بعدها » .

(٤) خاطبت نفسها فقالت لها : اسكتي .

(٥) في رواية نافع وابن جريج : « فإذا جبريل » .

(٦) تجعله مثل الحوض .

(٧) أي ظاهراً جارياً على وجه الأرض .

(٨) الهلاك . وفي حديث أبي جهم : « لا تخافي أن ينفد الماء » . وعند الفاكهي : « لا تخافي على أهل هذا الوادي ظمأ فإنها عين يشرب بها ضيفان الله . زاد في حديث أبي جهم : « فقالت : بشرك الله بخير » .

فإن ها هنا بيت الله ، يبني هذا الغلام وأبوه ، وان الله لا يضيع أهله . وكان البيت مرتفعاً من الأرض كالرابية ، تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وشماله .

فكانت كذلك حتى مرت بهم رفقة من جُرْهُم ـ أو أهل بيت من جرهم ـ مقبلين من طريق كداء ، فنزلوا في أسفل مكة ، فرأوا طائراً عائفاً[1]، فقالوا : إن هذا الطائر ليدور على ماء ، لعهدنا بهذا الوادي وما فيه ماء . فأرسلوا جَرِيّاً[2] أو جريين ، فإذا هم بالماء ، فرجعوا فأخبروهم بالماء .

فأقبلوا ـ قال : وأم اسماعيل عند الماء ـ فقالوا : أتأذنين لنا أن ننزل عندك ؟

فقالت : نعم ، ولكن لا حق لكم في الماء . قالوا : نعم .

قال ابن عباس : قال النبي ﷺ : « فألفى[3] ذلك أم اسماعيل وهي تحب الإنس[4] » .

فنزلوا وأرسلوا الى أهليهم فنزلوا معهم ، حتى إذا كان بها أهل أبيات منهم وشب الغلام وتعلم العربية منهم ، وأنفسهم[5] وأعجبهم حين شب ..[6] » .

وهكذا كانت الفتنة ، ما كاد ابراهيم يقر عيناً بولده بعد طول انتظار حتى

---

(١) يحوم على الماء ، ويتردد ، ولا يمضي عنهم . وجرهم : قبيلة من العرب .

(٢) أي رسولا ، وقد يطلق على الوكيل وعلى الأجير . وسمي بذلك لأنه يجري مجرى مرسله أو موكله ، أو لأنه يجري مسرعاً في حوائجه . وفي رواية ابن نافع : « فأرسلوا رسولا » .

(٣) وجـد .

(٤) بضم الهمزة : ضد الوحشة . ويجوز الكسر : أي تحب جنسها .

(٥) من النفاسة ، أي كثرت رغبتهم فيه ، اذ صار نفيساً عندهم .

(٦) للحديث بقية ، نتمها بعد فصلين إن شاء الله .

اكتوى بنار الغيرة التي أضرمت في قلب زوجه ، لتحرق بها الأم وولدها • وما كاد إبراهيم يأنس بولده حتى أمر بابعاده مسيرة شهر عنه •

وتجلت رحمة الله مرة ثالثة بهذه الأسرة المباركة ، ففجر الماء بعد أن كاد الظمأ يقتل الطفل الرضيع وأمه ، وهيأ لهما من يذهب عنهما الوحشة ، وييسر لهما سبل الحياة • كيف لا ، وقد فوضت أم اسماعيل أمرها إليه ، وتوجه إليه إبراهيم داعياً لهما بالرزق وجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم •

لكن هناك ابتلاء أكبر بهذا الولد فما هو ؟

١٥ ـ ذبح اسماعيل :

يريد الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن تكون قلوب عباده خالصة له، وألا يحب المؤمن شيئاً كحب ربه . والله يبتلي عباده بما يحبون ليمتحنهم هل يصبرون أم لا . وكان ابتلاء ابراهيم ـ عليه السلام ـ من هذا القبيل ؛ فقد أحب امرأته ، فإذا هي تتعرض للمصادرة من الجبار ، وقام إبراهيم يصلي ويدعو حتى عادت إليه سالمة غانمة ، وعلم أن الفضل لله ؛ وأنه هو المستحق للحمد والحب على انعامه . ثم أحب إبراهيم ابنه الذي رُزِقه بعد طول رجاء، ووجد فيه السلوى والعزاء ، ولعل حبه لابنه قد تضاعف بعد الأمر بمفارقته ، أو لعله ترك قلبه معه قبل أن يرجع الى مكان اقامته : ولهذا أمر بذبحه[1] ، ليبقى قلبه مملوءاً بحب الله وحده .

وهاهي الآيات تصف توجه إبراهيم إلى ربه داعياً ليهبه ذرية صالحة ، وتروي بشارته بالغلام وقصة ذبحه :

« رَبِّ هَبْ لي من الصالحين . فبشرناه بغلام حليم . فلما بلغ معه السعي[2] قال يا بُنيَّ إني أرى في المنام أني أذْبحُك فانظر ماذا ترى قال يا أبتِ افعل ما تُؤمَر ستجدني إن شاء الله من الصابرين . فلما أسلما وتَلَّهُ للجبين[3] . وناديناه أن يا ابراهيم

---

(١) وقيل إن ابراهيم نذر ذبحه حين بُشر به اذ قال : هو إذاً لله ذبيح . فلما وُلد الغلام وبلغ السعي قيل له في النوم : أوف بنذرك الذي نذرت لله . وهذه الرواية بناء على أن الذبيح اسحق ، وهي مرجوحة كما سنرى .
(تاريخ الطبري ج١ ص ٢٧٢ ـ ٢٧٣)

(٢) بلغ أن سعى مع أبيه في أشغاله وحوائجه . وكان اذ ذاك ابن ثلاث عشرة سنة . وقد كان ابراهيم يذهب في كل وقت يتفقد ولده وأم ولده وينظر في أمرهما .

(٣) أسلما : يعني استسلما وانقادا : ابراهيم امتثل أمر الله ، واسماعيل امتثل طاعة لله ولأبيه . ومعنى تله للجبين : أكبه على وجهه ليذبحه من قفاه ولا يشاهد وجهه عند ذبحه ليكون أهون عليه .

قد صدَّقتَ الرُّؤيا إنا كذلك نجزي المحسنين • إنَّ هذا لهو البلاء المبين • وفديناه بِذبح عظيم • وتركنا عليه في الآخرين • سلام على ابراهيم • كذلك نجزي المحسنين • إنه من عبادنا المؤمنين • وبشرناه باسحاق نبياً مـن الصالحين • وباركنا عليـه وعلى إسحاق ومِن ذُرِّيَّتهِمَا محسن وظالم لنفسه مبين » •

(سورة الصافات ١٠٠ ــ ١١٣)

ومما زاد في الابتلاء أن الغلام كان حليماً مباركاً ، وأنه أمر بذبحه حين كبر وترعرع • ولو أنه كُلِّف بتوجيهه الى معركة يموت فيها أو إرساله الى جهة ترديه ويكون فيها حتفه لهان الخَطب • ولكن أن يؤمر الأب الرحيم الكبير في السن بذبح ابنه الوحيد الحبيب بيده ، فليس أعظم من ذلك بلاء •

ولم يكن هناك أمر مباشر في اليقظة بالقيام بهذا العمل الشاق على النفس؛ ولكن مجرد رؤيا في المنام[1] • وهذه الرؤيا كافية ليمتثل لها إبراهيم ولو كانت أعظم تكليف • ولم يقدم على هذا العمل بغضب وانزعاج ، وإنما أقدم عليـه بنفس هادئة راضية ، كما لم يلجأ الى الحيلة والمكر لتنفيذ الأمر ، وإنما واجه ابنه مباشرة به ، وسأله عن رأيه فيه •

وتجلى حلم اسماعيل وصبره وبِرُّه حين سلم نفسه راضياً الى أبيه ليفعل ما أُمر به سائلا الله العون والصبر • وأضجع إبراهيم ابنه ، ووضع جبينه على الأرض ، وأمسك بالسكين وحز على رقبته وامتثل أمر ربه •

وحينئذ وقعت المعجزة ! يا الله إن السكين لم تقطع وان اسماعيل لم يذبح، بل جِيء بكبش عظيم ، وذبح فداء له • واستحق إبراهيم وابنه الثناء والسلام على امتثاله أمراً شاقاً صعباً ، كما استحق البشارة باسحق ، وانه سيكون نبياً صالحاً مباركاً •

---

(١) قال رسول الله ﷺ : « رؤيا الأنبياء في المنام وحي » • (أخرجه ابن أبي حاتم عن ابن عباس) •

وقد زعم أهل الكتاب « ان ابراهيم أمر بذبح وحرق ابنه اسحاق في أرض المريا » . وهذا الزعم مردود ومناقض لما في كتابهم في موضع آخر ؛ ففي الاصحاح الثاني والعشرين الذي وردت فيه العبارة السابقة : « فلمْ تمسك ابنك وحيدك عني» . وإسماعيل أكبر من اسحاق باتفاق المسلمين وأهل الكتاب، بل في نص كتابهم ان إسماعيل ولد ولإبراهيم ست وثمانون سنة[1] ، فكان إسماعيل وحيداً لأبيه حين أمر بذبحه .

والقرآن الكريم شاهد ومرشد الى أن الذبيح اسماعيل ، فقد وُصِف فيه بالحليم ؛ لأنه مناسب لهذا المقام ، وأما اسحاق فوصف بالعليم ، وانه سيصير نبياً ، وانه يولد له في حياة والديه ولد يسمى يعقوب ، على ما سيأتي . فكيف يؤمر بذبحه وهو صغير !

ومما يقوي هذا الرأي ان الآيات ذكرت البشارة باسحاق عقب قصة الذبيح مباشرة ، وفي هذا دلالة واضحة على أن الذبيح اسماعيل .

وقال ﷺ : « أنا ابن الذبيحين »[2] . فأحدهما جده إسماعيل ، والآخر أبوه عبد الله .

ومما يدل على ذلك أيضاً أن قريشاً توارثوا قرني الكبش الذي فدي به إسماعيل خلفاً عن سلف ، ولم يزالا معلقين في البيت الحرام حتى أول الاسلام ، كما رواه أحمد عن ابن عباس رضي الله عنهما : « لقد كان أول الإسلام وإن رأس الكبش لمعلق بقرنيه في ميزاب الكعبة حتى وحَش »[3] .

(١) سفر التكوين ، الاصحاح : ٢٢ .
(٢) رواه الحاكم في المناقب من مستدركه من حديث عبيد الله بن محمد العتبي ، وصححه هو والذهبي . ورواه ابن جرير وابن مردويه والثعلبي في تفاسيرهم عن معاوية بن أبي سفيان .
(٣) يعني يبس .

وقال سفيان : « لم يزل قرنا الكبش معلقين في البيت حتى احترق البيت في زمن الحجاج وابن الزبير فاحترقا » . وعن الشعبي قال : « رأيت قرني الكبش في الكعبة » . وفي ذلك آثار كثيرة عن عدد من الصحابة والتابعين والعلماء ، لم أنقلها خشية الاطالة .

ومع هذا رجح الطبري[1] والقرطبي أن الذبيح اسحق .

أما ابن كثير فقد قطع ان اسماعيل هو الذبيح ، وهاجم أصحاب الرأي الآخر بقوله :

« أما الذين ذهبوا إلى أن الذبيح هو اسحاق فقد تلقوا ذلك عن أخبار أهل الكتاب من غير حجة . والله أعلم »[2] .

ويبدو أن أهل الكتاب بدلوا اسحاق باسماعيل حسداً من عند أنفسهم لأن اسحاق أبوهم ، وإسماعيل أبو العرب .

---

(١) تاريخ الطبري ج١ ص ٢٦٣ ـ ٢٦٧ .
(٢) تفسير ابن كثير ج٤ ص ١٤ ـ ١٩ .

١٦ ـ البشرى باسحاق :

مَنَّ الله على إبراهيم باسحاق مكافأة له على طاعته وامتثال أمره ، كما مَنَّ به على سارة مكافأة لها على صبرها واستجابة لتضرعها • وهكذا يمن الله على عباده الصالحين ، وتزول الشدة ، ويأتي بعدها الرخاء والسراء •

وقد ذكر اسحاق ويعقوب مرات سابقة[١] للدلالة على أن الله أبدل إبراهيم بقومه الذين فارقهم ذرية مباركة طيبة • كما ذكرت البشارة باسحاق في الفصل السابق[٢] ، بعد أن أقدم إبراهيم على ذبح وحيده إسماعيل •

واقترنت هذه البشارة بالأخبار عن هلاك قوم لوط في أربعة مواضع ، وكأن الله ـ سبحانه ـ استبدل اسحاق ويعقوب بقوم لوط الظالمين ، كما قال جـل جلالـه :

« وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم » •
(سورة محمد ٣٨)

وأول هذه المواضع جاء مختصراً :

« ولما جاءت رسلُنا إبراهيم بالبُشرى قالوا إنا مهلكوا أهل هذه القرية[٣] إن أهلها كانوا ظالمين قال إنَّ فيها لوطاً قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين[٤] » •
(سورة العنكبوت ٣١ ـ ٣٢)

---

(١) انظر ذلك في سورة مريم : ٤٩ ـ ٥٠ ، وقد ذكرت تحت عنوان : الأب الضال ص٧٧،وفي سورة العنكبوت : ٢٦ ـ ٢٧ التي ذكرت تحت عنوان : عزة الايمان ص٨٥،وفي سورة الأنبياء : ١٧ ـ ٧٣ التي ذكرت تحت عنوان : تحطيم الأصنام ص ٨٨ •

(٢) وذلك في سورة الصافات : ١١٢ ـ ١١٣ ، وقد وردت ص ١١٦ •

(٣) القرية هي سدوم ، وكانت تقع بجانب البحر الميت •

(٤) الباقين في العذاب ، المهلكين ؛ لأنها كانت تمالئهم على كفرهم وبغيهم ، وأصل الكلمة من الغبرة وهي بقية اللبن في الضرع •

والذي دل على المقصود بالبشرى هنا تقدم ذكر اسحاق ويعقوب قبل أربع آيات[1] بالإضافة الى ذكرهما في المواضع الأخرى ٠

وثانيها يصف لنا شعور إبراهيم حين دخل عليه الضيوف المبشرون ، وحين تلقى البشرى :

« ونبئهم عن ضيف[2] إبراهيم ٠ إذ دخلوا عليه فقالوا سلاماً قال إنا منكم وَجِلون[3] ٠ قالوا لا تَوْجل إنا نُبشرك بغلام عليم ٠ قال أبشرتموني على أن مسني الكِبَرُ[4] فَبِمَ تبشرون ٠ قالوا بشرناك بالحق فلا تكن من القانطين[5] ٠ قال ومن يَقْنَطُ من رحمة ربه إلا الضالون ٠ قال فما خطبكم[6] أيُّها المرسَلون ٠ قالوا إنا أُرسلنا الى قوم مجرمين[7] » ٠

(سورة الحجر ٥١ ـ ٥٨)

وثالثها يصف تكريم إبراهيم لضيوفه ، ويبين سبب وجله منهم ، وتعجب امرأته من البشرى ، وفيه كما في الموضع الثاني وصف الغلام بأنه عليم :

« هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرَمين ٠ إذ دخلوا عليه فقالوا سلاماً قال سلامٌ قوم منكَرون[8] ٠ فراغ الى أهله[9] فجاء

---

(١) وذلك في سورة العنكبوت : ٢٧ وقد ذكرت ص ٨٥ ٠

(٢) الضيف يجيء واحداً وجمعاً ٠ والمقصود هنا جبريل عليه السلام ومن معه من الملائكة ، وهم الرسل المذكورون في الآيات السابقة ٠

(٣) خائفون ٠ وسبب الخوف سيأتي ذكره ٠

(٤) كان عمره حينئذ تسعاً وتسعين سنة (تفسير ابن كثير ج٤ ص ١٤) ٠

(٥) الآيسين ، اليائسين ٠

(٦) فما شأنكم وفيم جئتم ؟

(٧) أي قوم لوط كما تدل الآيات المذكورة بعدها في السورة ٠

(٨) أي أنتم قوم منكرون فعرفوني من أنتم ؟

(٩) انسل خفية في سرعة ٠

بعجل سمين • فقرّبه إليهم قال ألا تأكلون(١) • فأوْجسَ منهم خيفة(٢) قالوا لا تخف وبشروه بغلام عليم • فأقبلت امرأتُه في صَرّةٍ(٣) فصكّت وجهها(٤) وقالت عجوز عقيم(٥) • قالوا كذلك قال ربك إنه هو الحكيم العليم • قال فما خطبكم أيها المرسلون • قالوا إنا أُرسلنا الى قوم مجرمين » •

(سورة الذاريات ٢٤ ـ ٣٢)

ورابعها يسمي الغلام ، ويبين بأنه سيكون له عقب من بعده ، ويذكر بعض صفات إبراهيم عليه السلام :

« ولقد جاءت رسلُنا إبراهيم بالبُشرى قالوا سلاماً قال سلامٌ فما لبث أن جاء بعجل حنيذ(٦) • فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكِرَهم(٧) وأوجس منهم خيفة(٢) قالوا لا تخف إنا أُرسلنا الى قوم لوط • وامرَأته قائمة فضحكت(٨) فبشرناها باسحاق ومن وراء اسحاق يعقوب • قالت يا ويلتي أألِدُ وأنا عجوز وهذا بعلي شيخاً إنّ هذا لشيءٌ عجيب • قالوا أتعجبين من أمر الله رحمتُ الله وبركاته عليكم أهل البيت إنّه حميد مجيد • فلما ذهب عن ابراهيم

---

(١) أنكر عليهم ترك الأكل ، أو حثهم عليه •

(٢) أضمر منهم خوفاً لأن من لم يأكل طعامك لم يحفظ ذمامك •

(٣) في صيحة شديدة •

(٤) لطمت وجهها تعجباً •

(٥) كان عمرها تسعين سنة • (الاصحاح السابع عشر ، تاريخ ج١ ص ٢٤٩ ، تفسير النسفي ج٢ ص ٢٠٩) •

(٦) مشوي بالحجارة المحماة •

(٧) كانت عادتهم أنه اذا تناول من يطرقهم طعاماً امنوه ، وإلا خافوه •

(٨) ضحكت سروراً بزوال سبب الخوف أو بهلاك أهل الخبائث •

الروع[1] وجاءته البشرى يجادلنا في قوم لوط • إن ابراهيم لحليم أوّاه[2] منيب[3] • يا ابراهيم أعْرِضْ عن هذا[4] إنه قد جاء أمر ربك وإنهم آتيهم عذاب غير مردود » •

(سورة هود ٦٩ ـ ٧٦)

وهكذا أفاض الله من رحمته وبركاته على أهل هذا البيت الميمون وعلى هذا النبي الخاشع التقي ذي القلب الرقيق المملوء رأفة ورحمة حتى على العصاة والظالمين •

ولم ينسَ إبراهيم بعد أن رزق ولداً من زوجه سارة ابنه اسماعيل ، فكان يزوره حيناً بعد حين ، يتفقد حاله ويتعهده بالنصيحة •

---

(١) الفزع •

(٢) كثير التأوه من خوف الله ، رحيم •

(٣) تائب راجع الى الله •

(٤) عن الجدال • وكان ابراهيم يجادل في قوم لوط ، رجاء أن يرفع عنهم العذاب ويمهلوا لعلهم يحدثون التوبة •

١٧ ـ الابـن البـار :

نعود في هذا الفصل مع ابراهيم ـ عليه السلام الى مكة لنتفقد ابنه الذي شب وحظي باعجاب قبيلة جرهم. وإليك تتمة حديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ الذي بدأناه في فصل فتنة الولد :

« وشب الغلام ، وتعلم العربية منهم ، وأنفسهم وأعجبهم حين شب .

فلما أدرك زوجوه امرأة منهم . وماتت أم اسماعيل . فجاء ابراهيم بعدما تزوج اسماعيل يطالع تركته[١] فلم يجد اسماعيل ، فسأل امرأته عنه فقالت : خرج يبتغي لنا[٢] . ثم سألها عن عيشهم وهيئتهم فقالت : نحن بِشَر ، نحن في ضيعة وشدة ، فشكت إليه[٣] . قال : فاذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام ، وقولي له : يُغير عتبة بابه .

فلما جاء اسماعيل كأنه آنس شيئاً فقال : هل جاءكم من أحد ؟ قالت : نعم ، جاءنا شيخ كذا وكذا[٤] ، فسألنا عنك فأخبرته . وسألني كيف عيشنا فأخبرته أنا في جهد وشدة . قال : فهل أوصاك بشيء ؟ قالت : نعم ، أمرني

---

(١) يتفقد حال ما تركه هناك . وليس في الحديث نفي المجيء قبل ذلك . ففي حديث أبي جهم : « كان ابراهيم يزور هاجر كل شهر على البراق ، يغدو غدوة فيأتي مكة، ثم يرجع فيقيل في منزله بالشام . وروى الفاكهي من حديث علي باسناد حسن : « ان ابراهيم كان يزور اسماعيل وأمه على البراق ». وقد رأينا أنه جاء حين أمر بذبحه .

(٢) يطلب لنا الرزق . وفي حديث أبي جهم : « وكان اسماعيل يرعى ماشيته ويخرج متنكباً قوسه فيرمي الصيد » .

(٣) في حديث أبي جهم قال : « فذكرت جهداً فقالت : أما الطعام فلا طعام . وأما الشاء فلا تحلب الا المصر ـ أي الشخب ـ وأما الماء فعلى ما ترى من الغلظ .

(٤) في رواية عطاء بن السائب : كالمستخفة بشأنه .

أن أقرأ عليك السلام ، ويقول : غير عتبة بابك[١] • قال : ذاك أبي ، وقد أمرني أن أفارقك ، الحقي بأهلك • فطلقها وتزوج منهم أخرى •

فلبث عنهم ابراهيم ما شاء الله ، ثم أتاهم بعد فلم يجده ، فدخل على امرأته فسألها عنه فقالت : خرج يبتغي لنا • قال : كيف أنتم ؟ وسألها عن عيشهم وهيئتهم فقالت : نحن بخير وسعة[٢] ، وأثنت على الله • فقال : ما طعامكم ؟ قالت : اللحم • قال: فما شرابكم ؟ قالت : الماء • قال : اللهم بارك لهم في اللحم والماء •

قال النبي ﷺ : ولم يكن لهم يومئذ حب ، ولو كان دعا لهم فيه • قال : فهما لا يخلو عليهما أحد بغير مكة إلا لم يوافقاه[٣] •

قال : فإذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام ومريه يثبت عتبة بابه •

فلما جاء اسماعيل قال : هل أتاكم من أحد ؟ قالت : أتانا شيخ حسن الهيئة[٤] ــ وأثنت عليه ــ فسألني عنك فأخبرته • فسألني كيف عيشنا فأخبرته أنا بخير • قال : فأوصاك بشيء ؟ قالت : نعم ، هو يقرأ عليك السلام ويأمرك ان تثبت عتبة بابك• قال : ذاك أبي وأنت العتبة• أمرني أن أمسكك•

ثم لبث عنهم ما شاء الله • ثم جاء بعد ذلك ، واسماعيل يبري نبلا له تحت دوحة قريبة من زمزم• فلما رآه قام إليه ، فصنعا كما يصنع الوالد بالولد

---

(١) كناية عن المرأة ، وسماها بذلك لما فيها من الصفات الموافقة للعتبة وهي : حفظ الباب ، وصون ما هو داخله ، وكونها محل الوطء •

(٢) في حديث أبي جهم : « نحن في خير عيش بحمد الله ، ونحن في لبن كثير ولحم كثير وماء طيب » •

(٣) في حديث أبي جهم : « ليس احد يخلو على اللحم والماء بغير مكة الا اشتكى بطنه » •

(٤) في رواية عطاء بن السائب: « فلما جاء اسماعيل وجد ريح أبيه فقال لا مرأته: هل جاءك احد ؟ قالت : نعم ، شيخ أحسن الناس وجهاً وأطيبهم ريحاً » •

والولد بالوالد[1] • ثم قال : يا اسماعيل ! أن الله أمرني بأمر • قال : فاصنع ما أمر ربك • قال : وتعينني ؟ قال : وأعينك • قال : فإن الله أمرني أن ابني ها هنا بيتاً ــ وأشار الى أكمة مرتفعة على ما حولها ــ قال : فعند ذلك رفعا القواعد من البيت ، فجعل اسماعيل يأتي بالحجارة وابراهيم يبني • حتى اذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر فوضعه له ، فقام عليه وهــو يبني ، واسماعيل يناوله الحجارة وهما يقولان :

« ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم »[2] •

(سورة البقرة ١٢٧)

وهكذا كان اسماعيل ــ عليه السلام ـ باراً بوالده•أمره أن يفارق امرأته الأولى ففارقها ، وأمره أن يمسك الثانية فثبتها وزاد اكرامها ، وأمره ان يساعده في بناء البيت ففعل • وأهم من هذا أنه جاد بنفسه ، ولم يعارض في أن يذبحه أبوه امتثالا للرؤيا التي رآها •

وقصة اسماعيل مــع امرأته الأولى والثانية تدل على أنه ينبغي تسريح المــرأة الجاحدة الشاكية ، والبحث عن المــرأة الحامدة الراضية ؛ فأحــوال اسماعيل لم تتبدل ، غير أن الأولى سخطت وشكت فكان مصيرها الطلاق ، والثانية رضيت وشكرت ، فزادها اكراماً واحتراماً •

أما بناء الكعبة فسنراه في الفصل التالي إن شاء الله تعالى •

---

(١) يعني من المصافحة وتقبيل اليد والاعتناق ونحو ذلك •

(٢) أخرجه البخاري /٣٣٦٤/ وقد أخذنا رواياته وشرح عباراته من فتح الباري ج٦ ص ٤٠٠ ــ ٤٠٥ •

١٨ ـ بنــاء البيت

ذكر بناء البيت في ثلاثة مواضع من كتاب الله تعالى :

أولها يتضمن إرشاد ابراهيم إليه والاذن له في بنائه :

« وإذ بوّأنــا[(١)] لابراهيم مكان البيت أن لا تُشرك بي شيئاً وطهر بيتــي[(٢)] للطائفين والقائمين والرّكّع السجود • وأذّن في الناس بالحج[(٣)] يأتوك رجالا[(٤)] وعلى كل ضامر [(٥)] يأتينَ من كل فج عميق »[(٦)] • (سورة الحج ٢٦ ـ ٢٧)

وثانيها ينص على بناء البيت :

وإذ جعلنــا البيت مثابــة[(٧)] للناس وأمنــاً[(٨)] واتخِذوا من مقام[(٩)] ابراهيم مُصلّى وعهِدْنا[(١٠)] إلى ابراهيم واسماعيل أن

---

(١) بوّأ ابراهيم مكان البيت : ارشده إليه ، واعلمه مكانه ، وأذن له في بنائه ، وجعل مكانه مرجعاً يرجع إليه للعمارة والعبادة •

(٢) من الشرك والأصنام والأقذار • أي اجعله خالصاً للذين يعبدون الله وحده لا شريك له •

(٣) نادِ فيهم داعياً الى الحج •

(٤) مشاة ، جمع راجل •

(٥) البعير المهزول •

(٦) طريق بعيد •

(٧) مرجعاً ومجمعاً للحجاج والعُمّار ، يأتونه من كــل البلدان ، يتفرقون عنــه ثم يثوبون إليه •

(٨) موضع أمن •

(٩) المقام في اللغة : موضع القدمين • واختلف في تعيينه على أقوال : أصحها أنه الحجر الذي فيه أثر قدميه ، والــذي يصلون عنده ركعتي الطواف ، وقيــل : الحرم كله مقام ابراهيم •

(١٠) أمرناهما وأوحينا إليهما •

طهِّرا بيتي(١) للطائفين والعاكفين(٢) والركع السجود • وإذ قال إبراهيم ربِّ اجعل هذا بلداً آمناً وارزق أهلَه من الثمرات مَنْ آمَن منهم بالله واليوم الآخر قال ومَنْ كفر فأمتِّعُه قليلا ثم أضطرُّه(٣) الى عذاب النار وبئس المصير • وإذ يرفع إبراهيم القواعد(٤) من البيت واسماعيل ربنا تقبَّل منا إنك أنت السميع العليم » • (سورة البقرة ١٢٥ ـ ١٢٧)

وثالثها يشير الى ما في البيت من الآيات ويبين وجوب الحج إليه :

« إنَّ أوَّل بيت وُضِع للناس(٥) للذي ببكة(٦) مباركاً وهدى للعالمين • فيه آيات بينات مقام ابراهيم ومن دخله كان آمِناً ولله على الناس حِجُ البيت من استطاع إليه سبيلا ومَنْ كَفَرَ فان الله غنيٌّ عن العالمين » • (سورة آل عمران ٩٦ ـ ٩٧)

---

(١) اضافة البيت الى الله اضافة تشريف وتكريم • والمعنى : طهراه من الأوثان والأنجاس والخبائث كلها •

(٢) المقيمين فيه •

(٣) الجئة •

(٤) جمع قاعدة وهي الأساس • ورفع الأساس : البناء عليها •

(٥) جُعل متعبداً لهم •

(٦) بكة من أسماء مكة • وقيل : مكة : البلد ، وبكة : البيت والمسجد • وقيل : سميت بذلك لأنها تبك أعناق الظلمة والجبابرة ، أي تدقها ، لم يقصدها جبار إلا قصمه الله • وقيل : لأن الناس يتباكون فيها أي يزدحمون • وربما سميت باسم البيت الذي بني فيها ؛ لأن البك والبكة كانا يطلقان على البيت في اللغة السامية الأولى • ومنها بعلبك : بمعنى بيت البعل • (تفسير ابن كثير ج١ ص ٣٨٣ ، تفسير النسفي ج١ ص ١٦٧ ، ابراهيم أبو الأنبياء للعقاد ص ٣٠٤) •

وليس معنى « أول بيت وضع للناس » أنه لم تكن قبله بيوت ، فعن علي ــ رضي الله عنه ــ أنه قال : « كانت البيوت قبله ، ولكنه أول بيت وضع لعبادة الله »[1] .

وقيل : بناه آدم ، « بعث الله جبريل إليه ، فأمره ببناء البيت فبناه ، ثم أمره بالطواف بـه ، وقيل لـه : أنت أول الناس ، وهـذا أول بيت وضـع للناس »[2] .

ولما كان الطوفان رفـع البيت ولم يعـد يُعرف مكانه حتى بـوأه الله لابراهيم ، وأعلمه مكانه[3] . وحين طلب إبراهيم من إسماعيل أن يعينـه في بنائـه حفرا الأرض حتى بلغا أساس آدم ، وشرع إبراهيم يبني ، وإسماعيل يأتي بالحجارة . حتى اذا ارتفع البناء وضعف ابراهيم[4] عن نقل الحجارة ، جاء بحجر المقام فوضعه له ، فقام عليه ، فكان ابراهيم يبني ، واسماعيل يناوله الحجارة وهما يقولان :

« ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم » .

(سورة البقرة ١٢٧)

فلما بلغا مكان الركن قال ابراهيم : يا بني ! اطلب لي حجراً حسناً أضعه ها هنا . فانطلق الى الوادي يطلب له حجراً . وجـاءه جبريل بالحجر الأسود فوضعه مكانه .

ولما جاء اسماعيل قال : يا أبتِ من جاءك بهذا ؟ قال: من لم يكلني إليك ولا الى حجرك . وبنياه بحجارة بعضها على بعض . ولم يجعلا له سقفاً .

---

(١) أخرجه اسحق بن راهوية وابن أبي حاتم وابن جرير .
(٢) رواه البيهقي عن عبد الله بن عمرو مرفوعاً .
(٣) رواه ابن أبي حاتم من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص .
(٤) كان قد جاوز المائة من عمره .

روى الفاكهي عن ابن عباس قال : « والله ما بنياه بقَصّة[1] ولا مَدَر ، ولا كان لهما من السَّعة والأعوان ما يسقفانه » .

وكان عرضه في الأرض — يعني دوره — ثلاثين ذراعاً ، وطوله في السماء تسعة أذلاع . وجعلا له باباً .

وبعد أن فرغ ابراهيم من البناء أمره الله بأن يدعو الناس الى الحج . وذكر أنه قال : يا رب : كيف أبلغ الناس وصوتي لا ينفذهم ؟ فقال نادِ وعلينا البلاغ . فقام على مقامه ، وقيل على الصفا ، وقيل على جبل أبي قبيس وقال : يا أيها الناس : إن ربكم قد اتخذ بيتاً فحجوه . فيقال : ان صوته بلغ أرجاء الأرض ، وأسمع من في الأرحام والأصلاب ، وأجابه كل شيء سمعه ومن كُتب له أن يحج الى يوم القيامة بقوله : لبيك اللهم لبيك .

وجاء جبريل وأراه المناسك كلها ، فوقف ابراهيم واسماعيل تلك المواقف . ثم رجع إبراهيم الى الشام . وحجه اسحق وسارة . ثم توفيت بعد عودتها[2] .

أما الدعاء الذي كان يدعوه ابراهيم فهو موضوع الفصل التالي[3] .

---

(١) القصّة : الجِص . المدر : الطين .

(٢) ماتت في قرية أوبع التي هي حبرُون في أرض كنعان في موضع مدينة الخليل الآن ، وهي في السابعة والعشرين بعد المائة .

(تاريخ الطبري ج١ ص ٣١٢ ، الاصحاح الثالث والعشرون)

(٣) تفسير النسفي ج١ ص ٧٠ ، ١٦ ، تفسير ابن كثير ج١ ص ١٦٨ — ١٧٩ ، ٣٨٣ — ٣٨٤ ، ج٣ ص ٢١٥ — ٢١٦ ، فتح الباري ج٦ ص ٤٠٢ ، ٤٠٦ .

١٩ ـ دعاء ابراهيم

الدعاء من أعظم العبادة،عن النبي ﷺ قال : « الدعاء هو العبادة»ثم قرأ. « وقال ربكم ادعوني أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين[١] ») و « الدعاء مخ العبادة[٢] » . ودعاء إبراهيم ـ عليه السلام ـ يكشف عن شفافية نفسه ورقة قلبه ، وخشيته من الله ، وقربه إليه :

١ ـ دعا ربه أن يرزقه غلاماً صالحاً فاستجيب له :

« ربِّ هب لي من الصالحين ، فبشرناه بغلام حليم » .

(سورة الصافات ١٠٠ ـ ١٠١)

٢ ـ دعا ربه أن يهبه الحكمة ويلحقه بالصالحين ، وأن يجعل له ذكراً جميلا من بعده ، وأن يجنبه الخزي يوم القيامة ، ويدخله الجنة :

« ربِّ هب لي حُكْماً[٣] وألحِقْني بالصالحين[٤] . واجعل لي لسان صدق في الآخرين[٥] . واجعلني من ورثة جنة النعيم[٦] . واغفر لأبي[٧] إنه كان من الضالين . ولا تُخزني يوم يُبْعَثُون . يوم لا ينفع مالٌ ولا بنون . إلا من أتى الله بقلب سليم[٨] .

(سورة الشعراء ٨٣ ـ ٨٩)

---

(١) صاغرين . والآية من سورة غافر : ٦٠ والحديث أخرجه الأربعة عن النعمان ابن بشير وصححه الترمذي والحاكم .

(٢) أخرجه الترمذي من حديث أنس رفعه .

(٣) حِكمة ، أو حكماً بين الناس بالحق ، أو نبوة . (٤) اي الأنبياء .

(٥) ثناء حسناً وذكراً جميلا في الأمم التي تجيء بعدي . (٦) الباقين فيها .

(٧) انظر استغفاره لأبيه ص ٩٤ . (٨) خال من الكفر والنفاق .

فآتاه الله الحكمة والهداية :

« ولقد آتينا ابراهيم رُشدَهُ من قبل وكنا به عالمين » .

(سورة الأنبياء ٥١)

وجعل أهل كل دين يتولونه ويثنون عليه :

« ووهبنا لهم من رحمتنا وجعلنا لهم لسانَ صدق عَلياً » .

(سورة مريم ٥٠)

وجعله صالحاً في الدنيا والآخرة :

« وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب وآتيناه أجره في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين » .

(سورة العنكبوت ٢٧)

بل جعله إماماً في الهداية والعبادة :

« ووهبنا له اسحاق ويعقوب نافِلة(١) وكلا جعلنا صالحين . وجعلناهم أئِمَّة يهدون بِأمرنا وأوحينا إليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وايتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين .

(سورة الأنبياء ٧٢ ـ ٧٣)

وجعله سليم القلب قوي الايمان حسن الطوية :

« وإنَّ من شيعتهِ لابراهيم . إذ جاء ربَّه بقلب سليم » .

(سورة الصافات ٨٣ ـ ٨٤)

٣ ـ ودعا للبيت الحرام وأهله بالأمن والرزق،ولذريته بالإسلام والهداية وان يبعث فيهم أنبياء :

---

(١) أي زيادة وفضلا من غير سؤال . سأله ولداً فاعطي اسحق ، واعطي يعقوب بن اسحق نافلة .

« وإذَ ابتلى ابراهيمَ رَبُّهُ بكلمات(١) فأتمهن(٢) قال إني جاعلك للناس إماماً قال ومن ذُرِّيتي(٣) قال لا ينال عهدي الظالمين(٤) • وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمناً واتخِذُوا من مقام ابراهيم مُصلّى وعَهِدْنا الى ابراهيم واسماعيل أن طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود •

« وإذ قال ابراهيم ربِّ اجعل هذا بلداً آمنا وارزُق أهْلَهُ من الثمرات مَنْ آمَنَ منهم بالله واليوم الآخر قال ومَنْ كفر فأُمتِّعُهُ قليلا ثم اضْطرُّه الى عذاب النار وبئس المصير •

« وإذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيلُ ربنا تَقبَّل منا إنك أنت السميع العليم • ربنا واجعلنا مسلِمَين(٥) لك ومن ذريتنا أُمَّة مسلمة لك وأرِنا مناسكنا (٦) وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم •

---

(١) اختبره بأوامر ونواه • والاختبار منا لظهور مالم نعلم ، ومن الله لاظهار ما قد علم • والمقصود بالكلمات ، صبره على القائه في النار وفراق قومه ، وما ابتلي به من ذبح ابنه وبناء البيت ، وغير ذلك من الأوامر والتكاليف •

(٢) قام بهن حق القيام وأداهن أحسن التأدية • وقد شهد الله له بذلك في قوله : « وابراهيم الذي وفىّ » (النجم : ٣٧)

(٣) أي : واجعل من ذريتي اماماً يقتدى به • وذرية الرجل : أولاده من ذكور وإناث •

(٤) أي لا تصيب الامامة أهل الظلم من ولدك •

(٥) مخلصين لك ، زدنا إخلاصاً واذعاناً لك •

(٦) جمع منسك، وأصل النسك في اللغة : الغسل ، يقال : نسك ثوبه إذا غسله،وهو في الشرع اسم للعبادة ، واختلف العلماء في المراد المناسك : فقيل : معالم الحج وشعائره ، وقيل مواضع الذبح ، وقيل : جميع المتعبدات • وقيل للعابدناسك• (الجامع لأحكام القرآن ــ القرطبي ج٢ ص ١٢٨)

ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلوا عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة[١] ويزكيهم[٢] إنك أنت العزيز الحكيم » .

(سورة البقرة ١٢٤ ـ ١٢٩)

فاستجاب الله دعاءه ، فجعل الأمن والسلم حول البيت ، بينما كان الغزو والخوف في أنحاء جزيرة العرب :

« أوَلم يروا أنا جعلنا حرَماً آمنا ويُتخطَّفُ الناسُ من حولهم أفَبِالباطل يؤمنون وبنعمة الله يكفرون » .

(سورة العنكبوت ٦٧)

وكان الرجل يلقى قاتل أبيه أو أخيه فيه فلا يعرض له .

وجعل في ذريته أنبياء ، وأنزل عليهم الكتب :

« ولقد أرسلنا نوحاً وابراهيم وجعلنا في ذريتهما النبوة والكتاب فمنهم مهتد وكثيرٌ منهم فاسقون » .

(سورة الحديد ٢٦)

بل جعل الرسل متتابعين من ذريته حتى عيسى عليه السلام :

« ثم أرسلنا رُسُلَنا تَتْرا [٣] » .

(سورة المؤمنون ٤٤)

فلما بعث عيسى بشر برسول الله ﷺ ، وقد سأل أبو أمامة رسول الله ﷺ : يا رسول الله ! ما كان أول بدء أمرك ؟

---

(١) القرآن والسنة ، أو الفهم في الدين .

(٢) يطهرهم من الشرك وسائر الأرجاس .

(٣) أي متتابعين واحداً بعد واحد . والأصل « وترى » من الوتر وهو الفرد ، فقلبت الواو تاء .

فقال : « دعوة أبي إبراهيم ، وبشرى عيسى بي ، ورأت أمي أنه خرج منها نور أضاء له قصور الشام[1] » • (أخرجه أحمد)

٤ ــ وكانت العقيدة والعبادة أهم ما يدعو به ، وكان دعاؤه مصحوباً بحمد الله على نعمه وتفضله بالقبول :

« وإذ قال ابراهيم ربِّ اجعل هذا البلد آمناً واجنُبني[2] وبنيَّ أن نعبدَ الأصنام ربِّ إنهن أضللنَ كثيراً من الناس فمن تَبِعني فانه مني ومن عصاني فانك غفور رحيم • ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غيرِ ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم[3] وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون • ربنا إنك تعلم ما نخفي وما نعلن وما يخفى على الله من شيء في الأرض ولا في السماء • الحمد لله الذي وهب لي على الكبَرِ اسماعيل وإسحاق إن ربي لسميع الدعاء • رَبِّ اجعلني مقيم الصلاة ومن ذريتي ربنا وتَقَبَّل دُعاءِ • ربنا اغفر لي ولوالدي[4] وللمؤمنين يوم يقوم الحساب » •

(سورة ابراهيم ٣٥ ــ ٤١)

---

(١) قيل : كان ذلك مناماً رأته حين حملت به ، وقصته على قومها ، فشاع فيهم واستقر بينهم •وتخصيص الشام بظهور نوره اشارة الى استقرار دينه ببلاد الشام • (تفسير ابن كثير ج١ ص ١٦٤ ــ ١٨٤)

(٢) وبعدني ، أي ثبتني وادمني على اجتناب عبادتها •

(٣) تسرع إليهم من البلاد الشاسعة ، وتطير نحوهم شوقاً •

(٤) كان ابراهيم النخعي يقرأ : « ولولديَّ » يعني ابنيه • وكذلك قرأ يحي بن يعمر • الجامع لأحكام القرآن ج٩ ص ٣٧٥) ويقوي هذه القراءة ان الآيات السابقة تضمنت ذكر ولديه وذريته • وعلى هذا فليس في الآية دعاء لوالديه، ولذا لم ندرجها في فصل استغفار ابراهيم لأبيه • والذين قرؤوا : « ولوالديَّ » قالوا : كان استغفاره لهما قبل أن يتبين له أن اباه عدو لله ، أو إن ذلك الاستغفار يرجع الى آدم وحواء عليهما السلام •

وفي هذا الدعاء تبدو سمة إبراهيم العطوف الرحيم الضارع الخاشع الذاكر الشاكر ، فهو يدعو ربه أن يجنبه عبادة الأصنام التي افتتن بها كثير من الناس في جيله وفي الأجيال التي قبله . ولم يطلب الهلاك لمن يعصيه من نسله ، ولا يستعجل لهم العذاب ، وإنما يكلهم الى غفران الله ورحمته . ويحدد الهدف من السكنى بجوار البيت الحرام بإقامة الصلاة . ويدعو بالرزق لأهل البيت لا ليأكلوا ويستمتعوا فحسب ، ولكن ليشكروا الله ويحمدوه . ويلهج لسانه بالحمد لله الذي وهبه اسماعيل واسحاق ، ويسأل الله العون على إقامة الصلاة كما يسأله أن يعين ذريته على اقامتها . ويختم دعاءه بطلب المغفرة له وللمؤمنين أجمعين[1] .

وبذلك أصبح إبراهيم إماماً في الهدى ، وأصبحت ملته واجبة الاتباع .

---

(١) في ظلال القرآن ج٤ ص ٢١٠٩ ــ ٢١١٠ .

٢٠ ـ امامة إبراهيم وملته :

لما كان بنو إسرائيل من نسل إبراهيم ـ عليه السلام ـ وكان النصارى ينتمون إليه أيضاً ، وكان مشركو مكة يزعمون أنهم أحق به من غيرهم ، لأنهم ورثوا البيت الذي بناه . وكانت كل طائفة من هؤلاء تدعي أنها صاحبة الحق في إبراهيم ، وانها تقتدي به وتسير على نهجه وتتبع ملته ؛ لهذا كثرت الآيات التي تبين حقيقة إبراهيم عليه السلام ، وتميز بين أتباعه الحقيقيين وبين الذين ضلوا عن طريقه ، وهم يحسبون أنهم يسيرون خلفه ويتبعون ملته . فهي :

١ ـ ترد على أهل الكتاب ادعاء اليهودية والنصرانية على إبراهيم وأولاده بأنهم جاهلون ظالمون كاتمون للحقيقة :

« أم تقولون إنَّ ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والأسْبَاط[1] كانوا هُوداً أو نصارى قل ءَأنتم أعْلَمُ أمِ الله ومن أظلمُ ممن كتم شهادة عنده من الله وما الله بغافل عما تعملون ».

(سورة البقرة ١٤٠)

٢ ـ تفند زعم أهل الكتاب ان إبراهيم كان منهم ، وتكشف عن حقيقته ، وتبين أقرب الناس منه :

« يا أهل الكتاب لِمَ تُحاجّون في إبراهيم وما أُنزلت التوراةُ والانجيلُ إلا من بعده أفَلا تعقِلون . هاأنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم فَلِمَ تحاجون فيما ليس لكم به علم والله يعلم وأنتم لا تعلمون . ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً[2] مسلما وما كان من المشركين . إن أولى الناس بابراهيم لَلّذينَ اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله وليُّ المؤمنين » .

(سورة آل عمران ٦٥ ـ ٦٨)

---

(١) الاسباط : حفدة يعقوب ، ذراري ابنائه الاثني عشر .

(٢) الحنيف : المائل عن كل دين باطل الى دين الحق .

فكيف يكون إبراهيم على دين حدث بعد عهده بأزمنة متطاولة • وهل يَعقل من يزعم أن السابق على دين اللاحق ويجادل بغير علم ؟ ولو أن اليهود والنصارى تحاجوا بما في أيديهم منه علم مما يتعلق بأديانهم التي شرعت لهم لكان أولى بهم ، وإنما تكلموا فيما لا يعلمون •

عن ابن عباس ــ رضي الله عنهما ــ قال: اجتمعت نصارى نجران وأحبار يهود عند رسول الله ﷺ، فتنازعوا عنده • فقالت الأحبار : ما كان إبراهيم إلا يهودياً • وقالت النصارى : ما كان إبراهيم إلا نصرانياً • فأنزل الله تعالى : « يا أهل الكتاب لم تحاجون في إبراهيم ••• » • الآية •

فابراهيم ــ عليه السلام ــ كان متحنفاً عن الشرك، قاصداً إلى الإيمان • وان أحق الناس بمتابعته الذين اتبعوه على دينه ومحمد ﷺ والذين آمنوا •

عن ابن مسعود ــ رضي الله عنه ــ أن رسول الله ﷺ قال :

« لكل نبي ولاة من النبيين ، وإن وليّ منهم أبي وخليل ربي عز وجل ، ثم قــرأ :

« إن أولى الناس بابراهيم للذين اتبعوه •• » الآية(١) •

٣ ــ تبين أن الله اجتبى إبراهيم وهداه الى طريق الحق ، وجعله إمامــاً يؤمه الناس ليأخذوا منه الخير :

« إنّ ابراهيم كــان أُمّةً(٢) قانتاً لله(٣) حنيفا ولــم يكُ من المشركين • شاكراً لأنْعُـمِـهِ إجتباهُ(٤) وهداهُ الى صراط مستقيم •

---

(١) رواه البزار والترمذي •

(٢) كان وحده أمة من الأمم لكماله في جميع صفات الخير ، فما تفسرق في الناس من خلال حميدة وخلق كريم اجتمع لــه • وكان إماماً يتبعه الناس • وعــن مجاهد : كان مؤمناً وحده ، والناس كلهم كفار •

(٣) قائماً بما أمره الله •

(٤) اختصه واصطفاه للنبوة •

وآتيناه في الدنيا حسنة وإنه في الآخرة لمن الصالحين • ثم أوحينا إليك أن اتّبع ملة ابراهيم حنيفاً وما كان من المشركين » •

(سورة النحل ١٢٠ ـ ١٢٣)

٤ ـ وهدى محمداً ﷺ الى ملته :

« قل انني هداني ربي الى صراط مستقيم دينا قيماً[1] ملّة ابراهيم حنيفاً وما كان من المشركين » •

(سورة الأنعام ١٦١)

٥ ـ وأمر باتباعه :

« قل صدق الله فاتبعوا ملّة ابراهيم حنيفاً وما كان من المشركين » •

(سورة آل عمران ٩٥)

٦ ـ فالمتبعون له هم المؤمنون المخلصون لله :

« وقالوا كونوا هوداً أو نصارى[2] تهتدوا قل بل ملّة ابراهيم حنيفاً وماكان من المشركين • قولوا آمنا بالله وما أُنزل إلينا وما أُنزل إلى ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والأسباط وما أُوتيَ موسى وعيسى وما أُوتيَ النبيون من ربهم لا نُفرّق بين أحد منهم ونحن له مسلمون » •

(سورة البقرة ١٣٥ ـ ١٣٦)

٧ ـ وملة إبراهيم سمحة لا حرج فيها :

« وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجْتباكُمْ[3] وما جعل عليكم

---

(١) أي قائما ثابتا •

(٢) أي قالت اليهود : كونوا هودا ، وقالت النصارى : كونوا نصارى •

(٣) اختاركم لدينه ، وفضلكم على سائر الأمم •

في الدين من حَرَجٍ[1] ملة أبيكم[2] ابراهيم هو سَمَّاكُمُ المسلمين من قبلُ وفي هـذا[3] ليكون الرسول شهيـداً[4] عليكم وتكونوا شهداء على الناس[5] » · (سورة الحج ٧٨)

٨ ـ ودينه من أحسن الأديان :

« ومَن أحسنُ ديناً ممن أسلم وجهه لله[6] وهو محسن[7] واتَّبعَ ملة ابراهيم حنيفاً » · (سورة النساء ١٢٥)

٩ ـ ولا يحيد عنه إلا سفيه جاهل :

« ومَنْ يَرْغبُ عن ملة ابراهيم الا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ[8] ولقد اصطفيناه[9] في الدنيا وإنه في الآخرة لَمِنَ الصالحين ·

---

(١) ضيق · قال ﷺ : « بعثت بالحنيفية السمحة » رواه الخطيب عن جابر ·

(٢) سماه أباً وان لم يكن أباً للأمة كلها لأنه أبو رسول الله ﷺ ، فكان أباً لأمته ، لأن أمة الرسول في حكم أولاده · قال عليه الصلاة والسلام : « أنا لكم بمنزلة الوالد ، أعلمكم ، فإذا أتى أحدكم الغائط فلا يستقبل القبلة ولا يستدبرها »· (أخرجه أحمد وأبو داود والنسائي وابن ماجه وابن حبان عن أبي هريرة وهو صحيح) ·

(٣) أي أن الله سماكم المسلمين في الكتب المتقدمة وفي القرآن · قال ﷺ : « فادعوا المسلمين باسمائهم على ما سماهم الله عز وجل المسلمين المؤمنين عباد الله » · (أخرجه أحمد عن الحارث الأشعري)

(٤) أنه قد بلغكم رسالة ربكم ·

(٥) بتبليغ الرسل رسالات الله إليهم ·

(٦) أخلص نفسه لله ، وجعلها سالمة له ، لا تعرف لها رباً ولا معبوداً سواه ·

(٧) عامل للحسنات ·

(٨) أي امتهنها واستخف بها ·

(٩) اخترناه للرسالة ، فجعلناه صافياً من الأدناس ·

إذ قال له ربُّه أسلمْ قال أسلمت لرب العالمين • ووصَّى بها(١) ابراهيم بنيه ويعقوبُ(٢) يا بَنيَّ إنَّ الله اصطفى لكم الدين فلا تموتُنَّ إلاَّ وأنتم مسلمون • أم كنتم شهداءَ إذ حضر يعقوبَ الموتُ إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي قالوا نعبد إلهَكَ وإلهَ آبائكَ ابراهيم واسماعيل(٣) واسحاق إلَهاً واحداً ونحن له مسلمون » •

(سورة البقرة ١٣٠ ـ ١٣٣)

١٠ ـ وقد شهد الله ليوسف ـ عليه السلام ـ باتباع هذه الملة :

« واتبعت ملة آبائي ابراهيم واسحاق ويعقوب » •

(سورة يوسف ٣٨)

١١ ـ وجعل إبراهيم واسحاق ويعقوب قادة وأئمة يهتدى بهم :

« وجعلناهم أئِمَّةً يهدُون بِأمرنا وأوحينا إليهم فعل الخيرات وإقامَ الصَّلاةِ وإيتاءَ الزكاة وكانوا لنا عابدين » •

(سورة الأنبياء ٧٣)

١٢ ـ وجعل الأنبياء من ذريته أعلام هداية وقدوة حسنة :

« أولئك الذين هدى الله فبهداهم(٤) اقتده(٥) » •

(سورة الأنعام ٩٠)

ولكن هل أنزل على إبراهيم شيء يبين ملته والشرائع التي كان يتعبد الله بها ؟

---

(١) بالملة ، أو بالكلمة وهي : « أسلمت لرب العالمين » •

(٢) قرأ بعض السلف : « ويعقوب » بالنصب عطفاً على بنيه ، أي أن ابراهيم وصى بنيه وابن ابنه يعقوب الذي ولد في حياته •

(٣) اسماعيل عم لأولاد يعقوب ، وجعله من جملة آبائهم لأن العم أب • قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ في عمه العباس : « من آذى عمي فقد آذاني ، انما عم الرجل صنو أبيه » • (أخرجه الترمذي وقال : حسن صحيح) •

(٤) المراد بهداهم طريقتهم في الإيمان بالله وتوحيده ، وأصول الدين •

(٥) الهاء للوقف •

٢١ ــ صحف إبراهيم :

إن إبراهيم رسول الله ، أنزل عليه الوحي كما أنزل على نوح والنبيين :

« إنا أوحينا إليك كما أوحينا الى نوح والنبيين من بعده وأوحينا إلى ابراهيمَ واسماعيلَ واسحاقَ ويعقوبَ والأسباطِ وعيسى وأيّوبَ ويُونُسَ وهارونَ وسُلَيمان وآتينا داود زَبُورا » .

(سورة النساء ١٦٣)

وجعل الله في الأسباط الذين هم ذرية إبراهيم النبوة وأنزل عليهم الكتاب:

« أمْ يَحْسُدُون[١] الناسَ على ما آتاهم اللهُ من فَضْلِهِ فقد آتينا آل ابراهيم الكتاب والحِكْمَةَ وآتيناهم مُلْكاً عظيماً » .

(سورة النساء ٥٤)

ولا يصح ايمان من ينكر نزول الوحي على إبراهيم عليه السلام :

« قل آمنا[٢] بالله وما أُنزِل علينا وما أنزل على ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والأسباطِ وما أوتي موسى وعيسى والنبيون من ربهم لا نُفَرِّقُ بين أحد منهم ونحن له مسلمون » .

(سورة آل عمران ٨٤)

فقد أنزل عليه عشر صحائف[٣]. وهي تحذر من الظلم، وتحث على عبادة الله والتفكير في خلقه ، وعلى محاسبة النفس والتزود للآخرة :

عن أبي ذر الغفاري قال : قلت يا رسول الله ! كم كتاباً أنزل الله تعالى ؟ قال : مائة صحيفة وأربعة كتب :

---

(١) المعنيون هم أهل الكتاب الذين كفروا برسول الله ﷺ حسداً على ما آتاه الله

(٢) أمر رسول الله ﷺ بأن يخبر عن نفسه وعمن معه بالايمان .

(٣) تاريخ الطبري ج١ ص ٣١٣ . قصص الأنبياء للثعلبي ص ٨٧

على آدم عشر صحائف ، وعلى شيث خمسين صحيفة ، وعلى ادريس ثلاثين صحيفة ، وعلى إبراهيم عشر صحائف. وأنزل التوراة والانجيل والزبور والفرقان .

قال : فقلت : فما كانت صحف إبراهيم ؟

قال : كانت أمثالا كلها : أيها الملك المبتلى المسلط المغرور !

إني لم أبعثك لتجمع الدنيا بعضها على بعض ، ولكني بعثتك لترد عني دعوة المظلوم ؛ فإني لا أردها ولو كانت من كافر .

وكان فيها أمثال : على العاقل ما لم يكن مغلوباً على عقله أن يكون له أربع ساعات : ساعة يناجي فيها ربه ، وساعة يتفكر فيها في صنع الله تعالى . وساعة يحاسب فيها نفسه على ما قدّم وأخّر . وساعة يخلو فيها لحاجته من الحلال في المطعم والمشرب وغيرهما .

وعلى العاقل أن لا يكون ظاعناً إلا في ثلاث : تزود لمعاد ، ومؤنة لمعاشه ، ولذة في غير محرم . وعلى العاقل أن يكون بصيراً بزمانه مقبلا على شأنه حافظاً للسانه ، ومن علم أن كلامه شر من عمله قل كلامه فيما لا يعنيه[1] والله عن كل محذور يغنيه[2] .

وهي لا تختلف عن كتاب الله القرآن العظيم في مبادئها الأساسية ؛ إذ تنص على مبدأ المسؤولية الفردية ، وجزاء كل واحد على عمله . وتبين أن الله هو الذي يخلق ويحيي ويميت ويرزق ، ويعاقب الظالمين :

« أمْ لم يُنَبَّأ بما في صحف موسى ، وابراهيم الذي وَفَّى[3] . ألاّ تَزِرُ وازرةٌ وِزْرَ أُخرى[4] . وأنْ ليس

(١) عند الطبري : « ومن حسب كلامه من عمله قل كلامه إلا فيما يعنيه » .

(٢) تاريخ الطبري ج١ ص ٣١٣ . قصص الأنبياء للثعلبي ص ٨٧ .

(٣) وفىّ طاعة الله ، وأدى رسالته الى خلقه . وقام بجميع الأوامر ، وترك جميع النواهي . وبلّغ الرسالة على التمام والكمال .

(٤) أي لا تحمل نفس ذنب نفس .

للانسان إلاَّ ما سَعى • وأنَّ سعيه سوف يُرى • ثم يجزاه الجزاء الأوفى • وأنَّ إلى ربك المنتهى • وأنه هو أضحك وأبكى • وأنَّهُ هو أمات وأحيا • وأنَّه خلقَ الزوجينِ الذكرَ والأنثى • من نطفة إذا تُمْنى(١) • وأنَّ عليه النشأة الأخرى(٢) • وأنَّهُ هو أغْنى وأقْنى(٣) • وأنه هو رب الشِّعْرى(٤) • وأنه أهلك عاداً الأولى • وثمودَ فما أبقى • وقوم نوح من قبلُ إنَّهم كانوا هم أظْلَمَ وأطْغى • والمُؤْتَفِكَةَ أهْوى(٥) • فَغَشَّاها ما غَشَّى(٦) • فبأي آلاء ربك تتمارى(٧) • هذا نذيرٌ من النذر الأولى » •

(سورة النجم ٣٦ ــ ٥٦)

كما تنص على ثواب المتعبدين وفضل الآخرة :

« قد أفْلَحَ(٨) من تَزكَّى(٩) • وذكر اسم ربِّه فصلَّى • بل تُؤْثِرُون الحياة الدنيا (١٠) • والأخرة خير وأبقى (١١) إنَّ هذا (١٢) لفي الصحف الأولى • صحف ابراهيم وموسى » •

(سورة الأعلى ١٤ ــ ١٩)

---

(١) تدفق في الرحم • (٢) الإحياء بعد الموت •

(٣) ملَّك عباده المال ، وجعله قنية عندهم لا يخرج من أيديهم •

(٤) كوكب يطلع بعد الجوزاء في شدة الحر ، كانت طائفة من العرب يعبدونه •

(٥) يعني مدائن قوم لوط ، قلبها عليهم فجعل عاليها سافلها •

(٦) ألبسها العذاب ، وأمطر عليها الحجارة •

(٧) أي : ففي أي نعم الله عليك أيها الانسان تمتري وتتشكك •

(٨) نال الفوز •

(٩) تطهر من الشرك ، وطهر نفسه من الأخلاق الرذيلة ، وأدى الزكاة •

(١٠) تقدمونها على أمر الآخرة • (١١) أفضل وأدوم •

(١٢) هذا الكلام المذكور هنا ، أو ما في السورة كلها • وقد اختار ابن جرير الأول ورجحه ابن كثير • (تفسير ابن كثير ج٤ ص ٥٠١ ــ ٥٠٢)

وبذلك يكون من واجب الذي يؤمن بابراهيم ــ عليه السلام ــ ويريد الاقتداء به واتباع ملته أن يعمل بالقرآن الكريم الذي لا يختلف عما نزل على إبراهيم في الكليات العامة، والذي يشمل كل مانحتاج إليه من أحكام وشرائع.

٢٢ ـ الثنــاء على إبراهيــم :

لقد أثنى الله على إبراهيم ـ عليه السلام ـ في بضع عشرة آية ، وأثنى عليه محمد ﷺ في بضعة أحاديث :

١ ـ فالله سبحانه وتعالى ـ اختار آل إبراهيم على سائر أهل الأرض في زمانهـم :

« إنَّ الله اصطفــى[١] آدم ونــوحــاً وآل ابــراهيــم[٢] وآل عِمران[٣] على العالمين[٤] • ذريــة بعضهـا من بعض والله سميــع عليم » • (سورة آل عمران ٣٣ ـ ٣٤)

٢ ـ وجعله هادياً مهدياً :

« ووهبنا لــه[٥]اسحاق ويعقوب كُلا[٦] هدينا ونوحــاً هدينا من قبــلُ ومن ذريتــه[٧] داوُدَ وسُلَيْمان وأيــوبَ ويُوسُفَ وموسى وهارُون وكذلك نجزي المحسنين » •

(سورة الأنعام ٨٤)

---

(١) اختــار

(٢) اسماعيل واسحق وأولادهما • وهذا يشمل ابراهيم من باب أولى ، كما يشمل محمداً ﷺ •

(٣) المراد بعمران هذا والد مريم أم عيسى عليه السلام • وقيل المراد بآل عمران موسى وهارون وهما ابنا عمران • ويرجح الأول مجيء قصة مريم وابنها بعد الآية المذكورة في خمس وعشرين آية •

(٤) على عالمي زمانهم •

(٥) لابراهيم المذكور في الآية السابقة وسنوردها في رقم : ١٢ • ص ١٤٨ •

(٦) أي كلهم : ابراهيم واسحق ويعقوب •

(٧) الضمير لنوح أو ابراهيم • والأنبياء المذكورون في الآية من نسل ابراهيم ونوح عليهما السلام •

٣ ـ وجعل ذكره باقياً في الأمم من بعده ، مصحوباً بالسلام والثناء عليه، لأنه من المؤمنين المحسنين :

« وتركنا عليه في الآخرين • سلام على ابراهيم • كذلك نجزي المحسنين • إنه من عبادنا المؤمنين • وبَشَّرناه باسحاق نبياً من الصالحين • وباركنا عليه وعلى اسحاق ••• » •

(سورة الصافات ١٠٨ ـ ١١٣)

« ووهبنا لهم من رحمتنا وجعلنا لهم لسان صدق عَلِيّاً » •

(سورة مريم ٥٠)

٤ ـ ووصفه بأنه من عباد الله المستبصرين في دينه الخالصين له الخيرين:

« واذكر عبادنا ابراهيم واسحاق ويعقُوب أُولي الأيدي والأبصار(١) • إنا أخلصناهم(٢) بخالصة ذكرى الدار (٣) • وإنهم عندنا لمن المصْطَفَيْنَ(٤) الأخيار(٥) » •

(سورة ص ٤٥ ـ ٤٧)

٥ ـ فهو ممن أنعم الله عليهم من النبيين ، وممن هداهم واصطفاهم ، ومن الخاشعين المتضرعين :

---

(١) أصحاب الأعمال الظاهرة والفكر الباطنة •

(٢) جعلناهم خالصين ، بخصلة خالصة لا شوب فيها •

(٣) الدار هنا : الآخرة • يعني جعلناهم لنا خالصين يذكرون الناس الدار الآخرة ويزهدونهم في الدنيا ، أو يكثرون ذكرى الآخرة والرجوع الى الله ، وينسون ذكرى الدنيا ، ولا يشوبون ذكرى الدار بهم آخر • وقيل : ذكرى الدار : الثناء الجميل في الدنيا ، وهذا شيء قد أخلصهم به ، فليس يذكر غيرهم في الدنيا بمثل ما يذكرونه به • (تفسير النسفي ج٤ ص ٤٢)

(٤) المختارين من ابناء جنسهم •

(٥) جمع خيِّر أو خير ، على التشديد والتخفيف •

« أُولئك(١) الذين أنعمَ الله عليهم من النَّبِيينَ من ذرية آدم وممن حملنا مع نوح ومن ذرية ابراهيم واسرائيلَ (٢) وممن هَدينا واجتبينا اذا تتلى عليهم آيات الرحمن خَرّوا سُجَّداً وبُكِيا(٣) .

(سورة مريم ٥٨)

٦ ــ وهو ممن أتم الله نعمته عليهم :

« ويتم نعمتَه عليك(٤) وعلى آل يعقوب كما أتمها على أبويك من قبل ابراهيم واسحاق إن ربك حكيمٌ عليم » .

(سورة يوسف ٦)

٧ ــ وهو نبي صِدِّيق :

« واذكر في الكتاب إبراهيم إنَّه كان صِدِّيقا نبيا » .

(سورة مريم ٤١)

٨ ــ صالح في الدنيا والآخرة :

« وآتيناه أجرهُ في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين » .

(سورة العنكبوت ٢٧)

« وآتيناه في الدنيا حسنة وإنه في الآخرة لمن الصالحين » .

(سورة النحل ١٢٢)

٩ ــ أوّاه حليم :

---

(١) الأنبياء المذكورون سابقاً وهم : ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب وموسى وهارون وزكريا ويحي وعيسى وادريس عليهم السلام .

(٢) اسرائيل : هو يعقوب عليه السلام ، والذين من ذريته هم موسى وهارون وزكريا ويحي وعيسى .

(٣) باكين رهبة .

(٤) الخطاب ليوسف ــ عليه السلام ــ المذكور قبل آيتين في : (سورة يوسف ٤) .

« إنّ إبراهيم لحليمٌ أوّاه منيب » •

(سورة هود ٧٥)

١٠ ــ سليم القلب :

« إذ جاء ربّه بقلب سليم » •

(سورة الصافات ٨٤)

١١ ــ آتاه الله الرشاد :

« ولقد آتينا إبراهيم رُشْدَهُ من قبلُ وكنا به عالمين » •

(سورة الأنبياء ٥١)

١٢ ــ ورفع مرتبته ودرجته :

« وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم » • (سورة الأنعام ٨٣)

١٣ ــ واتخذه خليلاً :

« واتخذ الله إبراهيم خليلا[1] » •

(سورة النساء ١٢٥)

وإنما سمي خليل الله لشدة محبته لربه عز وجل ، ولما قام به من الطاعة التي يحبها ويرضاها • ولأنه كان يعطي الناس ولا يسألهم شيئاً ، ولإطعامه الطعام وإفشائه السلام وصلاته بالليل والناس نيام[2] •

وقد سئل الرسول ﷺ من أكرم الناس ؟ فقال : « أتقاهم لله » •

قالوا : ليس عن هذا نسألك !

---

(١) الخليل هو الذي يوافقك في خلالك ، أو يداخلك خلال منزلك ، أو يسد خللك• فالخلة صفاء مودة توجب الاختصاص بتخلل الأسرار •

(٢) تفسير ابن كثير ج١ ص ٥٦٠ ، تفسير النسفي ج١ ص ٢٥٠ ــ ٢٥١ •

قال:فأكرم الناس يوسف نبي الله ابن نبي الله ابن نبي الله ابن خليل الله[1]»

وقال ﷺ : «الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم : يوسف بن يعقوب بن اسحاق بن إبراهيم عليه السلام[2] » .

وجاء رجل الى رسول الله ﷺ فقال له : يا خير البرية !

فقال رسول الله ﷺ : « ذاك إبراهيم خليل الله[3] » .

وإنما قال ذلك تواضعاً منه ﷺ ، لأن إبراهيم سيد الأنبياء بعد نبينا محمد ﷺ[4] .

وقد التقى به رسول الله ﷺ ليلة الإسراء في السماء السابعة . جاء في حديث الإسراء قوله :

« فلما خلصت فاذا إبراهيم . قال : هذا أبوك فسلم عليه . قال : فسلمت عليه ، فرد السلام ثم قال : مرحباً بالابن الصالح والنبي الصالح[5] ».

وفي حديث أبي سعيد عند البيهقي : « ثم صعدت الى السماء السابعة ، فاذا أنا بابراهيم خليل الرحمن مسنداً ظهره الى البيت المعمور كأحسن الرجال».

وفي حديث أبي هريرة عند الطبري : « فاذا هو برجل أشمط جالس عند باب الجنة على كرسي[6] » .

---

(١) رواه الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه (خ ٣٣٨٣) .

(٢) متفق عليه عن ابن عمر رضي الله عنهما (خ ٣٣٨٢ ، ٣٣٩٠) .

(٣) رواه مسلم (٢٣٦٩) وابو داود والترمذي عن أنس بن مالك رضي الله عنه .

(٤) تفسير ابن كثير ج٣ ص ١٢٤ .

(٥) رواه البخاري عن مالك بن صعصعة (٣٨٨٧) .

(٦) تفسير الطبري ج ٨ ص ٨ .

وكل هذه الأحاديث تدل على رفعته وعلو منزلته ، كما يدل على مكانته عند المسلمين ان كل مسلم يذكر اسم إبراهيم أكثر من أربعين مرة كل يوم في صلاته ، وهو يصلي ويبارك عليه وعلى آله حين يقرأ في جلوسه : « اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم ، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد[1] .

وقد استحق إبراهيم ـ عليه السلام ـ كل هذا المديح والثناء والدعاء لأنه قام بكل ما عليه من واجبات على أتم وجه وأكمله ، وقد شهد الله له بذلك في قوله :

« وإبراهيم الذي وفّى » .

(سورة النجم ٣٧)

---

(١) أخرجه البخاري عن كعب بن عجرة (٣٣٧٠).

٢٣ ـ وفـاتـــه :

توفي إبراهيم ـ عليه السلام ـ بعد أن حج ورجـع الى بلاد الشام . ودفن عند قبر زوجه سارة في مزرعة حَبْرون . عاش مائة وخمساً وسبعين سنــة .

وعاش إسماعيل ـ عليه السلام ـ مائة وسبعاً وثلاثين سنة ، ودفن في الحجر جانب الكعبة عند قبر أمه هاجر[1] .

---

(١) تاريخ الطبري ج١ ص ٣١٢ .

خاتمة :

وبعد ، فهذه هي قصة إبراهيم عليه السلام ، وردت في سور عديدة ، وكانت في كل سورة مناسبة لسياقها العام ، وعرض منها ما يتفق مع موضوع السورة وجوها وظلها .

ففي سورة البقرة عرضت حلقة بنائه للبيت هو وإسماعيل ، ودعائه أن يجعل الله البلد الحرام آمناً ، وإعلانه أن وراثة البيت ووراثة بانيه إنما هي للمسلمين الذين يتبعون ملته لا لمن يدّعون وراثته. وكان هذا بصدد مخالفات بني اسرائيل وطردهم ولعنهم ، وتوريث دين إبراهيم وبيته للمسلمين .

وعرضت حلقة محاجته للملك الكافر في صفة الله الذي يحيي ويميت ، والذي يأتي بالشمس من المشرق ، وتحديه للملك أن يأتي بها من المغرب . فبهت الذي كفر . كما عرضت حلقة طلبه من ربه أن يريه كيف يحيي الموتى، وأمره بذبح أربعة من الطير ، وتوزيع أشلائها على الجبال ، ثم احيائها بين يديه ، فجاءت تسعى إليه . وهذا وذاك في معرض الحديث عن آيات الله وقدرته على الاماتة والاحياء .

وفي سورة الأنعام عرضت حلقة بحثه عن ربه واهتدائه إليه بعد تأمل في النجوم والقمر والشمس وتتبع مشاهد الكون . وكان ذلك في السورة التي تدور حول العقيدة وآيات الله في الكون ودلالتها على الصانع المبدع الذي لا شريك له .

وعرضت في سورة هود حلقة تبشيره باسحاق ، وكان ذلك في سياق قصة لوط ، ومرور الملائكة المكلفين تدمير قريته في طريقهم بابراهيم ، وفيها تبدو رعاية الله للمختارين من عباده وتدميره الفاسقين .

وعرضت في سورة إبراهيم حلقة دعائه بجوار البيت الحرام لمن أسكنه

من ذريته بواد غير ذي زرع ، وحمده على أن وهب له على الكبر إسماعيل واسحاق، وطلبه الى ربه أن يجعله مقيم الصلاة هو وذريته ، وأن يقبل دعاءه ، ويغفر له ولوالديه وللمؤمنين يوم يقوم الحساب •• وكان سياق السورة كله هو عرض أمة الرسل ، برسالة واحدة هي التوحيد ، وعرض المكذبين بأمة الرسل صفاً واحداً كذلك، وكأنما الرسالة شجرة ظليلة في هجير الكفر وصحراء الجحود •

وعرضت في سورة الحجر الحلقة التي عرضت في سورة هود مع شيء من التفصيل في صدد ذكر رحمة الله بعباده المؤمنين وعذابه للعصاة المذنبين •

وعرضت في سورة مريم حلقة دعوته في رفق لأبيه ، وغلاظة أبيه عليه ، واعتزاله لأبيه وقومه ، وهبة إسماعيل واسحاق له • وذلك في السورة التي تعرض رعاية الله للمصطفين من عباده ، وجوها كله تظلله الرحمة والود واللين•

وعرضت في سورة الأنبياء حلقة دعوته لأبيه وقومه وزرايته على أصنامهم، وتحطيم هذه الأصنام والقائه في النار التي كانت برداً وسلاماً عليه بأمر الله . ونجاته ولوط الى الأرض المباركة ، وذلك في استعراض أمة الرسل ، ورعاية الله لهذه الأمة ، واتجاهها الى عبادة الله الواحد الذي ليس له شريك •

ووردت في سورة الحج اشارة الى الأمر بتطهير البيت للطائفين والعاكفين•

وفي سورة الشعراء عرضت حلقة الرسالة الى قومه ، وحواره معهم حول العقيدة، وانكار الآلهة المدعاة،والاتجاه بالعبادة الى الله،والتذكير باليوم الآخر• وذلك في السورة التي تهدف الى تكوين عقيدة الايمان بوحدانية الله والخوف من الآخرة ، والتصديق بالوحي المنزل(١) •

وفي سورة العنكبوت التي تتحدث عن حقيقة الايمان وسنة الابتلاء

---

(١) في ظلال القرآن ج٥ ص ٢٥٨٣ ، ٢٦٠٠ ـ ٢٦٠١ •

والفتنة ، وعن تكاليف الايمان واقتضائه الصبر على المكار ، وتدعو الى الهجرة فراراً من الفتنة ، وتبين مصير المؤمنين والكافرين ، عرضت حلقة انكاره على قومه عبادة الأصنام ، فبينت حقيقة الدعوة وفساد ما هم عليــه من عقيدة ، والحكم عليه بالتحريق في النار ، ونجاته ثم هجرته والتعويض عليه باسحاق ويعقوب •

وفي سورة الصافات التي تستهدف بناء العقيدة في النفوس وتخليصها من من شوائب الشرك في كل صوره وأشكاله عرضت حلقة دعوته قومه وتحطيم الأصنام وهمهم به ليقتلوه ، ونجاته من كيدهم ، وتبرز فيها قصة الرؤيــا والذبح والفداء مما يدل على الطاعة والاستسلام لله •

وسورة الذاريات التي تستهدف ربط القلب البشري بالسماء ، وتعليقه بغيب الله المكنون ، واطلاقه من كل عائق يحول بينه وبين التجرد لعبادة الله ؛ وتعنى بتطمين النفس على الرزق ، عرضت قصته وهو يقري ضيوفه بمــا يدل على جوده وسخائه ، وتبشيره بغلام عليم على غير توقع وانتظار •

وكل ذلك يدل على تحقيق القصة للغرض الديني منها في كل مرة وكل حلقة تعرض فيها •

الجزء الثالث

موسى ﷺ

عليه السلام
كليم الله
وأول أنبياء بني إسرائيل

تمهيـــــد

ذكر موسى[1] ــ عليه السـلام ــ في كتـاب الله مائة وثلاث وثلاثين مرة في ثلاث وثلاثين سورة • وهذه أرقام السور والآيات التي تضمنت اسمه لمن شاء الرجوع إليها :

السورة	رقمها	أرقـام الآيـات	السورة	رقمها	أرقـام الآيـات
البقرة	٢	٥١ ، ٥٣ ، ٥٤ ،	الأنبياء	٢١	٤٨
		٥٥ ، ٦٠ ، ٦١ ،	الحج	٢٢	٤٤
		٦٧ ، ٨٧ ، ٩٢ ،	المؤمنون	٢٣	٤٥ ، ٤٩
		١٠٨، ١٣٦، ٢٤٦،	الفرقان	٢٥	٣٥
		٢٤٨	الشعراء	٢٦	١٠، ٤٣، ٤٥، ٤٨،
آل عمران	٣	٨٤			٥٢ ، ٦١ ، ٦٣ ،
النساء	٤	١٥٣ ، ١٦٤			٦٥
المائدة	٥	٢٠ ، ٢٢ ، ٢٤	النمل	٢٧	٧ ، ٩ ، ١٠
الأنعام	٦	٨٤ ، ٩١ ، ١٥٤	القصص	٢٨	٣ ، ٧ ، ١٠ ، ١٥ ،
الأعراف	٧	١٠٢، ١٠٣، ١١٥،			١٨ ، ١٩ ، ٢٠ ،
		١١٧، ١٢٢، ١٢٧،			٢٩ ، ٣٠ ، ٣١ ،
		١٢٨، ١٣١، ١٣٤،			٣٦ ، ٣٧ ، ٣٨ ،
		١٣٨، ١٤٢، ١٤٣،			٤٣ ، ٤٤ ، ٤٨ ،
		١٤٤، ١٤٨، ١٥٠،			٧٦
		١٥٤، ١٥٩، ١٦٠	العنكبوت	٢٩	٣٩
يونس	١٠	٧٥ ، ٧٧ ، ٨٠ ،	الأحزاب	٣٣	٧ ، ٦٩
		٨١ ، ٨٣ ، ٨٤ ،	الصافات	٣٧	١١٤ ، ١٢٠
		٨٧ ، ٨٨	غافـر	٤٠	٢٣، ٢٦، ٢٧، ٣٧، ٥٣
هود	١١	١٧ ، ٩٦ ، ١١٠	فصلت	٤١	٤٥
ابراهيم	١٤	٥ ، ٦ ، ٨	الشورى	٤٢	١٣
الاسراء	١٧	٢ ، ١٠١	الزخرف	٤٣	٤٦
الكهف	١٨	٦٠ ، ٦٦	الأحقاف	٤٦	١٢ ، ٣٠
مريـم	١٩	٥١	الذاريات	٥١	٣٨
طـه	٢٠	٩، ١١ ، ١٧ ، ١٩،	النجم	٥٣	٣٦
		٣٦ ، ٤٠ ، ٤٩ ،	الصف	٦١	٥
		٥٧ ، ٦١ ، ٦٥ ،	النازعات	٧٩	١٥
		٦٧ ، ٧٠ ، ٧٧ ،	الأعلى	٨٧	١٩
		٨٣، ٨٦، ٨٨، ٩١			

(١) هو موسى بن عمران بن لاهب بن عـازر بن لاوى بن يعقوب عليـه السلام ولا اختلاف في نسبه (فتح الباري جـ٦ ص ٤٢٢)

ولم يتكرر اسم رسول في القرآن الكريم بمثل هذا العدد غيره • وهذا يدل على مكانته العالية،وعلى جهاده الشاق الطويل،وعلى أنه قدوة للمجاهدين والدعاة الى الله •

فقد أرسل الى أعتى ملوك الأرض في زمانه وأقدمهم عرشاً وأثبتهم ملكاً وأعرقهم حضارة وأشدهم استعباداً للخلق واستعلاء على الناس •

وأرسل لانقاذ قوم شربوا من كؤوس الذل حتى استمرؤوا مذاقه • والذل يفسد الفطرة حتى تأسن وتتعفن ، ويذهب بما فيها من الخير والجمال؛ قوم لهم عقيدة قديمة انحرفوا عنها ، وبهتت صورتها في قلوبهم، وعادت شكلاً لا روح فيه•ومعالجة مثل هذه القلوب شاقةعسيرة،والالتواءاتفيها والرواسب والانحرافات تزيد المهمة مشقة وعسراً •

أرسل لاعادة بناء أمة بل لإنشائها من الأساس • وانشاء الأمم عمل ضخم شاق عسير[1] •

---

(١) في ظلال القرآن ص ٢٦٩٠ •

١ ـ ولادتـه ورضاعـه

انتقل بنو اسرائيل[١] الى مصر حين كان أخوهم يوسف ـ عليه السلام أميناً على خزائنها وعزيزاً فيها. ثم توفي يوسف، وتكاثر بنو اسرائيل،فأصبحوا يُظلمون ويُسخرون في الأعمال المهينة الشاقة ، لأنهم ينكرون ألوهية فرعون والوثنية الفرعونية،ويدينون بدين جدهم إبراهيم وأبيهم يعقوب عليهما السلام.

وكان الله قد بشر إبراهيم ـ عليه السلام ـ حين صادر الجبار امرأته سارة أنه سيولد من صلبه مَن يكون هلاك مصر على يديه.فكان بنو اسرائيل يشيعون هذه البشارة كلما وقع ظلم عليهم . وتلقاها القبط منهم ، وتحدثوا بها عند فرعون . ويقال : إن فرعون رأى كأن ناراً أقبلت مـن بيت المقدس فأحرقت دور مصر وجميع القبط إلا دور بني اسرائيل ، فلما استيقظ جمع الكهنة والسحرة فقالوا : هذا غلام يولد من هؤلاء يكون خراب مصر على يـده[٢] .

فأمر فرعون بقتل ذكور بني إسرائيل ، وأعد رجالاً لذلك وقوابل يدرن على النساء ، فمن رأينها قد حملت أحصوا اسمها ، فإن ولدت جارية تركنها وذهبن ، وإن ولدت غلاماً دخل الرجال الذباحون فقتلوه ومضوا .

فجعل الله ـ سبحانه وتعالى ـ موسى يولد ويربى على نحو عجيب يدل على قدرة الله وعنايته ، وهذه الآيات تصور ولادته وارضاعه :

---

(١) اسرائيل هو لقب يعقوب بن اسحاق بن ابراهيم عليهم السلام .
ومعناه في لسانهم صفوة الله أو عبد الله .

(٢) تاريخ الطبري ج١ ص ٣٨٨ ، الكامل لابن الأثير ج١ ص ١٧٠ ، تفسير ابن كثير ج١ ص ٩٠ ، فتح الباري ج٦ ص ٤٢٢ .

« نتلوا عليك من نبأ موسى وفرعون[1] بالحق لقوم يؤمنون • إنّ فرعون علا[2] في الأرض وجعل أهلها شيعا[3] يستضعف طائفة منهم يُذَبِّحُ أبناءهم ويستحيي نساءهم[4] إنه كان من المفسدين • ونريد أن نَمُنَّ[5] على الذين استُضْعِفوا في الأرض ونجعلهم أئِمَّة[6] ونجعلهم الوارثين • ونمكن لهم في الأرض ونُرِيَ فرعون وهامان[7] وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون •

« وأوحينا إلى أمّ موسى[8] أن أرضعيه فاذا خِفْتِ عليه فألقيه في اليم[9] ولا تخافي ولا تحزني إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين• فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحَزَناً إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين[10] •

« وقالت امرأتُ فرعون[11] قُرَّتُ عين[12] لي ولك لا تقتلوه عسى

---

(١) فرعون : عَلَمٌ على كل من ملك مصر كافراً •

(٢) طغى وجاوز الحد في في الظلم •

(٣) فرقاً مختلفة •

(٤) يترك البنات أحياء للخدمة •

(٥) نتفضل •

(٦) قادة يقتدى بهم في الخير ، أو ولاة وملوكاً •

(٧) هامان : وزير فرعون ومستشاره •

(٨) قال الامام الطبري وابن الأثير : اسم أم موسى « يوخابد » • (تاريخ الطبري ج١ ص ٣٨٥ ، الكامل لابن الأثير ج١ ١٦٩) وقال الاستاذ عبد الوهاب النجار : اسمها في التوراة يوكابد • واعتبر اسمها مشتقاً من « كابود » أي الكرامة والاحترام •

(٩) البحر ، وقيل هو نيل مصر •

(١٠) مذنبين •

(١١) هي آسية بنت مزاحم •

(١٢) قرة عين : أي سرورها ورضاها •

أن ينفعنا أو نتخذه ولداً وهم لا يشعرون • وأصبح فؤاد أُم موسى فارغاً إن كادت لتبدي[1] به لولا أن ربطنا على قلبها[2] لتكون من المؤمنين[3] • وقالت لأخته[4] قُصيِّه[5] فَبَصُرتْ به عن جُنُب[6] وهم لا يشعرون[7] • وحَرَّمْنا عليه المراضع[8] من قبل[9]فقالت هل أدُلُّكُم على أهل بيت يَكْفُلُونَهُ لكم وهم له ناصحون • فرددناه إلى أُمه كي تَقَرَّ عينها ولا تحزن ولتعلم أن وعد الله حق ولكن أكثرهم لا يعلمون » •

(سورة القصص ٣ ـ ١٣)

فلما أراد الله أن ينجي بني اسرائيل من الظلم ، حملت أم موسى به • وحين جاءها المخاض هيأ لها قابلة مصافية لها • فلما وقع الى الأرض هالها نور بين عينيه ، ودخل حبه قلبها ، فقالت لها : ما جئتك إلا لأخبر فرعون فيقتل مولودك ، ولكني وجدت لابنك حباً ما وجدت مثله ، فاحفظيه •

وألهم الله أم موسى أن ترضعه ، وأن تجعله في صندوق خشبي ، وأن تلقيه في البحر إذا خافت عليه[10]• وبشرها برده إليها وجعله رسولاً •

---

(١) لتظهر أنه ولدها •
(٢) قويناه ، وألهمناها الصبر •
(٣) المصدقين بوعدنا •
(٤) اسمها مريم •
(٥) اتبعي أثره •
(٦) بُعدٍ •
(٧) لا يعلمون أنها أخته •
(٨) منعناه أن يقبل ثدياً غير ثدي أمه •
(٩) من قبل قصها أثره و من قبل أن نرده على أمه •
(١٠) يقال : انها ابقته عندها ثلاثة أشهر ، ثم القته في اليم بعد ذلك •

وساقه الموج حتى مر به على دار فرعون ، فالتقطته الجواري ، وحملنه الى سيدة القصر ، فلما كشفت عنه إذا هو غلام من أحسن الخلق وأجمله ، فأوقع الله محبته في قلبها حين نظرت إليه • وحين رآه فرعون همّ بقتله خوفاً من أن يكون من بني إسرائيل ، فشرعت امرأته تخاصم عنه وتحببه إليه ، وأرادت أن تتخذه ولداً تتبناه لأنه لم يكن لها ولد[1] •

وهلعت أم موسى، وملأ الرعب قلبها حين رأت الأمواج تقذف ابنها وتلقيه الى آل فرعون ، وكادت تصيح شفقة عليه لولا أن ثبتها الله ، وأمرت أخته أن تتبع أثره لتعلم خبره • والتمس فرعون له المراضع ، فلم يقبل ثدي أي واحدة منهن ، وذهبت أخته تقص أثره في حذر وخفية ، وتتلمس خبره في الطرق والأسواق، فإذا هي تبصر به عن بعد في أيدي خدم فرعون يبحثون له عن ثدي للرضاع • فقالت لهم : هل أرشدكم على من يرضعه وينصح له ؟ فارتابوا فيها وقالوا لها : وما يدريك بنصحهم له ؟ فقالت : لشفقتهم عليه ورغبتهم في قضاء حاجة الملك ورجاء منفعته • فانطلقت الى أمها فجاءت بها والتقم ثديها • فقال لها فرعون : ومن أنت منه ،فقد أبى كل ثدي إلا ثديك ؟ فقالت إني امرأة طيبة الريح طيبة اللبن ، لا أوتي بصبي إلا قبلني • وسألتها امرأة فرعون أن تقيم في قصرها فترضعه • فأبت عليها وقالت : إن لي بعلاً وأولاداً ، ولا أقدر

(١) وسمته « موشى » لأنه وجد بين الماء والشجر • وهو بلغة القبط مؤلف من : « مو » الماء و « شى » الشجر • فعرب فقيل موسى • أو أنه مشتق من الفعل « ماشه » بمعنى انتشل ، فموشه تعني المنتشل • أو أنه سمي بالكلمة المصرية « موسى » وتعني طفل • (تاريخ الطبري ج١ ص ٣٩٠ ، الكامل لابن الأثير ج١ ص ١٧٣ ، قصص الأنبياء للثعلبي ص ١٤٧ ، قصص الأنبياء ـ عبد الوهاب نجار ص ١٥٧) وعاش موسى في القرن الثالث عشر او الرابع عشر قبل الميلاد • وقد حدد الأستاذ عبد الرحمن حبنكة الميداني حياته بين عامي ١٤٣٦ ق•م ـ ١٣١٦ ق•م

على المقام عندك ، ولكن ان أحببت أن أرضعه في بيتي فعلت . فأجابتها الى ذلك ، وأحسنت إليها ، وأجرت عليها النفقة والعطاء الجزيل .

فرجعت أم موسى بولدها راضية مرضية ، قد أبدلها الله بعد خوفها أمناً في عز وجاه . وأصبحت مثلاً فيمن ينفع نفسه ويحصل على أجر . جاء في الحديث الشريف : « مثل الذين يغزون من أمتي ويأخذون الجُعْل يتقوون به على عدوهم مثل أم موسى ، ترضع ولدها ، وتأخذ أجرها »[1] .

ولم يكن بين الشدة والفرج إلا نحو يوم وليلة[2] .

---

(١) اخرجه أبو داود في مراسيله والبيهقي عن جبير بن نفير مرسلا وهو صحيح .

(٢) تفسير النسفي ج٣ ص ٢٢٦ ــ ٢٢٨ ، تفسير ابن كثير ج٣ ص ٣٧٩ ــ ٣٨٢ .

٢ ـ فتوته وشبابه

لا تبين لنا الآيات كيف تربى موسى ، ولا كيف كانت صلته بأمه بعد فترة الرضاعة ، ولا أين كان مكانه بعد أن شب وكبر • ويبدو أنه اعتزل قصر فرعون ولم تسترح نفسه لما فيه من ميوعة وفجور وتكبر وطغيان • ولا بد أن أمه عرّفته مَنْ هو ومن قومه وما دياناته •

وإنما تبين الآيات أنه كان محسناً ، وأن الله آتاه الحكمة والعلم • وتروي لنا هذه القصة التي كانت سبباً لخروجه من مصر :

« ولما بلغ أشُدَّهُ واستوى[1] آتيناه حُكْماً وعلما وكذلك نجزي المحسنين • ودخل المدينة على حين غفلة[2] من أهلها فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شِيعَتِهِ[3] وهذا من عدوه[4] فاستغاثه[5] الذي من شيعته على الذي من عدوه فوكزه[6] موسى فقضى عليه[7] قال هذا من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين • قال ربِّ إني ظلمت نفسي فاغفر لي فغفر له إنه هو الغفور الرحيم • قال ربِّ بما أنعمتَ عليَّ فلن أكون ظهيراً[8] للمجرمين • فأصبح في

---

(١) بلغ نهاية القوة وتمام العقل ، ويكون ذلك عادة نحو سن الثلاثين •

(٢) ما بين المغرب والعشاء ، أو وقت القائلة حين انتصاف النهار •

(٣) ممن شايعه على دينه من بني اسرائيل ، وشيعة الرجل اتباعه وأنصاره •

(٤) من مخالفيه من القبط ، وقيل هو طباخ فرعون •

(٥) استنصره •

(٦) ضربه بجمع كفه أو بأطراف أصابعه •

(٧) فقتله •

(٨) معينا •

المدينة خائفاً يترقب(1) فاذا الذي استنصره بالأمس يستصرخه قال له موسى إنك لغوي مبين(2) . فلما أن أراد أن يبطِشَ بالذي هو عدوٌ لهما قال يا موسى أتريد أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس إنْ تريد إلاّ أنْ تكون جباراً في الأرض وما تريد أن تكون من المصلحين . وجاء رجل(3) من أقصا المدينة يسعى قال يا موسى إنّ المَلأَ يأتمرون بك(4) ليقتلوك فاخرج إني لك من الناصحين . فخرج منها خائفاً يترقب قال ربِّ نجني من القوم الظالمين » .

(سورة القصص ١٤ ـ ٢١)

ولا ندري من أي مكان جاء موسى فدخل المدينة، والمفهوم أنها العاصمة وقتئذ ، والمهم أنه دخلها حين تغفو العيون في وقت الظهيرة مثلاً ، فوجد فيها رجلين يقتتلان : أحدهما قبطي من حاشية فرعون ، والآخر اسرائيلي ، فاستغاث الاسرائيلي به ، وهذا يدل على أن موسى كان معروفاً أنه من بني اسرائيل،وأنه أصبح ناقماً على الملك وحاشيته .

ولم يكن موسى يقصد قتل القبطي . وما كاد يراه جثة هامدة بين يديه حتى ندم على فعلته ، وعزاها الى الشيطان وغوايته ، وتوجه الى ربه يطلب مغفرته وعفوه ، ويعلن براءته من الجريمة وأهلها ، ويعاهده ألا يقف في صف المجرمين .

وأصبح في المدينة خائفاً من انكشاف أمره،قلقاً يتوقع الافتضاح والأذى. وحالته هذه تلهم أنه لم يكن في ذلك الحين من رجال القصر . وإلا فما أرخص أن يزهق أحد رجال القصر نفساً في عهود الظلم والطغيان ثم لا يخشى شيئاً فضلا عن أن يصبح خائفاً يترقب ! وبينما هو في هذا القلق والتوجس إذ

---

(1) يتوقع المكروه .

(2) ضال عن الرشد ، ظاهر الغي .

(3) قيل أن هذا الرجل اسمه حزقيل . (قصص الأنبياء للثعلبي ص ١٥١ـ١٦١) .

(4) يأمر بعضهم بعضاً بقتلك ، أو يتشاورون بسببك .

بصاحبه الاسرائيلي يستنجد به مرة ثانية ليعينه على قبطي آخر ، ولعله يريد أن يقضي على عدوهما المشترك بوكزة أخرى !.

ولكن صورة القتيل كانت ما تزال تخايل لموسى ، والى جوارها ندمه واستغفاره وعهده مع ربه ، ثم هذا التوجس الذي يتوقع معه في كل لحظة أن يلحقه الأذى . فإذا هو ينفعل على هذا الذي يستصرخه ، ويصفه بالغواية والضلال ، ولكن نفسه أيضاً كانت ممتلئة بالغيظ من الظلم والأذى الواقع على بني اسرائيل ، متحفزة لرد البغي والعدوان فاندفع يريد أن يضرب الذي هو عدو لهما .

ويبدو أن موسى كان متهماً بقتيل الأمس لما عرف مِنْ كراهيته لطغيان فرعون وملئه وانتصاره للمظلومين ، الى جانب ما يكون قد باح به صاحبه الاسرائيلي سراً بين قومه ، وتناقلته الألسنة في فرح وتشفٍّ ، حتى تفشى الخبر خارج بني اسرائيل . فلما رأى القبطي موسى مقبلا إليه ، واجهه بالتهمة من باب الظن والفِراسة،وذكَّره بأنه يخالف في فعله ما عرف عنه من الصلاح، ويكون بقتله جباراً ظالماً(١) . فوقف موسى ، وأفلت الرجل ليخبر الملأ من

---

(١) يذكر بعض المفسرين ان الاسرائيلي هو الذي قال لموسى : « أتريد أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس .. » لأنه لما قال له موسى : « إنك لغوي مبين » وتقدم نحوه غاضباً ، ظن أنه يتقدم ليبطش به لا بالقبطي ، فقال مقالته وذاع بالسر الذي يعرفه وحده .

وإنما حملهم على هذا القول ظنهم أن ذلك السر كان مجهولا عند المصريين . ولكن الأقرب أن يكون القبطي هو الذي قال ما قال حدساً وفراسة بمساعدة الظروف المحيطة بالموضوع .

قال ابن كثير رحمه الله : « ويحتمل أن قائل : « أتريد أن تقتلني » هو القبطي ، وأنه لما رأى موسى مقبلا إليه خافه ، ورأى من سجيته انتصاراً جيداً للاسرائيلي ، فقال ما قال من باب الظن والفراسة ، ان هذا لعله قاتل ذاك القتيل بالأمس . أو لعله فهم من كلام الاسرائيلي حين استصرخه عليه ما دل على هذا » .

وهذا ما رجحه صاحب « في ظلال القرآن » .

قومه به ، وساق الله الى موسى رجلا حذّره من تآمر قوم فرعون عليه، ونصحه بالهرب من المدينة ابقاء على حياته .

ولقد أحس فرعون ورجاله في فعلة موسى بشبح الخطر ، فهي فعلة طابعها الثورة والتمرد والانتصار لبني اسرائيل، فهي إذن ظاهرة خطيرة تستحق التآمر والتشاور لقمعها . ولو كانت جريمة قتل عادية ما استحقت أن يشتغل بها فرعون والكبراء . فانتدبت يد القدرة واحداً من الملأ يسعى الى موسى في جد واهتمام ، ويبلغه قبل أن يصل إليه رجال الملك ، فخرج وحيداً خائفاً طالباً الهداية والنجاة من ربه(٢) .

(١) تفسير الطبري ج٢٠ ص ٣٢ ، تفسير النسفي ج٣ ص ٢٢٩ ــ ٢٣١ ، تفسير ابن كثير ج٣ ص ٣٨٢ ــ ٣٨٣ ، البداية والنهاية لابن كثير ج١ ص ٢٤٢ ، في ظلال القرآن ج٥ ص ٢٦٧٨ ــ ٢٦٨٥ .

٣ ـ قدومه مدين وزواجه

ما كان الله ليتخلى عن موسى ـ عليه السلام ـ وقد طلب منه النجاة والهداية ، وهو الذي حفظه في صغره ، وجعله يعيش في كنف فرعون الذي كان يقتل الأطفال للقضاء عليه ، وهو لا يشعر به ، فلم يتمكن أحد من القبض عليه ، وخرج من مصر بدون أن يصيبه مكروه . وبقي يسير ثمانية أيام، وليس معه زاد ، ولا يأكل سوى البقل وأوراق الشجر حتى ورد[1] ماء مدين[2] ، فرأى الرعيان يسقون مواشيهم ، وامرأتين تمنعان مواشيهما عن الماء ، فعجب من أمرهما ، وسألهما عن سبب ذلك ، فأعلمتاه بأنهما لا تستطيعان مزاحمة الرجال ، فتنتظران فراغهم من السقيا ، وأن أباهما شيخ كبير لا يستطيع أن يرعى الماشية ويسقيها . فَرَقّ لهما وتقدم لمساعدتهما ، فسقى مواشيهما ، ثم جلس تحت ظل شجرة يطلب من الله العون والخير ، فجاءته احداهما تبلغه دعوة أبيها ليجزيه على معروفه ، ولما قابله عرض عليه أن يرعى غنمه ويزوجه احدى ابنتيه ، فقبل . وأقام عقداً من السنين عندهم . وهذه الآيات تروى لنا ذلك :

« ولما توجه تلقاء مَدْيَنَ[2] قال عسى ربي أن يهديني سواء السبيل . ولما ورد[1] ماء مدين وجد عليه أُمَّة من الناس يسقون ووجد من دونهم امرأتين تذودان[3] قال ما خطبُكما[4] قالتا

---

(١) وصل

(٢) مدين قرية شعيب عليه السلام ، على ساحل البحر الأحمر ، محاذية لتبوك ، بين وادي القرى والشام . (معجم البلدان ج٥ ص ٧٧)

(٣) تطردان غنمهما عن الماء ؛ لأن على الماء من هو أقوى منهما ، فلا تتمكنان من السقي ، أو لئلا تختلط أغنامهما بأغنامهم .

(٤) ما شأنكما .

لا نَسقي حتى يُصدِرَ الرِعاء وأبونا شيخ كبير • فسقى لهما ثم تولى إلى الظل فقال ربِّ إني لما أنزلت إليَّ من خير فقير • فجاءته إحداهما تمشي على استحياء قالت إنَّ أبــي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا فلما جاءه وقصَّ عليه القَصَصَ قال لا تخف نجوت من القوم الظالمين • قالت إحداهُما يا أبتِ استأجره إنَّ خير من استأجرتَ القويُ الأمين • قال إني أُريد أن أُنكِحَكَ [1] إحدى ابنتي هــاتين علــى أن تَأجُرَني ثمانيَ حِجج [2] فــان أتممت عَشْراً فَمِنْ عندِك وما أريد أن أشُقَّ عليك ستجدني إن شاء الله من الصالحين • قال ذلك بيني وبينك أيَّما الأجلَينِ قضيتُ فلا عدوان علي والله على ما نقول وكيل » •

(سورة القصص ٢٢ــ٢٨)

لقد كان موسى ــ عليه السلام ــ نصير الضعفاء ومعين المحتاجين ، فما أبصرت عيناه الفتاتين وسط الرعيان تؤخران غنمهما وتجمعانه لئلا يختلط بغيره وعلم خبرهما حتى تقدم فشق طريقه بــين الرعيان ومواشيهم ، وسقى لهما ، وهو الغريب الطريد المسافر بلا زاد ولا استعداد •

ولقد أعجبت الفتاتان بقوته وأمانته ، فعرضت إحداهما على أبيهــا أن يجعله أجيراً عنده ؛ فهما تعانيان من رعي الغنم ومن مزاحمة الرجال على الماء ما يؤذيهما • والمرأة العفيفة السليمة الفطرة تريد أن تقر في البيت ، ولا تستريح لمزاحمة الرجال والتبذل الناشىء من هذه المزاحمة •

ولا حاجة لما رواه المفسرون من دلائل قوة موسى كرفع الصخرة التي

---

(١) أزوجك •

(٢) الحِجّة : السَّنة •

تغطي البئر ولا يطيق حملها إلا عشرة رجال[1] أو الاستقاء بدلو لا ينزعها إلا أربعون[2]، ففي تنحية الرعيان أو السقي معهم والجرأة عليهم مع غربته واعيائه من السفر ما يشي بقوته ٠ ولعل قوة نفسه أوقعت في قلوب الرعاة رهبة أكثر من قوة جسمه ويبدو أن البئر لم تكن مغطاة بدليل أنه : « وجد عليه أمة من الناس يسقون » ٠ كما أن أمانته لا تحتاج لما رووه من قوله للفتاة التي أبلغته دعوة أبيها : امشي خلفي ودليني على الطريق ، بعد أن تبعها والزقت الريح ثوبها بجسدها فوصفته ٠ فهذا تكلف لا داعي له ، ودفع لريبة لا وجود لها ٠ وموسى ــ عليه السلام ــ عفيف النظر نظيف الحس،وهي كذلك،والعفة تظهر في التصرف العادي البسيط بلا تكلف ولا اصطناع ٠

والقوة والأمانة حين تجتمعان في رجل تهفو إليه طبيعة الفتاة السليمة ، ولعل أباها أحس من نفس ابنته ونفس موسى ثقة متبادلة وميلاً فطرياً لبناء أسرة ، فعرض عليه أن يزوجه احدى ابنتيه[3] في مقابل أن يخدمه ويرعى ماشيته ثماني سنين ٠ فإن زادها الى عشر فهو تفضل منه لا يلزم به ٠

وليس في عرض الرجل نكاح ابنته أو أخته ممن يراه صالحاً ما يخجل ويدعو الى التحرج والتردد ٠ وقد عرض عمر بن الخطاب ــ رضي الله عنه ــ

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٣ ص ٣٨٥ ٠

(٢) تفسير النسفي ج٣ ص ٢٣١ ــ ٢٣٤

(٣) قال شعيب الجبئي : هما صفورة وليا ٠ وروي أنه تزوج الصغرى ٠
وقال الحافظ أبو بكر البزار عن أبي ذر ــ رضي الله عنه ــ ان النبي ﷺ سئل : أي الأجلين قضى موسى ؟ قال : « أوفاهما وأبرهما ــ قال ــ وان سئلت أي المرأتين تزوج فقل الصغرى منهما ٠
وقال ابن عباس رضي الله عنهما : « الجارية التي دعته هي التي تزوج بها »٠ وهي التي قالت : « يا أبت استأجره » واسمها صفورة بنة يشرون ٠
(تفسير ابن كثير ج٣ ص ٣٥٨ــ٣٨٦ ، تاريخ الطبري ج١ ص ٣٩٨ــ٤٠٠)٠

ابنته حفصة على أبي بكر فسكت ، وعلى عثمان فاعتذر . فلما أخبر النبي ﷺ بهذا طيَّب خاطره بقوله : «ألا أدلك على ختن خير من عثمان، ثم تزوجها[1] .

وعرضت امرأة نفسها على رسول الله ﷺ فزوجها رجلاً بما معه من القرآن الكريم[2] .

وهكذا عرض شيخ مدين على موسى ذلك العرض واعداً إياه ألا يشق عليه ، ولا يتعبه في العمل ، راجياً بمشيئة الله أن يجده موسى من الصالحين في معاملته ووفائه . وقبل موسى العرض ، وأبرم العقد ، وأشهد الله عليه . وهكذا اطمأن بموسى ــ عليه السلام ــ المقام في بيت حميه ، وأمن من فرعون وكيده .

وقد اختلف المفسرون في الشيخ الذي زوجه بنته من هو ؟ فروي عن الحسن البصري ومالك بن أنس أنه شعيب عليه السلام . وقال آخرون : بل كان ابن أخي شعيب ، واسمه يثرون ، وقيل اسمه يثرى[3] . وقيل : رجل مؤمن من آل شعيب ، أو شعيب آخر غير النبي .

ونرجح أنه ليس شعيباً النبي ، لأن شعيباً شهد مهلك قومه المكذبين ، ولم يبق معه إلا المؤمنون به ، فيستبعد أن يمنع هؤلاء ابنته من السقيا . ولا يمكن أن يكون الرعاة الجفاة من المكذبين له من قبل أن يهلكوا ، لأنه كان شيخاً كبيراً . ولو كان نبياً لسمعنا شيئاً عن تعليمه لصهره ، وقد عاش معه عشر سنوات . وكل ما قيل في القرآن الكريم إنه « من الصالحين » . وكان

---

(١) أخرجه البخاري /٥١٢٢/ والطبري والحاكم .
(٢) أخرجه البخاري /٥٠٨٧/ عن سهل بن سعد الساعدي .
(٣) تاريخ الطبري ج١ ص ٤٠٠ ، الكامل لابن الأثير ج١ ص ١٧٦ ـ ١٧٧ .

شعيب قبل موسى بمدة طويلة ، لأن شعيباً جاء بعد لوط بمدة قصيرة ،بدليل قوله لقومـــه :

« وما قوم لوط منكم ببعيد » ·

(سورة هود ٨٩)

ولوط في عهد إبراهيم، وكان بين إبراهيم وبين موسى ــ عليهما السلام ــ مدة طويلة تزيد على أربعمائة سنة كما ذكره غير واحد[1] ·

(١) قصص الأنبياء ــ الثعلبي ص ١٥٢ ــ ١٥٣ ، في ظلال القرآن ج٥ ص ٢٦٨٥ ــ ٢٦٨٩ والمراجع المذكورة في الحواشي ص ١٧٢ ، ١٧٣ ·

٤ ـ الأُنس والقبس

قضى موسى الأجل[١] الذي اتفق عليه مع الشيخ الصالح ، وسار بأهله راجعاً الى بلده ، فضل عن الطريق في فلاة مظلمة وليلة باردة . وظهرت له نار من جانب جبل هناك ، فطلب من أهله البقاء ليأتيهم بجذوة يستدفئون بها ، أو يجد أحداً يهديه الى الطريق .

وقد دل القرآن الكريم على ذلك في ثلاثة مواضع هي :

« فلما قضى موسى الأجل[١] وسار بأهله آنَسَ من جانب الطور[٢] ناراً قال لأهله امكثوا[٣] إني آنَستُ[٤] ناراً لعلي آتيكم منها بخبر أو جذوة[٥] من النار لعلكم تصطلون[٦] » .

(سورة القصص ٢٩)

---

(١) سئل ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أي الأجلين قضى موسى ؟ فقال : قضى أكثرهما وأطيبهما . إن رسول الله إذا قال فعل .

(البخاري ٢٦٨٤)

وعنه أن رسول الله ﷺ قال : سألت جبريل : أي الأجلين قضى موسى ؟ قال : أتمهما وأكملهما . (رواه ابن أبي حاتم وابن جرير في تفسيره ج٢ ص ٤٤).

(٢) جبل بين مصر ومدين .

(٣) أقيموا في مكانكم .

(٤) أبصرت ما يؤنس به ، والايناس : الابصار البين الذي لا شبهة فيه .

(٥) الجذوة : العود الغليظ كانت في رأسه نار أم لم تكن .

(٦) تستدفئون .

« وهل أتاك حديث موسى • إذ رأى ناراً فقال لأهله امكثوا إني آنست نـاراً لعلي آتيكم منهـا بِقَبَس[1] أو أجِـدُ على النـار هُدى[2] » •

(سورة طه ٩ـ١٠)

« إذ قال موسى لأهله إني آنست نـاراً سآتيكم منهـا بخبر أو آتيكم بشهاب قبس[3] لعلكم تصطلون » •

(سورة النمل ٧)

والآيات تحدد لنا زمان تلك الرحلة الميمونة ، فهي في الشتاء البارد الذي يجعل الانسان يبحث عن نار يستدفىء بها ، بينما كان قدوم موسى في صيف حار جعله يأوي الى الظل • وبذلك يكون قد خبر الطريق ذهاباً وإياباً ، صيفاً وشتاء • وسار فيه ليلاً ونهاراً ، وهذا مما يمنحه الخبرة والدربة اللازمة لقيادة قومه والنجاة بهم •

---

(١) نار مقتبسة في رأس عود ، الجمر الذي معه لهب •

(٢) ذوي هدى ، أو قوماً يهدونني الطريق •

(٣) شعلة مضيئة • الشهاب : الشعلة ، والقبس : النار المقتبسة في رأس عود •

٥ ـ الوحـي الالهـي

لما أتى موسى الى موضع النار رأى منظراً هائلا عظيماً ؛ إذ كانت النار تضطرم في شجرة خضراء ، لا تزداد النار إلا توقداً ، ولا تزداد الشجرة إلا خضرة ونضرة . وكان نورها متصلاً بعنان السماء ، فهي على الأرجح لم تكن ناراً من هذه النار التي نوقدها ، وإنما كانت ناراً مصدرها الملأ الأعلى ، أو نار أوقدتها الأرواح الطاهرة من الملائكة للهداية الكبرى . قـال ابن عباس رضي الله عنهما : لم تكن ناراً ، وإنما كانت نوراً يتوهج .

وفي رواية عنه : « نور رب العالمين »[1] .

فوقف موسى متعجباً مما رأى ، وإذ به يسمع كلام رب العالمين :

« فلما أتاها نُودي من شاطىء الوادِ الأيمنِ[2] في البقعـة المباركة من الشجرة أنْ يا موسى إني أنا الله رب العالمين » .

(سورة القصص ٣٠)

« فلما جاءها نُوديَ أن بُورِكَ مَنْ في النار ومَنْ حَوْلَها[3] وسبحان اللهِ رب العالمين . يا موسى إنه أنا الله العزيز الحكيم » .

(سورة النمل ٨ ـ ٩)

« فلما أتاهـا نُودي يا موسى . إني أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالوادِ المقدس[4] طُوى[5] . وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى .

(١) تفسير ابن كثير ج٣ ص ٣٥٦ .

(٢) أي الجانب الأيمن من موسى أثناء رجوعه الى مصر .

(٣) تقدس من هناك من الملائكة وموسى عليهم السلام .

(٤) المقدس : المبارك ، المطهر .

(٥) طوى : اسم الوادي .

إنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري • إن الساعة آتية أكاد أُخفيها لتُجزى كل نفس بما تسعى فلا يَصُدَّنَّك[1] عنها مَنْ لا يؤمن بها واتَّبعَ هَواه فَتَرْدى[2] » •
(سورة طه ١١–١٦)

والآيات تتضمن تحديد موضع النار التي رآها موسى ، فقد كانت في جانب الوادي مما يلي جبل الطور ، عن يمين موسى وهو متجه نحو الجنوب ، من ناحية الغرب • قال تعالى :

« وما كنت بجانب الغَرْبِيِّ إذ قضينا إلى موسى الأمر وما كنت من الشاهدين » • (سورة القصص ٤٤)

وكانت النار عند الشجرة ، ولعلها كانت وحيدة هناك •

وقد أصبحت تلك البقعة مباركة ، بورك فيها ، وبورك من حولها • وهذا يشمل الملائكة وموسى عليهم السلام •

وقد أمر موسى بخلع نعليه تعظيماً للبقعة وتواضعاً لله ، أو ليباشر الوادي بقدميه متبركاً به ، أو لأن نعليه كانتا من جلد حمار ميت غير مدبوغ •

وقد ناداه ربه ، وأخبره أنه اختاره لرسالته التي تقوم على أساس الاعتقاد بوحدانية الله ، والتوجه بالعبادة له ، والايمان باليوم الآخر • فأمره بتوحيده واقامة الصلاة • وأعلمه بأن الساعة لا ريب فيها ، وأنه كتمها من الخلائق ، ولم يطلع أحداً عليها ليبقى الناس على استعداد دائم لها • وفي يوم القيامة يجد كل عامل عمله • فمن كفر بالله واليوم الآخر ، وخالف أمر ربه ، واتبع هواه ، فقد خاب وهلك •

---

(١) لا يصرفنك عن العمل للساعة • والمراد بهذا الخطاب آحاد المكلفين ، أي لا تتبعوا سبيل من كذب بالساعة وأقبل على ملاذه في دنياه ، وعصى مولاه ، واتبع هواه • فمن وافقهم على ذلك فقد خاب وخسر •
(٢) فتهلك •

٦ ــ البرهــــان

وبعد أن استمع موسى ــ عليه السلام ــ الى قول الحق ، وسطعت له الأنوار الإلهية أمر بالقاء عصاه ، وأعطي المعجزة التي يذهب بها الى فرعون ، ليبلغه رسالة ربــه :

« وما تلك بيمينك يا موسى • قال هي عصايَ أتوكَّؤُا[١] عليهــا وأهُشُّ بها على غنمي[٢] وليَ فيهــا مَــآرِبُ أُخرى[٣] قال ألقِها ياموسى • فألقاها فاذا هي حية[٤] تسعى • قــال خذها ولا تخف سنعيدها سيرتهــا[٥] الأولى • واضمم يدك إلى جناحك[٦]

---

(١) أعتمــد •

(٢) أخبط ورق الشجر ليتساقط على غنمي • وقد أعطاه شيخ مدين قطيعاً مــن الغنم حين أنهى عمله عنده ، فساقه معه •

(٣) حاجات مثل حمل المزود والسقاء ، وقد تكلف بعضهم لذكر شيء من تلك المآرب التي أبهمت فقال : كانت تماشيه وتحدثه ، وتحارب العدو والسباع ، وتصير رشاء فتطول بطول البئر ، وتصير شعبتاها دلواً ، وتضيء له بالليل • وتحرس غنمه اذا نام ، وتقيــه الهوام • ويركزها فينبع الماء ، فــاذا رفعها نضب • ويغرسها فتصير شجرة تظلله ، وتثمر ثمرة يشتهيها • وغير ذلك من الأمور الخارقة • وأنها كانت لآدم عليه السلام • (تفسير النسفي ج٣ ص ٥٢ ، قصص الأنبياء للثعلبي ص ١٥٤ ، الكامل لابن الأثير ج١ ص ١٧٩) •
وكــل ذلك من الأخبــار الاسرائيلية • ولــو كانت كذلك لمــا استنكر موسى صيرورتها ثعبانا ، ولما فر هارباً منها حينئذ • بل لو كانت تضيء لــه الليل لما جاء يلتمس النور والهدى !

(٤) الحية : اسم جنس يقع على الذكر والانثى والصغير والكبير •

(٥) حــالتها •

(٦) ادخلها تحت عضدك • وجناحا الانسان : جنباه •

تخرج بيضاء من غير سوء آية أُخرى • لنريك من آياتنا الكبرى • اذهب الى فرعون إنّه طغى[1] » •

(سورة طه ١٧ـ٢٤)

« وَأَنْ أَلقِ عصاك فلما رَآها تهتز كأنها جان[2] وَلَّى مُدْبِراً ولم يُعَقِّبْ[3] يا موسى أقبل ولا تخف إنك من الآمنين • أُسلُك[4] يدك في جيبك[5] تخرجْ بيضاء من غير سوء واضمم إليك جَناحك من الرَّهب[6] فذانك برهانان[7] من ربك إلى فرعون ومَلائِهِ إنهم كانوا قوماً فاسقين[8] » •

(سورة القصص ٣١ـ٣٢)

«وألقِ عصاك فلمَّا رآها تهتز كَأنَّها جَانٌ ولَّى مُدْبِراً ولم يُعَقِّبْ يا موسى لا تخف إني لا يخاف لديَّ المُرسَلون • إلا من ظلم ثم بَدَّل حُسْناً بعد سُوء فاني غفور رحيم • وأدخل يدك في جيبك تَخْرُجْ بيضاء من غير سوء في تسع آيات إلى فرعون وقومه إنهم كانوا قوماً فاسقين » •

(سورة النمل ١٠ـ١٢)

---

(١) تمرد وعتا ، تجبر على الله وعصاه ، وجاوز حد العبودية الى دعوى الربوبية •

(٢) الجان : نوع من الحيات ، أسرعه حركة وأكثره اضطراباً •

(٣) لم يرجع •

(٤) أدخل •

(٥) جيب القميص : فتحته التي يدخل منها الرأس •

(٦) الخوف ، ومعنى اضمم إليك جناحك : ضع يدك على صدرك • ويدا الانسان بمنزلة جناحي الطائر • والطائر إذا خاف نشر جناحيه وأرخاهما ، وإلا فجناحاه مضمومان إليه •

(٧) حجتان بينتان •

(٨) خارجين عن طاعة الله ، كافرين •

لقد سئل عما في يده اليمنى فأجاب بأنها عصا يعتمد عليها حين يمشي ، ويهز بها الشجر ليتساقط ورقه وترعاه غنمه ، وله فيها مصالح ومنافع وحوائج غير ذلك . والقصد من هذا السؤال أن يتهيأ لمعرفة ما تصير إليه حين أمر بإلقائها . فألقاها ، فصارت حية طويلة تتحرك حركة سريعة كأنها جان . فامتلأ قلبه خوفاً منها ، وولى هارباً ، ولم يلتفت من شدة خوفه ، ونسي أنه في كنف الله عز وجل . فنودي بأن يرجع ولا يخاف ، فليس من شأن الرسل أن يخافوا لدى رب العالمين ،أما من ظلم وعمل سوءاً ، ثم أقلع عنه وتاب ، فإن الله يتوب عليه ويغفر له . وكأن ذلك تعريض بما قال موسى حين قتل القبطي :

« رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي » .

وأمر أن يدخل يده في جيبه ، وأن يجعل كفه تحت عضده ثم يخرجها ؛ فأصبحت تتلألأ كأنها فلقة قمر من غير برص ولا أذى ، مع أنه كان آدم شديد الأدمة ، أي مائلا الى السمرة .

ولما خاف موسى من هول المفاجأة ، وذهل لوقع المعجزة ، أمر بأن يضم يده على قلبه ليزول عنه الرعب ، ويشعر بالاطمئنان ، كما يطمئن الطائر حين يطبق جناحه .

ثم أمر بالذهاب الى فرعون الطاغية وقومه العتاة الخارجين عن أمر الله ، ليبلغهم رسالة ربه التي تلقاها وتلقى البرهان على صحتها .

وليس جعل العصا حية ، وجعل اليد مضيئة بعزيز على الله الخالق القادر، وكم من ملايين الذرات الميتة أو الجامدة تتحول في كل لحظة الى خلية حية في داخل جسم الكائن الحي من نبات أو حيوان ، ولكنها لا تبهر الإنسان لأنه أسير حواسه وتجاربه .

أما الآيات التسع ، فلا تذكر هنا ، وسيأتي ذكرها في الموضع المناسب[1] حين يلتقي موسى بفرعون وقومه .

وإن موسى ليعلم من هو فرعون ، فقد تربى في قصره ، وشهد طغيانه وجبروته ، وما يصبه على قومه من عذاب ونكال ، فسأل ربه ما يعينه على مواجهة هذه المهمة العسيرة .

(١) انظر فصل فتنته المال . ص ٢١٦ ـ ٢١٩ .

٧ - الوزير المعين

لقد أدرك موسى - عليه السلام المهمة الضخمة التي كلف بها ؛ فدعا ربه بأن يشرح صدره وييسر أمره ، ويطلق لسانه ، وأبدى مخاوفه من أن يكذب أو يقتل ، فسأله أن يذهب عنه الخوف والضيق ، ويجعل أخاه عوناً له. فاستجاب الله دعاءه ، وذكره بنجاته من القتل ، وبين له طريق الدعوة :

« واذ نادى ربك موسى أنِ ائتِ القوم الظالمين • قومَ فرعون ألاَ يتقون • قال ربِّ إني أخاف أن يكذبون • ويضيق صدري ولا ينطلق لساني فأرسل إلى هارون[1] • ولهم علي ذنب[2] فأخاف أنْ يقتلون • قال كلا[3] فاذهبا بآياتنا إنّا معكم مستمعون • فأتيا فرعون فقولا إنا رسولُ رب العالمين • أنْ أرسِلْ معنا بني اسرائيل » •

(سورة الشعراء ١٠-١٧)

« قال رب إني قتلت منهم نفساً فأخاف أن يقتلون • وأخي هارون هو أفصح مني لساناً فأرسله معيَ ردْءاً[4] يُصدّقني إني أخاف أنْ يُكذّبونِ • قال سنشد عضُدَك[5] بأخيك

(١) هارون : شقيق موسى ، ولد قبله حين لم يكن فرعون يأمر بقتل أولاد بني اسرائيل •

(٢) تبعة ذنب بسبب قتل القبطي •

(٣) أي لا تخف •

(٤) عوناً •

(٥) سنقويك •

ونجعل لكما سلطاناً(١) فلا يصلون إليكما بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون » • (القصص ٣٣-٣٥)

« قال رَبِّ اشرح لي صَدْري ويَسِّرْ لي أمْري • واحْلُلْ عُقْدَةً مِن لساني(٢) • يفقهوا قولي • واجعل لي وزيراً من أهْلي • هارون أخي • أُشْدُد به أزري(٣) • وأشْرِكْهُ في أمري(٤) • كي نُسَبِّحَكَ كثيراً • ونَذْكُرَكَ كثيراً • إنك كنت بنا بصيراً • قال قد أُوتيتَ سُؤْلَكَ يا موسى • ولقد مَنَنّا(٥) عليك مَرَّةً أخرى • إذ أوحينا إلى أُمِّكَ ما يُوحى • أن اقْذِفيهِ في التابوت فاقذفيه في اليم فَلْيُلْقِهِ اليمُ في الساحل يأخذْهُ عَدُوٌّ لي وعَدُوٌّ له وألقيتُ عليك محبة مني ولِتُصْنَعَ على عيني(٦) • إذ تمشي أُختك فتقولُ هل أدلكم على من

(١) غلبة وتسلطاً ، أو حجة واضحة •

(٢) روي أن موسى أخذ لحية فرعون ، ولطمه لطمة شديدة في صغره ؛ فأراد قتله • فقالت امرأته : صغير لا يعقل ، وآرته بأنه لا يميز بين التمرة والجمرة ، أو بين النار والجوهر ؛ فجعلت في طشت تمرات أو يواقيت ، وفي طشت آخر جمرات من النار • فأخذ جمرة ووضعها في فيه ، فاحترق لسانه ، وصار فيه لكنة منها •

وقد اعتبر الاستاذ عبد الوهاب النجار سبب الحبسة في لسانه تأخر الرضاعة عنه حين ألقي في اليم ، ومكثه في مدين زمناً طويلا مما جعله ينسى لغة القبط • (تفسير النسفي ج٣ ص ٥٣ ، تفسير ابن كثير ج٣ ص ١٤٩ ، ٣٨٨ ، قصص الأنبياء للنجار ص ١٧٥) •

وأياً كان فقد حلت تلك العقدة ، وأطلق لسانه عندما سأل ربه ذلك •

(٣) قوِّ به ظهري •

(٤) أجعله شريكي في النبوة والرسالة •

(٥) أنعمنا •

(٦) بقربي ، بمرأى مني •

يكْفُلُه' فرجعناك إلى أمك كي تَقَرَّ عينُها ولا تحزن وقتلتَ نفساً فنجيناك من الغَمِّ وفتناك فُتُونا(١) فلَبِثْتَ سنين في أهـل مدين ثـم جِئْتَ على قـدر(٢) يا موسى • واصطنعتك لنفسي(٣) اذهبأنت وأخـوك بآياتي(٤) ولا تَنِيـا(٥) في ذكري • اذهبـا إلى فرعون إنه طغى • فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى » •

(سورة طه ٢٥ـ٤٤)

ولم يكن هذا الالتماس من موسى ـ عليه السلام ـ توقفاً في الامتثال وتنصلاً عن التبليغ ، بل التماس عون ومساعدة في تبليغ الرسالة ، ولم يكن خوفه من مجرد التكذيب ، ولكن من حصوله في وقت يضيق به صدره ولا ينطلق لسانه ، فلا يملك أن يبين ، وأن يناقش التكذيب ويفنده ؛ إذ كانت بلسانه حبسة من شأنها أن تنشىء حالة من الضيق لعدم القدرة على تصريف الانفعال بالكلام • فقد خشي من أن يضيق صدره بتكذيبهم، وأن تغلبه الحمية فيتلعثم لسانه ، كما خاف من أن يقتل بالقبطي الذي قتله قبل فراره ، فـلا يتمكن من تبليغ الرسالة ، فطلب إرسال هارون ليعينه في هذه المهمة الصعبة ، فهو يعلم عنه فصاحة اللسان وثبات الجنان وهدوء الأعصاب ، فاذا أدركت موسى حبسة أو ضيق نهض هارون بالمحاجة والبيان ، وإذا قتلوه قام من بعده بما كلف بـه •

وربه يعلم منه هذا الحرص والاشفاق، فأجابه الى ما سأل، وأزال مخاوفه

---

(١) ابتليناك •

(٢) على موعد ، أو على قدر الرسالة والنبوة •

(٣) اخترتك واصطفيتك لوحي ورسالتي •

(٤) بحجتي ومعجزاتي •

(٥) الونى : الفتور والتقصير •

وطمأنه بأنه معه ، ومع أخيه بحفظه وعونه ونصره وتأييده • وذكره بنعمه السالفة عليه ليزيده اطمئناناً وأنساً ، إذ ألهم أمه أن تضعه في التابوت ، وأن تقذفه في البحر ، وجعله يربى عند عدوه في رعاية الله ، وجعله محبوباً من خلقه؛ أحبته القابلة فلم تخبر عنه ، وأحبته امرأة فرعون فاتخذته ابناً لها • وأعاده الى أمه كي تُسرَّ به ولا تحزن عليه ، ونجاه من القتل ، وآمنه في مدين • فربه لم يرسله إلا بعد التهيئة والإعداد ، فقد صنع على عين الله ، ودرب على المشاق وهو طفل رضيع ، وكان تحت سلطان فرعون وهو مجرد من كل عدة وقوة ، فلم تمتد إليه يده ، لأن يد القدرة كانت تسنده ، وعين القدرة كانت ترعاه • ثم امتحنه الله بالخوف والهرب من القصاص ، وبالغربة والخدمة ورعي الغنم ، بعد أن عاش في ظل الترف والمتاع والزينة • وعندما نضج واستعد ، وابتلى فثبت وصبر ، جيء به على موعد ومقدار ، واختير للرسالة •

فلا خطر عليه اليوم من فرعون وقد بلغ أشده ، وربه معه قد اصطنعه لنفسه ، وجعله خالصاً لرسالته ، فما عليه إلا أن يذهب هو وأخوه مزودين بآيات الله ، وقد شهد منها آيـة العصا وآية اليـد ، وألا يقصرا في ذكر الله وعبادته وتبليغ رسالته الى فرعون الذي تجبر وظلم •

ثم يجب أن يلين موسى وأخوه القول لفرعون ، لعله يتعظ ويذعن للحق، فاللين لا يثير العزة بالإثم ، ولا يهيج الطغاة، ومن شأنه أن يوقظ القلب فيتذكر ويخشى عاقبة الطغيان ، وإن الله ليعلم ما سيكون من فرعون ، ولكن هـذا الإنذار لالزام الحجة وقطع المعذرة •

وبعد هذا الاصطفاء والتكليف رجع موسى من موضع النار التي رآها بخبر عظيم ، واقتبس منها نوراً مبيناً ، وحصل على ما فيه دفء للقلوب وهدىً للأرواح ، وظفر بحاجتيه الكليتين وهما عز الدنيا والآخرة •

وبهذه الرسالة تحقق الوعد الذي تلقته أم موسى وهو طفل رضيع : « وجاعلوه من المرسلين » • ورسالته كانت الى فرعون لعله يهتدي ويتذكر ويخشى ، والى بني إسرائيل ليعيد تربيتهم على دين التوحيد ، ويخلصهم من الظلم والعدوان[1] •

(١) رجعنا في تفسير الآيات الواردة في الفصول السابقة ص ١٧٥ـ١٨٦ الى الكشاف: للزمخشري ج٣ ص ٥٣٠ ـ ٥٣٨ ، ج٣ ص ١٠٦ ـ ١٠٧ ، ١٣٧ ـ ١٣٨ ، ١٧٤ ـ ١٧٦ ، تفسير النسفي ج٣ ص ٥١ ـ ٥٦ ، ١٨١ ، ٢٠٤ ـ ٢٠٥ ، ٢٣٥ ـ ٢٣٦ ، تفسير ابن كثير ج٣ ص ١٤٣ ـ ١٥٥ ، ٣٣٢ ، ٣٥٦ ـ ٣٥٧، ٣٨٦ ـ ٣٨٩ ، في ظلال القرآن ص ٢٣٢٩ ـ ٢٣٣٦ ، ٢٥٨٩ ـ ٢٥٩٠ ، ٢٦٢٩ ، ٢٦٩١ ـ ٢٦٩٣ •

٨ ـ اللقــاء

كان موسى يقطع الفيافي والقفار يحدوه الحنين الى وطنه والشوق الى أهله وقومه ، وهو يتذكر أيام الطفولة المرحة والشباب المندفع • فلما سمع النداء العلوي ، وتلقّى الرسالة الإلهية مضى بقوة وعزيمة ، وفي مخيلته صورة لمقابلة فرعون ودعوته ، وانقاذ قومه وتحريرهم •

وسار حتى التقى بأخيه هارون الذي أوحى الله إليه أن يضطلع مع موسى بالدعوة ، وأمره بمؤازرته •

قال السدي : « فأقبل موسى الى أهله فسار بهم نحو مصر ، فتضيف على أمه وهو لا يعرفهم ، فنزل في جانب الدار ، فجاء هارون فدعاه فأكل معه، فلما أن قعدا تحدثا ، فسأله هارون : من أنت ؟ قال : أنا موسى ، فقام كل واحد منهما الى صاحبه فاعتنقه • فلما أن تعارفا قال له موسى ! انطلق معي الى فرعون ، إن الله قد أرسلنا إليه ، فقال هارون : سمع وطاعة »[1] •

قلت : من غير الجائز أن لا يعرف موسى أمه وأخاه، وأن لا يعرفاه لغياب عشر سنين مع ما هو عليه من الفطنة والذكاء وما به من الشوق والحنين ، فصورتهما كانت في قلبه كما كانت صورته في قلبهما طيلة تلك المدة بالرغم من غيابهما عن عينيه وغيابه عنهما •

وها هو موسى وأخوه بعد أنَ التقى به ، وهما يبثان الى الله خوفهما من مواجهة فرعون ومن أن يعجل عليهما بالعقاب • ويذهب الله عنهما الخوف ويفيض عليهما الأمن ، ويوضح لهما قاعدة الرسالة وموضوعها :

---

(١) تاريخ الطبري ج١ ص ٤٠٣ ـ ٤٠٤ ، الكامل لابن الأثير ج١ ص ١٨٠ •

« قالا ربَّنا إننا نخاف أن يَفْرُطَ علينا[1] أو أن يطغى[2]
قال لا تخافا إنني مَعَكُمَا أسمع وأرى • فأتياه فقولا إنَّا رسولا
ربك فأرسل معنا بني اسرائيل ولا تعذبهم قد جئناك بآية من ربك
والسلامُ على من اتبع الهُدى • إنا قد أوحِيَ إلينا أنَّ العذاب
على مَنْ كذب وتولى[3] » •

(سورة طه ٤٥ـ٤٨)

فكيف يخافان والله معهما بحفظه وكلاءته يسمع ويرى !

أما مهمتهما فهي الذهاب الى فرعون برسالة من ربه لتخليص بني اسرائيل ورفع العذاب عنهم • ومعهما حجة تدل على صدقهما • وعليهما أن يرغباه ويستميلاه ، فلعله يتلقى السلام ويتبع الهدى ، ثم يحذراه بشكل غير مباشر، فلعله لا يكون ممن كذب وأعرض •

وهكذا ألقى الله الطمأنينة على موسى وهارون ، ورسم لهما الطريق ، ودبر لهما الأمر ليمضيا آمنين هادئين[4] •

---

(١) يعجل علينا بالعقوبة •
(٢) يعتدي ويجاوز الحد •
(٣) كذب بالرسل وأعرض عن الإيمان •
(٤) في ظلال القرآن ص ٢٣٣٦ ـ ٢٣٣٧ •

٩ ـ المواجهة الحاسمة

طرق موسى وأخوه باب فرعون(١) ، ودخلا عليه قصره وأبلغاه رسالة ربه • وليس من السهل على من يدعي الألوهية أن يذعن للرسالة التي تجعله كغيره من العبيد ، وتجرده من كل امتيازاته وما استأثر به نفسه ، فها هو يتمحل الأعذار ويدفع الرسول بكل الطرق : تفرس في وجه موسى أولا فتذكر أنه الطفل الذي رباه والشاب الذي قتل نفساً وذهب هارباً :

« قال ألم نُرَبِّكَ فينا وليداً ولبثت فينا من عُمُرِكَ سنين • وفعلت فَعْلَتَكَ التي فعلتَ وأنت من الكافرين(٢) • قال فعلتها إذاً وأنا من الضالين(٣) • فَفَرَرْتُ منكم لَمَّا خِفْتُكُمْ فوهب لي ربي حُكْماً(٤) وجعلني من المرسَلين • وتلك نعمة تَمُنُّهَا عَلَيَّ أنْ عَبَّدْتَ(٥) بني اسرائيل » •

(سورة الشعراء ١٨ ـ ٢٢)

فهل هذا جزاء التربية والكرامة التي لقيتها عندنا وأنت وليد ! أن تأتي اليوم لتخالف ما نحن عليه من ديانة ، ولتخرج على الملك الذي نشأت في بيته،

---

(١) قال السدي : « فانطلقا إليه ليلا ، فأتيا الباب فضرباه ، ففزع فرعون وفزع البواب • وقال فرعون : من هذا الذي يضرب بابي في هذه الساعة ؟ فقال موسى : « إني رسول رب العالمين » • قال فرعون للبواب : أدخله •• » •
(تاريخ الطبري ج١ ص ٤٠٤ ، الكامل لابن الأثير ج١ ص ١٨٠)

(٢) الجاحدين بنعمتي •

(٣) الجاهلين •

(٤) نبوة وعلماً •

(٥) جعلتهم عبيداً وخدماً •

وتدعو الى إله غيره • وما بالك لم تتحدث من قبل بشيء عن هذه الدعوة التي تدعيها اليوم • وهل نسيت فعلتك البشعة الشنيعة التي فعلتها حين لم تكن تتحدث عن رب العالمين ؟

وهكذا جمع فرعون كل ما حسبه رداً مفحماً لا يستطيع موسى — عليه السلام — معه جواباً ، ولا يستطيع المقاومة ، وبخاصة حكاية القتل ، وما يمكن أن يعقبها من قصاص ، يتهدده به من وراء الكلمات •

فلم ينكر موسى تربيته وفعلته ، ولكنه أوضح لفرعون أنه لم يكن ذا فضل عليه، لأن تعبيد بني اسرائيل وقصدهم بذبح أبنائهم هو السبب في تربيته عنده ، ولولا ذلك لرباه أبواه • فما يمننه به ويحسبه نعمة هو نقمة في حقيقته، ولا ضير على موسى مما فعل قبل أن يوحى إليه ويوهب النبوة والعلم •

وبعد ذلك سأل فرعون : « وما رب العالمين » ؟

— قال موسى : « رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين »، فهو رب هذا الكون الهائل الذي لا يبلغ إليه سلطانك — يا فرعون — ولا علمك ، وهو الخالق لكل شيء والهادي لكل شيء إن كانت لكم قلوب موقنة وأبصار نافذة •

— فالتفت فرعون الى من حوله من القادة والسادة متعجباً مما يسمع ، لعله يصرفهم عن التأثر به • « قال لمن حوله : ألا تستمعون »؟ ألا تستمعون الى هذا القول العجيب الغريب الذي لا عهد لنا به ، ولا قاله أحد نعرفه !

— ولم يلبث موسى أن ألقى عليهم صفة أخرى من صفات رب العالمين • قال : « ربكم ورب آبائكم الأولين » •فهو خالقكم وخالق آبائكم الذين عاشوا قبل زمانكم • وهذه أشد مساساً بفرعون ودعواه ؛ فهو يجبهه بأن رب العالمين هو ربه ، وما فرعون إلا واحد من عبيده ، لا إله كما يزعم لقومه ! ولهم

رب هو الله ، وليس فرعون ربهم . والله هو رب آبائهم الأولين ؛ فالوراثة التي تقوم عليها ألوهية فرعون دعوى باطلة . فما كان من قبل إلا الله رب العالمين !

ـ وإنها للقاصمة لفرعون، فما يطيق عليها سكوتاً، والملأ حوله يستمعون، ومن ثمَّ يرمي قائلها في تهكم بالجنون . « قال : إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون » ! حيث يدعي أن في الوجود رباً غيره .

ـ ولكن هذا التهكم لا يفت في عضد موسى ، فيمضي في طريقه يصدع بكلمة الحق التي تزلزل الطغاة والمتجبرين . « قال : رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون » . فهو المنظم للكون المسير لأجرامه الذي جعل الكواكب تطلع من الشرق وتغرب في الغرب.وهذان الحدثان العظيمان لايجرؤ فرعون ولا غيره من المتجبرين أن يدعي تصريفهما ، فمن يصرفهما إذن ، ومن ينشئهما بهذا الاطراد الذي لا يتخلف مرة ، ولا يبطىء عن أجله المرسوم ؟

إن هذا التوجيه يهز القلوب هزاً ، ويوقظ القلوب الغافلة ايقاظاً. وموسى ـ عليه السلام ـ يثير مشاعرهم،ويدعوهم الى التدبر والتفكير لعلهم يعقلون. وهاهي الآيات الدالة على ذلك :

« قال فرعون وما رب العالمين .

قال رب السموات والأرض وما بينهما ان كنتم موقنين .

قال لمن حوله ألا تستمعون .

قال ربكم ورب آبائكم الأولين .

قال إنَّ رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون .

قـال « رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون » .

(سورة الشعراء ٢٣ ـ ٢٨)

ـ وتابع موسى التعريف بربه فقال : إنه الذي أعطى خليقته كل شيء يحتاجون إليه ويرتفقون به ، وأعطي كل شيء صورته وشكله الذي يطابق المنفعة المنوطة به ، وهدى كل شيء الى وظيفته التي خلقه لها .

ـ وحاول فرعون أن يصرف موسى عن دعوته بسؤاله عن أحوال الأمم الماضية . « قال : فما بال القرون الأولى » ؟

ـ « قال : علمها عند ربي في كتاب[1] لا يضل ربي ولا ينسى[2] » .

فعملهم مضبوط عليهم ، وسيجزيهم الله به ، فهو لا يفوته صغير ولا كبير، ولا ينسى شيئاً ، وهو الذي جعل لكم الأرض مهداً تستقرون عليها ، وجعل فيها طرقاً تمشون في مناكبها ، وهو الذي أنزل من السماء ماء ، فأخرج به أنواع النباتات لطعامكم ورعي أنعامكم ، وأنتم خُلقتم من الأرض وإليها تصيرون حين تموتون ، ومنها تُخرجون يوم القيامة :

« قال فمن ربُّكما يا موسى .

قال ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى .

قال فما بالُ القُرُونِ الأولى .

قال علمها عند ربي في كتاب[1] لا يَضِلُّ ربي[2] ولا ينسى . الذي جعل لكم الأرض مَهْداً وسلك[3] لكم فيها سُبُلا[4] وأنزل من السماء ماءً فَأخرجنا به أزواجاً من نبات شَتَى . كلوا وارعوا أنعامكم إنَّ في ذلك لآيات[5] لأولى النُّهى[6] . منها خلقناكم وفيها نُعيدكُم ومنها نُخرِجُكُم تارة أُخرى[7] » .

(سورة طه ٤٩ـ٥٥)

---

(١) أي اللوح المحفوظ . (٢) لا يشذ عنه شيء . (٣) جعل .
(٤) طرقاً . (٥) لدلالات وبراهين .
(٦) لذوي العقول . (٧) مرة أخرى .

وبذلك يكون موسى ـ عليه السلام ـ قد حاول اقناع فرعون كما حاول من قبل نوح وإبراهيم عليهما السلام ، فالتفكير في الكون والنظر الى ما فيه من حكمة وتناسق ونظام يؤدي الى الإيمان ؛ فهذه الأرض الممهدة للحياة ، وهذه الطرق التي تشق جبالها وتصل بين أطرافها ، وهذا الماء الذي ينزل من السماء فتخرج به النباتات المختلفة الألوان مما يأكل الناس والأنعام أدلة واضحة لمن أراد الإيمان أو كان له قلب يعقل به .

وان العلم يحدثنا في هذا العصر بأن الزوجية لدى النباتات كالزوجية المعروفة عند الناس والحيوانات ؛ فالزهرة تشمل على أعضاء مذكرة تتكون من الأسدية التي تحوي غبار الطلع ، وأعضاء مؤنثة تعرف باسم المدقة أو الأخبية التي تحوي البييضات . وقد يجتمع الزوجان في زهرة واحدة ، أو ينفصلان ، وقد تكون بعض الأشجار مذكرة لا تثمر ، وبعضها الآخر يحتاج الى عملية تلقيح كالنخيل .

وكذلك تنقسم الأشياء كلها الى زوجين اثنين ، مما لا يتسع المجال لتفصيله ، ويشير إليه قوله تعالى :

« ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تَذَكَّرُون » .

(سورة الذاريات ٤٩)

وهذا ما يجعل كل مفكر وعالم يؤمن بالله الخالق المبدع . ثم إن خلق الإنسان وابداع الكون واخراج النبات ليوحي بالنشأة الأخرى يوم القيامة.

فهل اقتنع فرعون واستجاب لرسول ربه ؟

١٠ ـ المعجـزات الباهـرة

لم يرد فرعون أن يقتنع ، بل أراد أن يكف الرسول عن دعوته ، ولجأ الى القوة بعد أن أعيته الحجة ، فهدد موسى بالسجن ان اتخذ إلهـاً غيره ، وحينئذ أراه موسى ما جاء به من معجزات تدل على صدقه ، فما كان منه إلا أن اتهمه بأنه ساحر ، وتآمر مع ملئه عليه :

« قال لَئِن اتخذت إلهاً غيري لأجعلنَّكَ من المسجونين ·

قال أوَلو جئتك بشيء مبين ·

قال فَأتِ به إن كنت من الصادقين ·

فَألقى عصاه فـاذا هي ثعبان[١] مبين · ونزع يده فاذا هـي بيضاء للناظرين · قال للملأ حوله إنَّ هذا لساحر عليم · يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره فمـاذا تأمرون · قالـوا أرْجِـهْ[٢] وأخَاهُ وابعث في المدائن حاشرين[٣] · يأتوك بكل سَحَّار عليم » ·

(سورة الشعراء ٢٩ـ٣٧)

لقد أحس فرعون بضخامة المعجزة وقوتها ، فأسرع يقاومها ويدفعهـا ، وهو يحس ضعف موقفه ، ويكاد يتملق القوم من حوله ، ويهيج مخاوفهم من موسى وقومهْ ، فيطلب أمرهم ومشورتهم · وهكذا يفعل الطغاة حين يحسون

---

(١) الثعبان هو العظيم من الحيات · وقد قيل بأن العصا انقلبت حية دقيقة تسعى كأنها جان لما كان موسى في الوادي المقدس ، وانقلبت ثعباناً كبيراً ضخماً أمام فرعون · كما قيل إنها في الحالتين انقلبت ثعباناً ضخماً سريع الحركة كالجان·

(٢) أخـِّرهُ ·

(٣) جنداً يجمعون السحرة ·

أن الأرض تتزلزل تحت أقدامهم،حينئذ يلينون في القول بعد التجبر،ويلجؤون الى الشعوب ، وقد كانوا يدوسونها بالأقدام ، ويتظاهرون بالشورى في الأمر بينما كانوا يستبدون بالهوى .

ولم يكن الملأ مخالفين لرأي فرعون ، ولم ينظروا الى الأشياء بغير منظاره، ولم يتكلموا بغير لسانه ، فقد أشاروا بارجاء موسى الى موعد يجتمع فيه السحرة المهرة لاقامة مباراة بينهم وبينه .

ولم يلتفتوا الى قوله بأنه رسول من رب العالمين لا يقول إلا الحق وقد جاء بالبينات :

« ثم بعثنا من بعدهم موسى بآياتنا إلى فرعون وملائه فظلموا بها فانظر كيف كان عاقبة المفسدين . وقال موسى يافرعونُ إنّي رسولٌ من رب العالمين . حقيقٌ[1] على أن لا أقولَ على الله إلا الحق قد جئتكم ببينة من ربكم فأرسلْ معيَ بني اسرائيل .

قال إنْ كنتَ جئت بآيَة فأتِ بها إن كنت من الصادقين .

فألقى عصاه فاذا هي ثعبان مبين . ونزع يده فاذا هي بيضاء للناظرين .

قال الملأ من قوم فرعون إن هذا لساحرٌ عليم . يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره فماذا تأمرون .

قالوا أرْجِهْ وأخاه وأرسل في المدائن حاشرين يأتوك بكل ساحر عليم » . (سورة الأعراف ١٠٣ـ١١٢)

(١) أي حريص .

وهكذا حكم فرعون ووجهاء قومه على موسى بأنه ساحر ، وان دعواه ليست سوى ستار للوصول الى الحكم ، يريد بها القضاء على الملك الشرعي واغتصاب الحق من أهله وتجريدهم من سلطانهم واخراجهم من أرضهم ، وطلبوا منه تحديد موعد ليجتمع بالسحرة :

« ولقد أرَيناه آياتنا كلَّها فكَذَّبَ وأبى . قال أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى فلنأتينك بسحر مثله فاجعل بيننا وبينَكَ موعدا لا نُخْلِفُهُ نحن ولا أنت مكاناً سُوى[1] .

قال موعدُكُم يومُ الزينة[2] وأن يحشر الناس ضحى » .

(سورة طه ٥٦ـ٥٩)

وتم تحديد المكان على أرض مستوية متوسطة بين الناس في ضحى يوم عيدهم وزينتهم ليكون الأمر أبعد عن الريبة وأبين لكشف الحق ، وليجتمع كل الناس فيشاهدوا المعجزة .

---

(١) من الاستواء ، أي مستوٍ بين الناس ، ومستوٍ حين يُرى .

(٢) يوم عيد كان لهم ، أو يوم النيروز ، أو يوم وفاء النيل فإنه أعظم أعيادهم .

١١ ـ ايمـــان السحـرة

يطلق السحر على معانٍ :

أحدها : ما لطف ودق • وكل من استمال أحداً فقد سحره • ومنه حديث رسول الله ﷺ : « إن من البيان لسحراً، أو إن بعض البيان سحر[١] » • ومنه قول الشعراء : « سحر العيون » لاستمالتها النفوس •

ثانيها : ما يقع بخداع وتخيلات لا حقيقة لها ، نحو ما يفعله المشعوذ من صرف الأبصار عما يتعاطاه بخفة يده ، فهو يظهر عمل شيء يذهل أذهان الناظرين به ، ويأخذ عيونهم إليه ، حتى إذا استفرغهم الشغل بذلك بالتحديق ونحوه ، عمل شيئاً آخر بسرعة شديدة • وحينئذ يظهر لهم غير ما انتظروه ، فيتعجبون منه جداً • ولو أنه سكت ولم يتكلم بما يصرف الخواطر الى ضد ما يريد أن يعمله ، ولم تتحرك النفوس والأوهام الى غير ما يريد اخراجه ، لفطن الناظرون لكل ما يفعله ، وقد يستعين في ذلك ببعض الوسائل كالمغناطيس والمركبات الكيميائية •

ثالثها : ما يحصل بمعاونة الشياطين بضرب من التقرب إليهم ، والى ذلك الاشارة بقوله تعالى :

« ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر » •

(سورة البقرة ١٠٢)

واختلف في السحر ، فقيل هو تخيل فقط ولا حقيقة له • وهذا اختيار

---

(١) أخرجه البخاري عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما (٥٧٦٧) •

أبي جعفر الاسترباذي من الشافعية وأبي بكر الرازي من الحنفية وابن حزم الظاهري وطائفة .

قال النووي : « والصحيح أن له حقيقة ، وبه قطع الجمهور ، وعليه عامة العلماء ، ويدل عليه الكتاب والسنة الصحيحة المشهورة » .

لكن محل النزاع هل يقع بالسحر انقلاب عين أولا ؟

فمن قال : إنه تخييل فقط ، منع ذلك . ومن قال : إن له حقيقة اختلفوا، هل له تأثير فقط بحيث يغير المزاج ، فيكون نوعاً من الأمراض ، أو ينتهي الى الاحالة ، بحيث يصير الجماد حيواناً مثلا ، وعكسه ؟ فالذي عليه الجمهور هو الأول ، وذهبت طائفة قليلة الى الثاني .

قال المازري : « جمهور العلماء على اثبات السحر ، وأن له حقيقة ، ونفى بعضهم حقيقته ، وأضاف ما يقع منه الى خيالات باطلة ؛ وهو مردود لورود النقل باثبات السحر ، ولأن العقل لا ينكر أن الله قد يخرق العادة عند نطق الساحر بكلام ملفق أو تركيب أجسام أو مزج بين قوى على ترتيب مخصوص، وقيل : لا يزيد السحر على ما ذكر في قوله تعالى :

« يفرقون به بين المرء وزوجه » .
(سورة البقرة ١٠٢)

لكون المقام مقام تهويل ، فلو جاز أن يقع به أكثر من ذلك لذكره .

قال : « والصحيح من جهة العقل أنه يجوز أن يقع به أكثر من ذلك ، والآية ليست نصاً في منع الزيادة ، ولو قلنا إنها ظاهرة في ذلك .

« والفرق بين السحر والمعجزة والكرامة :

أن السحر يكون بمعاناة أقوال وأفعال حتى يتم للساحر ما يريد .

والكرامة لا تحتاج الى ذلك ، بل إنما تقع غالباً اتفاقاً .

وأما المعجزة فتمتاز عن الكرامة بالتحدي ».

ونقل إمام الحرمين الاجماع على أن السحر لا يظهر إلا من فاسق ، وأن الكرامة لا تظهر على فاسق .

وقال القرطبي : « السحر حيل صناعية ، يتوصل إليها بالاكتساب غير أنها لدقتها لا يتوصل إليها إلا آحاد الناس . ومادته الوقوف على خواص الأشياء والعلم بوجوه تركيبها وأوقاته . وأكثرها تخيلات بغير حقيقة وابهامات بغير ثبوت ، فيعظم عند من لا يعرف ذلك . والحق أن لبعض أصناف السحر تأثيراً في القلوب كالحب والبغض والقاء الخير والشر ، وفي الأبدان بالألم والسقم ، وإنما المنكور أن الجماد ينقلب حيواناً أو عكسه بسحر الساحر ونحو ذلك[1]» .

ولقد كان السحر فاشياً في قوم فرعون ؛ ولهذا نظر فرعون وملؤه الى موسى ــ عليه السلام ــ على أنه واحد من هؤلاء السحرة . وكانوا جميعهم يقدمون آيات الخضوع والطاعة لفرعون ، ولم ينكر أي واحد منهم ألوهيته واخضاع الناس له ، فإذا جاء السحرة بمثل ما جاء به موسى ــ عليه السلام ــ فإن حجته لا يبقى لها أثر ،ولا يصدَّق في دعواه .

ولم يحرص السحرة إلا على الشهرة والحظوة عند فرعون وعلى الجائزة والأجر ، ولهذا اطمأنوا على أجرهم أولاً :

---

(١) فتح الباري ج١٠ ص ٢٢٢ ــ ٢٢٣ ، تفسير ابن كثير ج١ ص ١٤٦ . الجامع لاحكام القرآن ــ القرطبي ج٢ ص ٤٣ ــ ٥٠ .

« وجـاء السحرة[1] فرعون قالوا إنّ لنا لأجراً إن كنا نحـن الغالبين • قال نعم وإنكم لمن المُقرّبين » •

(سورة الأعراف ١١٣ ــ ١١٤)

وكان القصد من جمع الناس صدهم عن موسى عليه السلام ، واعلانهم الخضوع والتأييد لفرعون الذي يعمل السحرة من أجله :

« فجمـع السحرة لميقات يوم معلوم • وقيل للناس هـل أنتم مجتمعون • لعلنا نتبـع السحرة إن كانوا هـُـمُ الغالبين • فلمـا جاء السحرة فرعون قالوا أئِنّ لنا لأجراً إنْ كنا نحن الغالبين • قال نعم وإنكم إذاً لمن المقربين » •

(سورة الشعراء ٣٨ــ٤٢)

---

(١) عن ابن عباس : كان السحرة سبعين رجلا •
وقال مقاتل والكلبي : كانوا سبعين ويرأسهم اثنان غيرهم •
وقال كعب الأحبار : كانوا اثني عشر ألفاً •
وقال محمد بن اسحق : كانوا خمسة عشر ألفاً •
وقال الثوري : كانوا تسعة عشر ألفاً •
وقال السدي : بضعة وثلاثين ألفاً •
وقال القاسم بن أبي برة : كانوا سبعين ألفاً •
وقيل : اختار من السبعين ألفاً سبعة آلاف • ثم اختار من هؤلاء سبعين •
وقال محمد بن كعب : كانوا ثمانين ألفاً •
ولو كانوا على هذه الكثرة لما تمكن فرعون من توجيه التهديد إليهم • وعدد السبعين مقبول وان كان يدل على الكثرة • والله أعلم • (تاريخ الطبري ج١ ص ٤٠٧ ، الكامل لابن الأثير ج١ ص ١٨٢ ، قصص الأنبياء للثعلبي : ١٦١ ، تفسير النسفي ج٢ ص ٧٤ ، تفسير ابن كثير ج٢ ص ٢٣٧ ، ج٣ ص ١٥٨) •

وحين التقى موسى ــ عليه السلام ــ بالسحرة حاول أن يثنيهم عما جاؤوا له ، وأن يمنعهم من الكذب والخداع . وكان لكلمته أثر في قلوب بعضهم ، مما جعلهم يترددون في اقدامهم ، ويشكون في عقيدتهم وقدرتهم ؛ حتى تناجوا فيما بينهم ، وراحوا يحمسون المترددين ويشجعونهم ، فآثروا المضي في طريقهم والاستمرار في كيدهم، وهم يظنون أن موسى وأخاه ساحران يريدان أن يستوليا على الناس ، وأن تكون لهما مكانة عالية في الأرض . وتحدوا موسى بأن يلقي أولاً أو أن يلقوا قبله :

« فتولى فرعون فجمع كيده[1] ثم أتى . قال لهم موسى وَيلكم لا تفتروا على الله كذباً فيُسْحِتكُمْ[2] بعذاب وقد خاب[3] مَن افترى[4] . فتنازعوا أمرهم بينهم وأسرُّوا النجوى . قالوا إنْ هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ويذهبا بطريقتكم المُثْلَى . فأجمعوا كيدكم ثم أتوا صفاً وقد أفلح اليومَ من استعلى . قالوا يا موسى إمَّا أن تُلقِيَ وإمَّا أن نكون أول مَنْ ألقى . قال بل ألقوا فاذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى » .

(سورة طه ٦٠ ــ ٦٦)

ومع أن فعل السحرة كان تخيلاً وخداعاً للأعين فقد كان له وقع كبير في أعين الناس ورهبة شديدة في قلوبهم :

(١) مكره وسحرته .
(٢) يهلككم ويستأصلكم .
(٣) لم ينل ما طلب .
(٤) كذب .

« قالوا يا موسى إمَّا أن تلقي وإمَّا أن نكون نحن الملقين • قال ألقُوا فلما ألقَوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاؤا بسحر عظيم » •

(الأعراف ١١٥ ــ ١١٦)

أجل ، كان سحرهم عظيماً حتى إن موسى ــ عليه السلام ــ خاف على الناس أن يفتنوا بسحرهم ، وأن يغتروا به وحينئذ سمع نداء ربه يسبغ عليه الأمن ، ويبشره بالفوز ، ويأمره بإلقاء عصاه :

« فأوجس[١] في نفسه خِيفة موسى • قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى[٢] • وألقِ ما في يمينك تَلْقَفْ ما صنعوا[٣] إنما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى • فأُلقيَ السحرة سجداً قالوا آمنا برب هارون وموسى » •

(سورة طـه ٦٧ ــ ٧٠)

وما أن ألقى عصاه حتى صارت تِنِّيناً[٤] عظيماً هائلاً يتتبع تلك الحبال ويبتلعها حتى لم يُبق منها شيئاً ، والناس ينظرون الى ذلك عياناً جهرة نهاراً ضحوة • فقامت المعجزة ، واتضح البرهان ، وبطل السحر ، فلما عاين السحرة ذلك وشاهدوه ، وهم ذوو الخبرة بفنون السحر وطرقه ووجوهه ، وقد بذلوا غاية الجهد في فنهم الذي عاشوا به وأتقنوه ، وجاؤوا بأقصى ما يملك السحرة أن يصنعوه وهم جمع كثير محشود من كل مكان • وموسى وحده ، وليس

---

(١) اضمر في نفسه خوفاً •

(٢) الغالب والقاهر •

(٣) ما زوّروا وافتعلوا •

(٤) ثعبانـاً •

معه إلا عصاه فإذا هي تلقف حبالهم وعصيهم ولا تبقي لها أثراً ، ولو كان ماجاء به موسى سحراًلبقيت حبالهم وعصيهم بعد أن رأوا أن حية موسى ابتلعتها . فلما عاينوا ذلك علموا علم اليقين أن هذا الذي فعله موسى ليس من قبيل السحر والحيل ، وأنه حق لامرية فيه ؛ فعند ذلك خـرّوا سجداً لله ، وكانوا أول المؤمنين برب العالمين ، وصاروا يطلبون منه المغفرة بعد أن كانوا يبتغون عند فرعون العزة ، ولم يبالوا باتهام فرعون الذي زلزل عرشه ، وامتلأ صدره حنقاً وغيظاً ، وراح يهدد ويتوعد :

« قـال لهـم موسى ألقـوا ما أنتم ملقون . فألقـوا حبالهـم وعِصِيَّهم وقالوا بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون . فَألقى موسى عصـاه فَـإذا هـي تَلْقَفُ مـا يأفِكُون(١) فَأُلقِيَ السحـرةُ ساجدين . قالوا آمنا برب العالمين . رب موسى وهارون .

قال آمنتم لـه قبل أن آذَنَ لكم إنـّه لكبيرهم الـذي علمكم السحر(٢) فلسوف تعلمون . لأُقَطِّعَنَّ أيديكـم وأرجلكم مـن خِلاف(٣) ولأُصَلِّبَنَّكُمْ أجمعين .

قالوا لا ضَيْرَ(٤) إنا إلى ربنا منقلبون . إنا نطمع أن يغفر لنا ربنا خَطايانا أنْ كنا أوّل المؤمنين » .

(سورة الشعراء ٤٣ ــ ٥١)

---

(١) تبتلع ما يلقونه ويوهمون أنه حيات .

(٢) لعـل بعض هـؤلاء السحرة ــ وهـم من الكهنـة ــ كانوا يتولون تربية موسى في قصر فرعون حين تبناه ، أو كان يختلف إليهم في المعابد ؛ فارتكن فرعون الى هذه الصلة البعيدة ، وقلب الأمر ، فبدلا من أن يقول : إنه لتلميذكم قال : « إنه لكبيركم » ليزيد الأمر ضخامة وتهويلا في أعين الجماهير .

(٣) يعني قطع اليد اليمنى مع الرجل اليسرى ، وبالعكس .

(٤) أي : لا يضرنا ذلك ولا نبالي به .

فلم يعد يهمهم أن يدفعوا التهمة عن أنفسهم بأنهم تعلموا السحر من موسى ، أو أنهم علموه وتآمروا معه ، ولم يبالوا بأن تقطع أطرافهم أو تزهق أرواحهم . فقد أشرقت قلوبهم بنور الله ، وسمت نفوسهم فوق متطلبات أجسادهم ، وأمسوا يسألون الله الصبر والثبات على الدين :

« وأوحينا الى موسى أن ألقِ عصاك فاذا هي تلقف ما يأفكون . فوقع الحق وبَطلَ ما كانوا يعملون . فغُلِبوا هنالك وانقلبوا صاغرين[1] . وألقيَ السحرة ساجدين . قالوا آمنا برب العالمين رب موسى وهارون .

قال فرعون آمنتم به قبل أن آذن لكم إنّ هذا لمكرٌ مكرتموه في المدينة لتخرجوا منها أهلها فسوف تعلمون . لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خِلاف ثم لأصلبنكم أجمعين .

« قالوا إنا إلى ربنا منقبلون . وما تنقم منا إلاّ أن آمَنّا بآيات ربنا لما جاءتنا ربنا أفرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين » .

(سورة الأعراف ١١٨ـ١٢٦)

وإن الإيمان حين يغمر الجنان يغير أفكار الإنسان ومواقفه ، فبعد أن كان السحرة يحرصون على الأجر والزُلْفَى لدى فرعون ، صار حرصهم على الثواب والدرجات العُلى في الآخرة . وبعد أن كانوا طوعَ فرعون ورهن إشارته ، صاروا يتحدونه ويدعون الى الإيمان بالله واليوم الآخر .

« قال آمنتم له قبل أن آذن لكم إنه لكبيركم الذي علمكم السحر فلأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم في جذوع النخل ولتَعْلَمُنّ أينا أشد عذاباً وأبقى .

---

(١) صاروا أذلاء مبهوتين .

قالوا لن نؤثرك[1] على ما جاءنا من البينات والذي فطرنا فَاقْضِ ماأنت قاض[2] إنما تقضي هذه الحياة الدنيا • إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر والله خير وأبقى • إنه من يأتِ ربه مجرماً فان له جهنم لا يموت فيها ولا يحيي • ومن يأتِهِ مؤمناً قد عمل الصالحات فأُولئك لهم الدرجاتُ العُلى • جنات عدن[3] تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء من تَزَكَّى[4] » •

(سورة طه ٧١ـ٧٦)

وهكذا آمن السحرة ولم توهنهم تهديدات فرعون ، فالأجر الذي أعد لهم لا يفي به كل ما في خزائنه ، والجنات التي لاحت لهم لا يشبهها شيء من قصوره •

قال ابن عباس وعبيد بن عمير وقتادة وابن جريج : « كانوا في أول النهار سحرة ، وفي آخره شهداء بررة[5] » •

---

(١) لن نختارك •

(٢) اصنع ما بدا لك ، أو احكم ما أنت حاكم •

(٣) اقامة •

(٤) تطهر من أدناس الذنوب ، وعبد الله وحده •

(٥) الكشاف للزمخشري ج٢ ص ١٠٠ـ١٠٤ ، ٥٣٩ـ٥٤٦ ، ج٣ ص ١٠٨ـ١١٣
تفسير النسفي ج٢ ص ٧٣ـ٧٦ ، ج٣ ص ٥٦ـ٦٢ ، ١٨٢ـ١٨٦ •
تفسير ابن كثير ج٢ ص ٢٣٥ـ٢٣٨ ، ج٣ ص ١٥٤ـ١٦٠ ، ٣٣٢ ـ ٣٣٥ •
في ظلال القرآن ج٥ ص ٢٥٨٩ـ٢٥٩٧ •

١٢ ـ استكبار فرعون

ما كان فرعون ليجهل ان ما جاء به موسى هو الحق ، ولكنه آثر الطغيان والملك على الانصياع للحق الذي يحرر الناس من جبروته ويخفض من كبريائه:

« فلما جاءتهم آياتنا مبصرة[١] قالوا هذا سحر مبين • وجحدوا بها[٢] واستيقنتها أنفسهم[٣] ظلماً وعلواً[٤] فانظر كيف كان عاقبة المفسدين » • (سورة النمل ١٣ـ١٤)

وما كان فرعون ليدع الناس أن يؤمنوا بالحق لما جاءهم، بل كان يصد عن سبيل الله ، ويتظاهر بالمحافظة على دين الآباء ، ذلك الدين الذي يستند الى عبادة الأصنام ، والذي يستمد منه حقه في التحكم برقاب البشر ، ومن ثم هدد كل من يؤمن •

بينما كان موسى ـ عليه السلام ـ يدعو الى الحق ، وينهى عن الفساد ، ويثبت أتباعه :

« ثم بعثنا من بعدهم موسى وهارون الى فرعون وملئه بآياتنا فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين • فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا إنّ هذا لسحر مبين • قال موسى أتقولون للحق لمّا جاءكم أسحرٌ هذا ولا يفلح الساحرون • قالوا أجئتنا لِتلْفِتنا[٥] عما وجدنا

(١) ظاهرة بينة •
(٢) انكروها •
(٣) علموا في أنفسهم أنها حق من عند الله •
(٤) ترفعا عن الايمان •
(٥) لتصرفنا •

عليه آباءنا وتكون لكما الكبرياء في الأرض وما نحن بمؤمنين • وقال فرعون ائتوني بكل ساحر عليم • فلما جاء السحرة قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون • فلما ألقوا قال موسى ما جئتم به السحر إنّ الله سيبطله إن الله لا يصلح عمل المفسدين • ويحق الله الحقَ بكلماته ولو كره المجرمون • فما آمن لموسى إلاّ ذرية من قومه[1] على خوف من فرعون وملائهم أن يفتنهم[2] وإن فرعون لعال في الأرض وإنه لمن المسرفين • وقال موسى يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين • فقالوا على الله توكّلْنا ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين • ونجنا برحمتك من القوم الكفرين » • (سورة يونس ٧٥ ـ ٨٦)

لقد وصفوا الحق بالسحر ، مع أن السحر لا يستهدف هداية الناس ، ولا يتضمن عقيدة، وليس له فكرة معينة عن الألوهية وعلاقة الخالق بالمخلوق، ولا هدف له إلا التخيل للأنظار والخداع للعقول •

وقد ظن فرعون أنه يستطيع بتظاهره بالمحافظة على معتقدات الآباء وباتهامه موسى بالسحر والكذب ، وباستكباره وادعائه الألوهية أن يصرف الناس عن الايمان :

« فلما جاءهم موسى بآياتنا بينات قالوا ما هذا إلا سحر مفترى[3] وما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين • وقال موسى ربي أعلم

(١) طائفة من أولاد بن اسرائيل •

(٢) أن يعذبهم •

(٣) مفتعل ، مصنوع •

بمن جاء بالهُدى من عنده ومن تكون له عاقبة الدار[1] إنَّه لايفلح الظالمون • وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من إلــه غــيري فأوقد لي يا هامان على الطين فاجعل لي صرحا[2] لعلي أطَّلع الى إله موسى وإني لأظنه من الكاذبين • واستكبر هو وجنوده في الأرض بغير الحق وظنوا أنهم إلينا لا يُرجعون » •

(سورة القصص ٣٦ ـ ٣٩)

ولقد كان رد موسى مهذباً واضحاً مليئاً بالثقة والطمأنينة الى عاقبــة المواجهة بين الحق والباطل ، وكان رد فرعون ادعاءً وتطاولاً وتهكماً وسخرية، إذ ظن أنه يتمكن من اثبات ألوهيته بالصعود في السماء والبحث عن إله موسى الذي لا يتوقع أن يجده ، وأنه بهذا يتوصل الى تكذيب موسى عليه السلام :

« وقال فرعون يا هامان ابنِ لي صرحاً لعلي أبْلُغُ الأسباب • أسباب السماوات[3] فَأطَّلِعَ إلى إلـهِ موسى وإني لأظُنُّه كاذباً وكذلك زُيِّنَ لفرعون ســوء عمله وصُدَّ عن السبيل وما كيــدُ فرعون إلاَّ في تَبَاب[4] » •

(سورة المؤمن ٣٦ ـ ٣٧)

وراح يسخر الناس[5] في صب الطين في القوالب ، وايقاد النار علــى الآجر ، وبناء القصر العالي الذي يريد أن يصعد إليه ، لينظر حوله ويعلن للناس أنه لا يرى إله موسى ، وأنه ليس لهم من إله غيره •

---

(١) أي من النُصرة والظفر والتأييد •

(٢) قصراً عالياً •

(٣) طرقها وأبوابها وما يؤدي إليها •

(٤) خسران وهلاك •

(٥) قيل إنه عمل في الصرح خمسون ألف بناء سوى الأتباع والأجراء في سبع سنين• (الكشاف للزمخشري جـ٣ ص ١٧٨ ، الكامل لابن الأثير جـ١ ص ١٨٥ ، قصص الأنبياء للثعلبي : ١٦٥) •

وما كان خافياً أن فرعون لا يستطيع أن يبلغ عنان السماء ، وأنه أراد اشغال الناس عن التفكير في شأن موسى والتعرف على عقيدته ، وما كان فرعون ليزعم أنه خالق السموات ومدبر الكون ، وإنما كان يقصد أنه الحاكم المطلق المستحق للطاعة التامة .

ولم يستطع بالرغم من كل جهوده أن يحول بين الناس واتباع الحق ، فكان أتباع موسى يتزايدون يوماً بعد يوم ، مما جعله يلجأ الى البطش والقهر من جديد :

« وقال المَلأ من قوم فرعون أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض ويَذَرَكِ وآلِهَتَكَ (١) قال سنُقَتِّلُ أبناءهم ونَسْتَحْيِي نساءهم وإنَّا فوقهم قاهرون . قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا إنَّ الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين . قالوا أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا قال عسى ربكم أن يهلك عَدُوَّكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون » .

(الأعراف ١٢٧ ـ ١٢٩)

ويا للعجب صار أعوان فرعون يشفقون من إفساد موسى وقومه ومن ترك عبادة آلهتهم ! ولم ينكر فرعون وجود آلهة غيره ، ما دامت لا تأمره بأمر ولا تسلبه شيئاً مما استأثر به ، وإنما تباركه وتضفي عليه الصفة الشرعية . وهذا يدل على أن الشرك هو طابع الوثنيات والأديان التي لا تقوم على أساس التوحيد .

---

(١) قال ابن عباس : كانت البقر ، كانوا إذا رأوا بقرة حسناء أمرهم أن يعبدوها (تاريخ الطبري جـ١ ص : ٤١٣) .

ومضى فرعون يفتك بقوم موسى بقتل أبنائهم والابقاء على نسائهم ، وكان قد جرب هذه الوسيلة من قبل ولادة موسى حذراً من وجوده ، فكان خلاف ما رامه وضد ما قصده ، ثم كف عن قتل الولدان بعد أن أصبح موسى رضيعاً في بني اسرائيل ، أو بعد أن زال عنهم شبح الخوف من وجوده ، فعاد الى هذه العقوبة غيظاً وظناً منه أنه يمنعهم بها من الايمان ، ويصدهم بذلك عن مظاهرة موسى عليه السلام ، ويجعلهم قلة ضعافاً . وهيهات ! فان العقوبة لا تزيد العقيدة إلا شدة ، وإن الانتقام لا يزيد المؤمن إلا إيماناً ، كيف لا ، وموسى بين قومه المؤمنين به يوجههم ويثبتهم ، ويعدهم بالظفر بعد الصبر ، وبالنصر بعد القهر ، وبحلول النعم وزوال النقم(1)

وهكذا تمادى فرعون في استكباره وتكذيبه ، وفي كيده وتعذيبه، ليزداد عذاباً وضلالاً :

« ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين إلى فرعون وهامان وقارون(2) فقالوا ساحر كذّاب . فلما جاءهم بالحق من عندنا قالوا اقتلوا ابناء الذين آمنوا معه واستحيوا نساءهم وما كيد الكافرين إلاّ في ضلال(3) » .

(المؤمن ٢٣ ـ ٢٥)

وما عاقبة التكبر والتكذيب إلا الهلاك والخسران :

« ثم أرسلنا موسى وأخاه هارون بآياتنا وسلطان مبين . إلى

(١) تفسير ابن كثير جـ٢ ص ٢٣٩ .

(٢) قارون : واحد من قوم موسى ، يقال انه ابن عمه ، أتاه الله المال الكثير ، فبغى وتكبر وأفسد وكفر ، فخسف الله به وبداره الأرض .

(٣) ضَياع .

فرعون وملائه فاستكبروا وكانوا قوماً عالين[1]. فقالوا أنؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون[2] . فكذبوهما فكانوا من المهلكين » .

(سورة المؤمنون ٤٥ ـ ٤٨)

وبذلك كانت حجة فرعون وملئه هي حجة الكافرين من قبلهم : الكبر والاستنكاف عن الايمان بواحد من البشر يرونه أقل منهم مالاً وجاهاً ، فكيف إذا كان قومه مهانين مستضعفين ! أما الآيات والسلطان المبين الذي مع الرسول فلا إيقاع لها في مثل تلك القلوب المطموسة المستغرقة في ملابسات هذه الأرض وأوضاعها الباطلة وقيمها الرخيصة[3] .

---

(١) متكبرين .

(٢) خاضعون مطيعون .

(٣) في ظلال القرآن ص ٢٤٦٨ ـ ٢٤٦٩ .

١٣ ـ فتنــــة المـــال

أراد موسى ـ عليه السلام ـ أن يعبد قومه الذين آمنوا الله وحـده ويقيموا الصلاة ، ولكن فرعون كان يتعقبهم ويضيق عليهم ، ويغري ضعاف الإيمان بالمال ، وأدرك موسى أن الأموال التي وهبها الله لفرعون وملئه جعلتهم يطغون ويضلون فدعا عليهم بهلاك أموالهم عسى أن تؤدي الشدة الى رقـة قلوبهم ؛ فيكفوا عن الضلال والصد عن سبيل الله ، ويكونوا من المؤمنين :

« وأوحينا الى موسى وأخيه أن تَبَـوَّآ(١) لقومكما بمصر بيوتاً واجعلوا بيوتكم قبلة(٢) وأقيموا الصلاة وبشر المؤمنين • وقـال موسى ربَّنا إنك آتيت فرعون وملائه زينة وأموالا في الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك ربنا اطمِس على أموالهم(٣) واشدُد على قلوبهم(٤) فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم • قال قـد أجيبت دعوتُكم فاستقيما ولا تتبعانّ سبيل الذين لا يعلمون » •

(سورة يونس ٨٧ ـ ٨٩)

---

(١) تبوأ المكان : اتخذه مباءة ، كتوطنه : اتخذه موطناً • والمعنى : اجعلوا بمصر بيوتاً مباءة لقومكما ، ومرجعاً يرجعون إليه للعبادة والصلاة فيه •

(٢) أي مساجد • وقيل معناه : كثرة الصلاة فيها وقيل : لم يكونوا يقدرون على اظهار عبادتهم فأمروا أن يصلوا في بيوتهم • وقيل متقابلة ومتميزة عن بيوت القبط • (البداية والنهاية ـ ابن كثير ج١ ص ٢٦٩) •

(٣) أي أهلكها •

(٤) اطبع على قلوبهم •

والآية الأولى توضح منزلة الصلاة في شريعة موسى عليه السلام ، فقد أُمر بها منذ بعثته بجانب الطور :

« فاعبدني وأقم الصلاة لذكري » .
(سورة طه ١٤)

وأمر أتباعه بأن يقيموها في مساجد يرجعون إليها حيناً بعد حين ، أو أن يقيموها في بيوتهم خفية من الكفرة لئلا يظهروا عليهم فيؤذوهم ويفتنوهم عن دينهم ، أو أن يجعلوا بيوتهم متجاورة يقابل بعضها بعضاً ليصلوا جماعات وفرادى ؛ فالصلاة من علامات الإيمان :

« قد أفلح المؤمنون . الذين هم في صلاتهم خاشعون » .
(سورة المؤمنون ١ ـ ٢)

وهي تثبت القلب وتذهب الهم ، وفي الحديث : « كان رسول الله ﷺ إذا حزبه[١] أمر صلى[٢] » .

وتوضح الآية الثانية مدى الثراء الفاحش الذي كان عليه فرعون وملؤه ، حتى أن أحدهم أوتي من الكنوز ما يثقل على الرجال الأشداء أن يحملوا مفاتيح خزائنه :

« إنّ قارون كان من قوم موسى فبغى[٣] عليهم وآتيناه من الكنوز ما إنّ مفاتحه لَتنوءُ بالعُصبَة[٤] أُولي القوة » .
(سورة القصص ٧٦)

---

(١) أهمه .

(٢) أخرجه أحمد وأبو داود من حديث حذيفة .

(٣) ظلم وتكبر .

(٤) لتثقل الجماعة الكثيرة .

وبدلاً من أن يؤمنوا بالله ويشكروه على نعمه ، كفروا به ، واستعانوا بنعمته على معصيته ، وطغوا في البلاد ، وظلموا العباد ، وصدوا عن سبيل الله بما يدفعونه من مال لجندهم ، وبما يلوحون به من الاغراء لمخالفيهم ؛ مما جعل موسى وأخاه يتوجهان الى الله بالدعاء ليهلك أموالهم ، ويطبع على قلوبهم؛ حتى يسلم المؤمنون من طغيانهم وفتنتهم .

وكثيراً ما كان فرعون يفخر بماله ويزهو بزينته ، ويختال في قصره ، ويستهين بموسى عليه السلام لفقره وضعفه وتجرده من المال والسلطان :

« ونادى فرعون في قومه قال يا قوم أليس لي مُلْكُ مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي أفلا تبصرون . أم أنا خير من هذا الذي هو مَهِين(1) ولا يكاد يُبِين(2) . فلولا أُلقيَ عليه أسْوِرَةٌ من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين(3) . فاستخفَّ قومَهُ فأطاعوه إنهم كانوا قوماً فاسقين » .

(سورة الزخرف ٥١ ـ ٥٤)

ولقد كانت الجماهير المستعبدة المستغلة يبهرها ملك مصر ، والأنهار التي تجري من تحت فرعون ، والمجوهرات التي يضعها على رأسه ويديه ، أما ملك السماوات والأرض وما بينهما ـ ومصر لا تساوي هباءة فيه ـ فلم تتدبره عقولهم ، فهو أمر يحتاج الى قلوب مؤمنة تحسه وتعقله ! .

والجماهير الساذجة الغافلة تحسب أن فرعون خير من موسى عليه السلام،

---

(١) ضعيف حقير .

(٢) يعني : لا يكاد يفصح عن كلامه فهو عيي حصر .

(٣) يمشون معه ، يقترن بعضهم ببعض ليشهدوا بتصديقه .

ومعه كلمة الحق ومقام النبوة ، وتؤخذ بطلب القاء أسورة الذهب وانزال الملائكة ، وتذهل عن المعجزات التي أيد الله بها رسوله الكريم[1] .

ولقد احتمل موسى وقومه العذاب، وصبروا على الابتلاء، وعندما تمحص الموقف: ايمان يقابله الكفر وطغيان يقابله الصبر، وقوة أرضية تتحدى الله، عندئذ تدخلت القوة الكبرى سافرة ؛ فاستجاب الله دعاء موسى ، وأخذ فرعون وآله بسنوات شداد أكلت غلالهم ونقصت محاصيلهم ، ولكنهم بدلاً من أن يتعظوا ويعلموا أنهم أصيبوا بما كسبت أيديهم تطيروا بموسى ومن معه ، وعدّوهم شؤماً عليهم ، ولم يفقهوا أن القحط ونقص الثمار بسبب كفرهم وذنوبهم . ثم أرسل الله عليهم أمطاراً غزيرة ، ففاض الماء على وجه الأرض وغمر دورهم ، وأهلك مواشيهم وأموالهم ، فجاؤوا الى موسى ، وطلبوا منه أن يدعو ربه ليكشف عنهم المطر ، وعاهدوه أن يؤمنوا به ويرسلوا معه بني اسرائيل ، فدعا موسى ربه، فكشف عنهم، وأنبت لهم في تلك السنة من الزروع والثمار والكلأ ما لا مثيل له . فقالوا : هذا ما نتمناه ، ولم يفوا بشيء مما قالوا . فأرسل الله عليهم الجراد ، فلما رأوا أنه لا يبقي الزرع عادوا الى موسى يعاهدونه ويطلبون منه أن يدعو لهم ، فدعا ربه ، فكشف عنهم الجراد ، فداسوا الزروع وأحرزوا الحبوب والثمار في البيوت ، ونقضوا الميثاق ، فأرسل الله عليهم القمّل وهو السوس الذي يأكل الحبوب ، أو الحشرات التي تطفل على الناس، وتمنعهم النوم والقرار، فلما جهدهم رجعوا إليه يستعطفونه ويعاهدونه . ثم نكثوا فأرسل الله عليهم الضفادع ، فملأت البيوت والأطعمة والآنية ؛ فلا يكشف أحد ثوباً ولا طعاماً إلا وجد فيه الضفادع قد غلبت عليه . ولا يتكلم

(١) في ظلال القرآن ص ٣١٩٣ ـ ٣١٩٤ .

أحدهم إلا همَّ الضفدع أن يثب في فيه، فعاهدوه من جديد..ثم نكثوا العهد، فأرسل عليهم الدم ؛ فصارت مياه آل فرعون دماً ، لا يستقون من بئر ولا نهر، ولا يغترفون من إناء إلا عاد دماً عبيطاً[١] ، فتمادوا في الاستكبار والاجرام ، ولم يتعظوا بما جاء به موسى من الآيات البينات[٢] .قال تعالى :

« ولقد أخذنا آل فرعون[٣] بالسنين[٤] ونقص من الثمرات لعلهم يذّكرون . فاذا جاءتهم الحسنة[٥] قالوا لنا هذه[٦] وإن تصبهم سيئة[٧] يطّيروا بموسى[٨] ومن معه ألا إنما طائرهم عند الله ولكن أكثرهم لا يعلمون . وقالوا مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين . فأرسلنا عليهم الطّوفان والجراد والقُمّل والضفادع والدم آيات مفصلات فاستكبروا

---

(١) قيل إن كل آية من الطوفان إلى الدم كانت تبقى سبعة أيام ، ثم يفرج عنهم ، ويقيمون بعدها شهراً أو أربعين يوماً في عافية ؛ فينكثون الأيمان ، وتسلط عليهم الآية الثانية .
(تفسير الكشاف للزمخشري ج٢ ص ١٠٧ ــ ١٠٨ ، قصص الأنبياء للثعلبي : ١٦٧ ــ ١٧٠) .

(٢) الكشاف للزمخشري ج٢ ص ١٠٥ ــ ١٠٩ ، تفسير النسفي ج٢ ص ٧٧ ــ ٧٨، تفسير ابن كثير ج٢ ص ٢٣٩ ــ ٢٤٢ .

(٣) أصل آل أهل ، فأبدلت هاؤه ألفا . وخص استعماله بأولى الخطر كالملوك وأشباههم .

(٤) سني القحط .

(٥) الخصب والرخاء .

(٦) أي هذه مختصة بنا ، ونحن مستحقوها .

(٧) جدب وقحط .

(٨) تشاءموا بهم ، وقالوا : هذا بشؤمهم وبسببهم .

وكانوا قوماً مجرمين • ولما وقع عليهم الرجز[1] قالوا يا موسى ادعُ لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ولنرسلن معك بني اسرائيل • فلما كشفنا عنهم الرجز إلى أجل هم بالغوه اذا هم يَنْكُثُون[2] » •

(سورة الأعراف ١٣٠ ــ ١٣٥)

ولعل قوم فرعون هم الذين كانوا يلجؤون الى موسى عليه السلام ليدعو ربه ، ليكشف عنهم البلاء ، وكانت السلطات الحاكمة بعد ذلك تنكث ولا تستجيب •

وهكذا قابلوا الرسول والآيات الكبيرة التي جاء بها بالغفلة والتكذيب ، وقابلوا العهود التي كانوا يقطعونها على أنفسهم حين يمسهم العذاب بالغدر والاستهزاء :

« ولقد أرسلنا موسى بآياتنا إلى فرعون وملائه فقال إني رسول رب العالمين • فلما جاءهم بآياتنا إذا هم منها يضحكون[3] • وما نُريهم من آية إلا هي أكبر من أُختها وأخذناهم بالعذاب لعلهم يرجعون • وقالوا يا أيُّهَ الساحر[4] ادعُ لنا ربك بما عهد عندك إننا لمهتدون • فلما كشفنا عنهم العذاب اذا هم ينكُثُون » •

(الزخرف ٤٦ ــ ٥٠)

وأصروا على الكفر واتهام موسى بالسحر • قال تعالى :

---

(١) العذاب المذكور واحداً بعد واحد •

(٢) ينقضون العهد بالايمان ولا يفون به •

(٣) يسخرون منها ويهزؤون بها ويسمونها سحراً •

(٤) كانوا يقولون للعالم الماهر : ساحر •

« ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات فسئل بني اسرائيل اذ جاءهم فقال له فرعون إني لأظُنُّكَ يا موسى مسحوراً[١] • قال لقد علمتَ ما أنزل هؤلاء إلا رب السماوات والأرض بصائر[٢] وإني لأظُنُّكَ يا فرعون مثبوراً[٣] » •

(الاسراء ١٠١ ــ ١٠٢)

والآيات التسع هي : يد موسى وعصاه والسنون ونقص الثمرات[٤] والطوفان والجراد والقُمَّل والضفادع والدم ، وهذا ماقاله ابن عباس ومجاهد وعكرمة والشعبي وقتادة[٥] ، وما يتفق مع ما جاء في سورة الأعراف (١٣٠، ١٣٣) والنمل : (١٢) •

وقد أوتي موسى ــ عليه السلام ــ آيات أخر كثيرة ، سيأتي ذكرها في حينها ، ولكن المقصود ها هنا الآيات التي شاهدها فرعون وقومه من أهل مصر ، فكانت حجة عليهم ، فخالفوها وعاندوها كفراً وجحوداً ، وعادوا الى اتهام موسى بأنه سُحِرَ فخولط عقله ، أو أنه ساحر يستولي على مشاعر الناس ويجعلهم يتبعونه ، مما يقطع بأن الآيات والخوارق لا تهدي قلباً لم يتأهب للهدى ، ولا تقطع لساناً يصر على الباطل ويفتري غير الحق •

---

(١) سُحرت فخولط عقلك • وقيل : بمعنى ساحر •

(٢) أي حججاً وأدلة بينات مكشوفات على صدق ما جئتك به •

(٣) أي هالكاً •

(٤) جعل الحسن البصري السنين ونقص الثمرات واحدة ، وعنده أن التاسعة هي تلقف العصا ما يأفكون •

(٥) الكشاف للزمخشري ج٢ ص ٤٦٨ ، تفسير النسفي ج٢ ص ٣٤٧ ، تفسير ابن كثير ج٣ ص ٦٦ ــ ٦٧ •

١٤ ـ العـزم على قتـل موسى

فشل فرعون بكل محاولاته أن يجعل موسى ـ عليه السلام ـ يتـرك دعوته ، أو أن يجعل الناس يعرضون عنه ، فلا القول بأنه مجنون أو ساحر أو مسحور ، ولا الزعم بأن فرعون رب وإله ، ولا الاغراء بالمال ، ولا التهديد بقتل أبناء المؤمنين ، ولا تقطيع أطرافهم وصلبهم ، لا شيء من هذا كله مَكَّن فرعون من تحقيق غايته • فلم يبق أمامه إلا أن يعمد الى القضاء على الداعية ، ولكنه خشي أن يثير قتله نقمة عامة ، أو أن يثير رد فعل عنيف كالذي حدث حين آمن السحرة •

فالتمس الأسباب التي تجعل الحكم بإعدامه يحظى بموافقة الناس ، فلم يجد غير الخوف من تبديل دينهم ومن اظهار الفساد في الأرض :

« وقال فرعون ذَروني أقتلْ موسى وليدعُ ربَّه إني أخاف أن يبدِّل دينكُم أو أن يُظْهِرَ في الأرض الفساد • وقال موسى إني عُذْتُ[1] بربي وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب» •
(سورة المؤمن ٢٦ ـ ٢٧)

وكان فرعون على حق في اتهامه بالعمل على تبديل دينهم ! ولكن موسى ـ عليه السلام ـ كان يريد أن ينقل الناس من طاعة فرعون وجوره الى طاعة الله وعدله ، ومن الضيق والظلم الذي تؤدي إليه أنظمة فرعون الى السَّعة والعدالة والمساواة والحرية المستمدة من شريعة تقوم على عقيدة الإيمان بالله واليوم الآخر •

---

(١) استجرت ولذت •

وما كان فرعون يعده صلاحاً هو الفساد بعينه، وأي فساد أعظم من ادعاء الألوهية واخضاع الناس له والتحكم في رقابهم ومشاعرهم ، وأي صلاح غير عبادة رب العالمين والاستجابة لدينه وشريعته ، ولكن المستكبرين والظالمين دائماً يعيثون في الأرض فساداً ويدّعون بأنهم مصلحون • قال تعالى :

« وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون • ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون » •

(سورة البقرة ١١ ــ ١٢)

ذلك لأنهم يحرصون على أوضاعهم ومصالحهم الخاصة ولو كانت تقوم على سلب أموال الناس ومصادرة حقوقهم وحريتهم •

ولقد كان فرعون يستمد هيبته وسلطانه من الديانة التي تعبد فيها آلهة من دون الله ، ويزعم أنه الابن الحبيب لهذه الآلهة ، وهي بنوة رمزية يستمد منها ملكه وحاكميته •

فإذا عبد موسى وقومه رب العالمين وتركوا الآلهة التي يعبدها المصريون، فمعنى هذا هو تحطيم الأساس الذي يستمد منه فرعون سلطانه الروحي على شعبه(١) •

وما كان الله ليمكن فرعون من القضاء على موسى ، وهو الذي أرسله ليخلص المستضعفين من ظلمه ، ويريه عاقبة بغيه ، فما إن استعاذ موسى بربه من كل متكبر كافر حتى قيض له من ينصره ويدافع عنه ، ويرد على فرعون قوله ، ويحذر من مغبة قتله :

---

(١) في ظلال القرآن ص ١٣٥٤ •

« وقال رجل مؤمن[1] من آل فرعون يكتم ايمانه أتَقْتُلُون رجلا أن يقولَ ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم وإن يكُ كاذباً فعليه كَذِبُهُ وإن يكُ صادقا يصبْكم بعضُ الذي يَعدكُم إنَّ اللهَ لا يهدي من هو مسرف[2] كذاب • يا قومِ لكم الملك اليوم ظاهرين[3] في الأرض فمن ينصرُنا من بأس[4] الله إنْ جاءنا •

قال فرعون ما أُريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد •

وقال الذي آمن يا قومِ إني أخاف عليكم مِثْلَ يوم الأحزاب • مِثْلَ دأب قوم نوح وعاد وثمود والذين مِنْ بعدهم وما الله يريد ظلماً للعباد • ويا قومِ إني أخاف عليكم يوم التناد[5] • يوم تُوَلُّون مُدْبرين[6] ما لكم من الله من عاصم[7] ومن يضلل اللهُ فما له من هاد • ولقد جاءكم يُوسُفُ من قبلُ بالبينات فما زلتم

---

(١) قيل هو حزقيل الذي نصح موسى بالخروج من مصر حين قتل نفساً في شبابه • (تفسير النسفي ج٣ ص ٢٣١ ، ج٤ ص ٧٢ تفسير ابن كثير ج٤ ص ٧٧) وقيل اسمه حبرك • (تاريخ الطبري ج١ ص ٤٠٧) وقيل : حزبيل • (الكشاف ج٣ ص ٤٢٤ ، الكامل لابن الأثير ج١ ص ١٨٢ وفي تفسير الطبري: جبريل • (ج٤ ص ٣٨) • وفي تفسير النيسابوري : اسمعه سمعان أو حبيب أو خربيل • والأصح أنه كان قبطياً (هامش تفسير الطبري ج٤ ص٤٢) • ولعل حبرك وخربيل وجبريل تصحيف عن حزقيل ، والله أعلم •

(٢) مجاوز للحد •

(٣) عالين •

(٤) عذاب •

(٥) يوم القيامة •

(٦) منصرفين ، هاربين •

(٧) مانع ودافع •

في شك مما جاءكم بـه حتى إذا هلك قلتم لن يبعث الله مِنْ بعده رسولا كذلك يُضِلُّ الله مَنْ هو مسرف مرتاب(1) • الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان(2) أتاهُمْ كَبُرَ مقتاً(3) عنـد الله وعند الذين آمنوا كذلك يطبع الله على كل قلبِ متكبر جبار » •

(سورة المؤمن ٢٨ ـ ٣٥)

وكان هذا الرجل قبطياً من آل فرعون ، قال السدي : « كان ابن عـم فرعون » • أنطقه الله بالحق ، فجاء ينافح عن موسى ويمنع قتله ؛ فهو لـم يفعل ما يستوجب القتل ! وكيف يقتل من يقول : « ربي الله » ، وقد جـاء بالحجج الواضحة ، وهو إما كاذب وإمـا صادق • فـإن كان كاذباً فإن الله سيجازيه على كذبه ، وإن كان صادقاً فينبغي ألاّ تتعرضوا له حتى لا يصيبكم العذاب، ولو كان كذاباً لما هداه الله وأرشده الى ماترونه من انتظام أمره وفعله، ولكانت أقواله وأفعاله في غاية الاختلاف والاضطراب ، ثم حذرهم من زوال نعمة الملك والظهور في الأرض ، ومن أن ينزل بهم عذاب الله كما نزل بالمكذبين من قبل ، وحذرهم من عذاب يوم القيامة ، يوم لا يمنع الكافرين شيء مـن عذاب الله ، وذكَّرَهم بأن دعوة موسى ليست غريبة عليهم ، فهو يدعو الى ما دعا إليه يوسُف عليه السلام ، الذي أطاعوه لجاهه ووزارته ، ورغبوا ألاّ يبعث رسول من بعده •

ولكن فرعون أصرّ على عناده واسكباره ، وعاد المؤمن يحذر من الضلال ومن الغرور في الدنيا ، ويرغب في العمل الصالح ، ويدعو الى الإيمان باليوم الآخر الذي ينجو فيه المؤمنون ويعذب فيه الكافرون :

---

(1) شاك في دينه •
(2) حجـة •
(3) عظم بغضاً •

« وقال الذي آمن يا قومِ اتبعونِ أهدكم سبيل الرشاد • يا قوم إنما هذه الحياةُ الدنيا متاع وإنَّ الآخرة هي دار القرار • من عمل سيئة فلا يجزى إلاَّ مِثْلَهَا ومن عمل صالحاً من ذكر أو أُنْثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة يُرْزَقون فيها بغير حساب • ويا قوم مالي أدعوكم إلى النَّجاةِ وتدعونني إلى النار • تدعونني لأكفُرَ بالله وأُشرِكَ به ما ليس لي به علِم وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار • لا جَرَمَ[1] أنما تدعونني إليه ليس دعوةٌ في الدنيا ولا في الآخرة وأنَّ مَردَّنا إلى الله وأنَّ المسرفين هم أصحاب النار • فستذكرون ما أقول لكم وأفوِّضُ[2] أمري الى الله إنَّ الله بصير بالعباد • فَوقاهُ اللهُ سيِّئاتِ مامكروا وحاق[3] بآلِ فرعون سوء العذاب • النارُ يُعْرَضون عليها غُدُوًّا وعَشِيًّا ويومَ تقومُ الساعةُ أدْخلوا آل فرعون أشد العذاب » •

(سورة المؤمن ٣٨ ـ ٤٦)

فالحق والرشاد في دعوة المؤمن لا في قول فرعون ، وإذا كان لفرعون ملك ونعيم في هذه الحياة فإن ذلك متاع زائل ، والآخرة هي الدار الباقية ، وفيها يجد كل واحد جزاء عمله ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ، وسيذكرون هذا القول ويعلمون صدقه يوم القيامة حين ينزل بهم أشد العذاب •

وهكذا فإن الله ينصر رسله والدعاة الى دينه ، ويهيء لهم من يؤمن بهم ويدافع عنهم• وتكون النجاة عاقبة المؤمنين، والهلاك والعذاب جزاء الكافرين•

---

(١) حقاً •
(٢) أسَلِّم •
(٣) نـزل •

١٥ ـ هـلاك فرعـون

لم يكف فرعون عن التآمر على الرسول الكريم ، ولم يرض بأن يترك موسى والمؤمنين به وشأنهم ، بل أراد قتل الرسول والبطش بالمؤمنين ، ولـم يعلم ما في ذلك من البلاء :

« ولقد فتنا قبلهم[١] قومَ فرعون وجاءهم رسول كريم • أن أدّوا إليّ عبـادَ الله إني لكم رسول أمـين • وأن لا تَعْلُوا[٢] علـى الله إني آتيكم بسلطان مبين • وإني عذت بربي وربكم أن ترجمون[٣] • وإن لم تؤمنوا لي فاعتزلون » •

(سورة الدخان ١٧ ـ ٢١)

وبعد أن بذل الرسول كل جهوده، وجاء بكل مامعه من الحجج والبينات وأصبح المؤمنون معه متميزين عن الكافرين في مشاعرهم وتصوراتهم وسلوكهم، وأصبحوا أهلاً للخلاص والنصر ، وأضحوا مهددين بالخطر ، التجأ موسى الى ربه يدعوه ويستلهمه ما يعمل ؛ فأمره بالسير بالعباد المؤمنين ليلاً للخروج من مصر :

« فدعا ربّهُ أنّ هؤلاء قوم مجرمون • فَأسرِ بعبادي ليلا إنكم متبعون » •

(سورة الدخان ٢٢ ـ ٢٣)

---

(١) أي اختبرنا قبل المشركين الذين جاء ذكرهم في الآيات (٩ ـ ١٦) من السورة •

(٢) لا تستكبروا •

(٣) أن تقتلوني رجماً •

وعلم فرعون بخروج بني اسرائيل خلسة تحت جنح الظلام ، فأمر بالتعبئة العامة، وحشد كل جنده، وسخر كل قواه المعنوية والمادية للمعركة الفاصلة[1]:

قال تعالى :

« وأوحينا إلى موسى أن أسْرِ بعبادي إنكم متَّبَعُونَ • فأرسل فرعون في المدائــن حاشرين[2] • إن هؤلاء لَشِرْذِمةٌ قليلون[3] وإنهم لنا لغائظون[4] • وإنّا لَجميعٌ حاذِرون[5] •

(سورة الشعراء ٥٢ ـ ٥٦)

وسار الجمعان حتى لحق فرعون قوم موسى في الصباح ، واعترض البحر طريق أصحاب موسى ، وخافوا أن يدركهم فرعون وجنده ، وأصبحوا مهددين بالموت ؛ البحر من أمامهم ، والعدو من ورائهم ، وزاغت الأبصار ، وبلغت القلوب الحناجر ، وظنوا بالله الظنون • هنالك أوحى الله الى موسى أن اضرب بعصاك البحر ، فانفلق البحر ، وانحسر الماء عن طريق جاف في قاعه ، وعبــر موسى وجنده الى ساحل البحر، وخشي فرعون أن يفوتوه، فتبعهم، حتى إذا جاوز

---

(١) قيل : إن جند فرعون كانوا مليوناً وسبعمائة ألف • وقيل أكثر من ذلك • وقال ابن كثير رحمه الله : « فأما ما ذكره غير واحد من الاسرائيليات من أنه خرج في ألف ألف وستمائة ألف فارس •• ففيــه نظر •• والظاهر ان ذلك من مجازفات بني اسرائيل . والله ـــ سبحانه وتعالى ـــ أعلم . والذي أخبر به القرآن هو النافع ، ولم يعين عدتهم، اذ لا فائدة تحته ، لأنهم خرجوا بأجمعهم • (تاريخ الطبري ج١ص ٤١٤ ، قصص الانبياء للثعلبي : ١٧١ ، تفسير ابن كثير ج٣ ص ٣٣٦) •

(٢) جامعين للناس •

(٣) الشِرذمة : الطائفة القليلة • ويجوز أن يريد بالقلة الذلة لا قلة العدد •

(٤) أي انهم يفعلون أفعالا تغيظنا ، وتضيق صدرنا •

(٥) الحذِر : اليقظ ، والحاذر : الذي يجدد حذره •

كل أصحاب موسى الماء ، وأصبح فرعون وجنده جميعاً في الطريق الذي انكشف في القاع ، أطبق البحر عليهم ، فغرقوا عن آخرهم :

« فَأَتْبَعُوهُمْ مشرقين(1) • فلما تراءى الجمعانِ(2) قال أصحاب موسى إنا لمدرَكون • قال كلا إنَّ معيَ ربي سيهدين • فأوحينا الى موسى أن اضرب بعصاك البحر(3) فانفلق(4) فكان كل فِرْق كالطود العظيم(5) • وأزْلفنا ثَمَّ الآخرين(6) • وأنجينا موسى ومن معه أجمعين • ثم أغرقنا الآخرين • إنَّ في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين • وإن ربك لهو العزيز الرحيم •

(سورة الشعراء ٦٠ ـ ٦٨)

ومع أن انشقاق البحر ليس مأموفاً في سنن الحياة ، فإن ذلك لا يستغرب حين يأذن به الله ، فالذي أجرى الماء وفق الناموس الذي أراده قادر على أن يكشف بعض الوقت عن طريق فيه لحكمة يريدها .

---

(١) أي داخلين في وقت شروق الشمس .

(٢) أي تقابلا بحيث يرى كل فريق الآخر .

(٣) أي القلزم (البحر الأحمر) . والغالب ان ذلك عند التقاء خليج السويس بمنطقة البحيرات .
قال الاستاذ عبد الوهاب النجار : « واعتقد ان خليج السويس كان يمتد الى البحيرة المرة . وفي هذا الخليج من تلك الناحية كان عبورهم . أي إنهم عبروا من شمال المكان المعروف بعيون موسى في البر الآسيوي ، وهي لا تبعد عن السويس كثيراً) . (قصص الأنبياء للنجار ص ٢٠٣)

(٤) قيل : إن البحر انشق فظهر فيه اثنا عشر طريقاً على عدد الأسباط . (قصص الأنبياء للثعلبي : ١٧٢ ، تفسير النسفي ج٣ ص ١٨٧ ، تفسير ابن كثير ج٣ ص ٣٣٦ ـ ٣٣٧) .

(٥) أصبح كل جزء تفرق من البحر كالجبل الكبير .

(٦) أي قدَّمنا الى البحر فرعون وجنوده ، أو قربناهم من بني اسرائيل .

وأراد موسى — عليه السلام — حين جاوز وقومه البحر أن يضربه بعصاه حتى يعود كما كان ، ليصير حائلا بينهم وبين فرعون فلا يصل إليهم ، فأمره الله أن يتركه على حاله ، وبشره بأن فرعون وجنده سيغرقون فيه :

« واترك البحر رَهْواً(١) إنهم جند مُغْرَقُون » ٠

(سورة الدخان ٢٤)

وأعلن فرعون إيمانه حين أدركه الغرق ، فلم يقبل منه ، لأن ذلك إيمان المضطر حين لا تنفع التوبة صاحبها ، ولفظ البحر جسمه على الشاطئ ليكون آية لمن يأتي بعده ، ولا يرتاب أحد في هلاكه :

« وجاوزنا ببني اسرائيل البحر فأَتْبَعَهُم فرعونُ وجنودُه بغياً وعَدْواً(٢) حتى إذا أدركه الغرق قال آمنت أنّهُ لا إله إلا الذي آمنت به بنو اسرائيل وأنا من المسلمين آلآنَ وقد عصيت قبلُ وكنتَ من المفسدين ٠ فاليوم نُنَجّيكَ ببدنك لتكون لمن خلفك آية وإن كثيراً من الناس عن آياتنا لغافلون » ٠

(سورة يونس ٩٠ — ٩٢)

فالإيمان لا ينفع حين رؤية العذاب ٠ قال تعالى :

« فلما رَأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين ٠ فلم يكُ ينفعهم إيمانهم لمّا رَأوا بأسنا سُنّتَ الله التي قد خلت في عباده وخسر هنالك الكافرون » ٠

(سورة المؤمن ٨٤ — ٨٥)

---

(١) أي ساكنا كهيئته ، مفتوحا على حالـه ٠

(٢) تطاولا وظلما ٠

والتوبة لا تصح حين معاينة الموت . قال تعالى :

« وليست التوبة للذين يعملون السيّئات حتى اذا حضر أحدَهُمُ الموتُ قال إني تبت الآن ولا الذين يموتون وهم كفار أُولئك أعتدنا لهم عذابا أليماً » . (النساء ١٨)

وكان بعض بني اسرائيل قد شكّوا في موت فرعون لما رسخ في عقولهم من أنه إله لا يصيبه مكروه ، فلما رأوه جثة هامدة ملقاة على الساحل تيقنوا من موته .

وكان اهلاك قوم فرعون في العاشر من المحرم ، فعن ابن عباس ــ رضي الله عنهما ــ قال : قدم النبي ﷺ المدينة فرأى اليهود تصوم يوم عاشوراء فقال : « ما هذا ؟ »

قالوا : هذا يوم صالح ، هذا يوم نجى الله بني اسرائيل من عدوهم . فصامه موسى .

قال : فأنا أحق بموسى منكم ، فصامه وأمر بصيامه[١] .

وقد أمضى موسى في مصر بعد أن واجه فرعون برسالته ثلاثة وعشرين عاماً . وقيل : كان من مولد موسى الى أن أخرج بني اسرائيل من مصر ثمانون عاماً .

أما مدة غربة بني اسرائيل في مصر حين أتوا إليها في عهد يوسف عليه السلام الى حين خروجهم منها فكانت /٢١٥/ سنة ، وقيل كان بين اليوم الذي دخل فيه يوسف ــ عليه السلام ــ مصر ، واليوم الذي دخله موسى ــ عليه السلام ــ أربعمائة عام ، والله أعلم[٢] .

---

(١) أخرجه البخاري /٢٠٠٤/ ومسلم والنسائي وابن ماجه .

(٢) (في ظلال القرآن ص : ١٣٦٦ ، الكامل لابن الأثير ج١ ص ١٦٩ ، اظهار الحق ــ رحمة الله الهندي ج١ ص ١٩٤ ، تفسير النسفي ج٢ ص ٧٣) .

١٦ ـ العبرة والموعظة

بقي فرعون مثلا يبين عاقبة من طغى وقال : أنا ربكم الأعلى :

« هل أتاك حديث موسى • إذ ناداه ربه بالواد المقدّس طوى • اذهب إلى فرعون إنه طغى • فقل هل لك إلى أن تزكّى[١] • وأهديك الى ربك فتخشى • فأراه الآية الكبرى ، فكذّب وعصى • ثم أدبر يسعى[٢] • فحشر[٣] فنادى • فقال أنا ربكم الأعلى • فأخذه الله نكال الآخرة والأولى • إنّ في ذلك لعبرة لمن يخشى » •

(سورة النازعات ١٥ ـ ٢٦)

ويبين جزاء من عصى وكذّب الرسل :

« إنا أرسلنا إليكم رسولا شاهداً عليكم كما أرسلنا إلى فرعون رسولا • فعصى فرعونُ الرسولَ فأخذناه أخذاً وبيلا[٤] » •

(سورة المزمل ١٥ ـ ١٦)

وجزاء من أعرض عن آيات الله واستخف بها :

« فانتقمنا منهم فأغرقناهم في اليم بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين » •

(سورة الأعراف ١٣٦)

---

(١) تطهر من الشرك والعصيان •

(٢) يجتهد في مكايدته •

(٣) جمع السحرة والناس •

(٤) شديداً غليظاً •

ويبين نهاية الضلال والتهور :

« ولقد أوحينا إلى موسى أنْ أسرِ بعبادي فاضرب لهم طريقاً في البحر يَبَسَاً لا تخاف دَرَكا ولا تخشى(1) • فأتبعهم فرعون بجنوده فغشيهم من اليم ما غشيهم وأضل فرعون قومه وما هدى » •

(سورة طه ٧٧ ــ ٧٩)

ولو كان فرعون مبصراً لما اتبع موسى بجنوده واقتحم بهم البحر . فأضلهم وأوردهم الردى والنار • قال الله عز وجل :

« ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين • إلى فرعون وملائِهِ فاتَّبعوا أمر فرعون وما أمرُ فرعون برشيد • يَقْدُمُ قومَهُ يوم القيامةِ فأوردهم النار وبئس الوِرْدُ المورود • وأُتبعوا في هذه لعنة ويوم القيامة بئس الرفد المرفود(2) •

(سورة هود ٩٦ ــ ٩٩)

فهذا هو الرشاد الذي كان يهدي إليه ! وهذا هو العطاء الذي كان يعد به ! وهذا هو مصير من يتبع أمر الطواغيت ويعرض عن أمر الله ! فما هو إلاّ اللعنة في الدنيا ، والنار في الآخرة • قال سبحانه وتعالى :

« فأخذناه وجنودَه فنبذناهم في اليم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين • وجعلناهم أئِمَّة(3) يدعون الى النار ويومَ القيامةِ

---

(1) أي لا تخاف أن يلحق بك فرعون ، ولا تخشى الغرق •

(2) الرِّفد : هو العون والعطاء •

(3) قــادة •

يُنْصَرُون • وأتبعناهم في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين[1] » •

(سورة القصص ٤٠ ـ ٤٢)

وهكذا فإن عاقبة التكذيب والاستكبار الهلاك والدمار :

« فلما آسفونا[2] انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين • فجعلناهم سَلَفاً ومثلا للآخرين » •

(سورة الزخرف ٥٥ ـ ٥٦)

وهذه هي نهاية كل معاند مختال :

« وتركنا فيها[3] آية للذين يخافون العذاب الأليم • وفي موسى إذ أرسلناه الى فرعون بسلطان مبين • فتولى بركنه[4] وقال ساحر أو مجنون • فأخذناه وجنودَه فنبذناهم في اليم وهو مُليم[5] » •

(سورة الذاريات ٣٧ ـ ٤٠)

واليم الذي ألقي فيه موسى وهو طفل رضيع ، فكان ملاذاً وملجأ ، هو الذي نبذ فيه فرعون الجبار ، فإذا هو مخافة ومهلكة • فالأمن إنما يكون في جناب الله ، والمخافة إنما تكون في البعد عن ذلك الجناب •

ولقد انتهى فرعون وهامان وجنودهما كما انتهى مَنْ قبلهم من المستكبرين :

---

(١) المطرودين المبعدين ، أو المهلكين المشوهين •

(٢) أسخطونا وأغضبونا لافراطهم في المعاصي •

(٣) أي في قرى قوم لوط المذكورين في الآيات : ٣٢ ـ ٣٦ من السورة •

(٤) أعرض عن الايمان ، وركن الى ملكه وجنده ، وتعزز بمن معه •

(٥) آت بما يلام عليه من كفره وعناده •

« وقارون وفرعون وهامان ولقد جاءهم موسى بالبينات فاستكبروا في الأرض وما كانوا سابقين • فكلا أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا[1] ومنهم من أخذته الصيحة[2] ومنهم من خسفنا به الأرض[3] ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسَهم يظلمون » •

(سورة العنكبوت ٣٩ ـ ٤٠)

انتهوا ولم يعصمهم الثراء والقوة والدهاء من أخذ الله ، ولم يجعلهم ناجين من عذابه ، ولكنهم لم ينتهوا حتى اكتملت حقيقة الإيمان في نفوس الذين كُتبت لهم النجاة ، وحتى وقفوا في وجه الطغيان لا يرهبون ، ولا يرغبون في شيء مما في يده • فعندما استعلن الإيمان في وجه الطاغية ، عندئذ تدخلت يد القدرة لإدارة المعركة وإعلان النصر الذي تم قبل ذلك في الأرواح والقلوب •

أما بنو اسرائيل ! فقد مكنهم الله في الأرض بعد غرق فرعون • قال تعالى:

« فأراد أن يستفِزَّهُم[4] من الأرض فأغرقناه ومَن معه جميعاً • وقلنا من بعده لبني اسرائيل اسكنوا الأرض فاذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيفاً[5] » •

(سورة الاسراء ١٠٣ ـ ١٠٤)

---

(١) هم قوم عاد الذين أرسل الله عليهم ريحاً عاصفة فيها حصباء •

(٢) هم ثمود المذكورون مع عاد في الآية السابقة •

(٣) يعني قارون •

(٤) يخرجهم •

(٥) جميعاً •

وأورثهم أطراف الأرض ونواحيها الشرقية والغربية ، وتصرفوا فيها كيف شاؤوا :

« وأورثنا القوم الذين كانوا يُستضعَفونَ مشارق الأرض ومغاربها[1] التي باركنا فيها[2] وتمت كلمت ربك الحسنى على بني اسرائيل بما صبروا ودَمَّرنا ما كان يصنع فرعون وقومُهُ وما كانوا يَعْرِشون[3] » .

(سورة الأعراف ١٣٧)

وأغدق عليهم من الطيبات :

« ولقد بَوَّأنا بني اسرائيل مُبَوَّأ صدق[4] ورزقناهم من الطيبات فما اختلفوا حتى جاءهم العلم إنَّ ربك يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون » .

(سورة يونس ٩٣)

فلما أهلك الله فرعون وجنوده خلت ديارهم ، وأصبح بامكان موسى وقومه أن يستولوا عليها :

« فأخرجناهم من جنات وعيون[5] . وكنوز ومقام كريم[6] .

---

(١) يعني الشام أو الشام ومصر .

(٢) أي بالخصب وسعة الرزق وكثرة الأنهار والأشجار .

(٣) أي يبنون . وقد يراد بها ما كانوا يعرشون من الحدائق ، كما في جعل كروم العنب على عرائش .

(٤) أي منزلا صالحاً مرضياً ، وهو مصر والشام ، مما يلي بيت المقدس ونواحيه .

(٥) بساتين وأنهار وآبار .

(٦) منزل بهي بهيج .

كذلك وأورثناها بني اسرائيل[1] » •

(سورة الشعراء ٥٧ ـ ٥٩)

لقد تركوا ديارهم وأموالهم ليرثها القوم الصالحون ، ولم يحزن عليهم أحد من أهل السماء والأرض :

« كم تركوا من جنات وعيون • وزروع ومقام كريم • ونعمة كانوا فيها فاكهين[2] • كذلك وأورثناها قوماً آخرين[1] • فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين • ولقد نجّينا بني اسرائيل من العذاب المهين • من فرعون إنه كان عاليا من المسرفين • ولقد اخترناهم على علم على العالمين[3] • وآتيناهم من الآيات مافيه بلاءٌ مبين[4] » •

(سورة الدخان ٢٥ ـ ٣٣)

---

(١) ذكر بعض المفسرين أن موسى ـ عليه السلام ـ بعث جندين عظيمين الى مدائن فرعون ، فدخلوا البلاد ، وغنموا الأموال وحملوا ما أطاقوا • وذكر بعضهم الآخر أن بني اسرائيل ورثوا مثل ما كان لفرعون وملئه ، فهي وراثة لنوع ما كانوا فيه من جنات وعيون وكنوز ومقام كريم •
(الكامل لابن الأثير ج١ ص ١٨١ ، تفسير النسفي ج٢ ص ١٨٧ ، في ظلال القرآن ص ٢٥٩٨) •

(٢) عيشة كانوا فيها متنعمين •

(٣) على أهل زمانهم •

(٤) اختبار ظاهر •

١٧ ـ عبادة الأصنام

مر بنو اسرائيل بعد اجتيازهم البحر على قوم يعبدون الأصنام ، ورأوهم محيطين بها مواظبين على عبادتها ، فسرهم حالهم ، وطلبوا من نبيهم أن يجعل لهم إلهاً مثلهم . قال تعالى :

« وجاوزنا ببني اسرائيل البحر فأتَوا على قوم(١) يعكُفُون على أصنام(٢) لهم قالوا يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة" قال إنكم قوم تجهلون . إنّ هؤلاء مُتَبَّر"(٣) ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون . قال أغير الله أبغيكم إلهاً(٤) وهو فضلكم على العالمين . وإذ أنجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يُقَتِّلون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذلكم بلاء" من ربكم عظيم » .

(سورة الأعراف ١٣٨ ـ ١٤١)

فما كان يجمل منهم هذا الطلب بعد أن نجاهم الله من وثنية فرعون التي كانوا يذوقون فيها العذاب ألواناً ، وما يصدر هذا الطلب من عالم بخصائص الألوهية وآثار العبودية ، فالعلم يجعل صاحبه يؤمن بالله وحده ، ولا يشرك به شيئاً ، وعبادة الله ترفع من شأن الإنسان الى عليين ، وتجعل الناس أحراراً

---

(١) قيل كانوا قوماً من لخم . وقيل كانوا من الكنعانيين .

(٢) يواظبون على عبادتها . قال ابن جريج : كانت تماثيل بقر . وذلك أول شان العجل .

(٣) مدمَّر ، مكسر .

(٤) أطلب لكم معبوداً .

متساوين ، وقد فضل بنو اسرائيل على الناس في زمانهم بهذه العبادة ، بينما كان الآخرون يشركون بالله ما ليس لهم به علم • وعبادة الأصنام تنشأ من بلادة في الحواس وغلظ في الطباع ، وتجعل الانسان أحط قيمة من الجمادات التي يقدسها ، وينشأ عنها اختلال القيم واضطراب الأحوال وظلم الناس بعضهم بعضاً ، وهي باطل لا يستند الى حق ، وعاقبتها الدمار والهلاك •

ومن الغريب أن يطلب بنو اسرائيل من نبيهم ـ الذي استمر يدعوهم الى الايمان بالله الواحد وعبادته أكثر من عشرين عاماً،ونجاهم من الظلم والعذاب ـ أن يجعل لهم صنماً يعكفون عليه ، ولما تجف أقدامهم من ماء البحر ، ولكن الهوان والذل والقهر الذي عانوا منه طويلا ترك أثراً في نفوسهم ، فجعلهم يقعون في تلك الحماقة ، ولذلك احتاجوا الى التذكير والتعليم باستمرار •

قال تعالى :

« ولقد أرسلنا موسى بآياتنا أن أخرج قومك من الظلمات الى النور وذكّرْهم بأيام الله[1] إنّ في ذلك لآيات لكل صبار شكور • وإذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم إذ أنجاكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب ويُذَبّحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم • وإذ تأذّنَ ربكم[2] لئِنْ شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إنّ عذابي لشديد • وقال موسى إنْ تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعاً فان الله لغني حميد » •

(سورة ابراهيم ٥ ـ ٨)

(١) أياديه ونعمه،أو الوقائع التي أهلك فيها الكافرون وأنعم فيها على الشاكرين•

(٢) أي آذنكم وأعلمكم •

فالإنسان يبتلى باليسر والعسر . قال تعالى :

« ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا تُرجعون » .

(سورة الأنبياء ٣٥)

فإذا صبر على الشدة ، وشكر النعمة ، فقد فاز . قال رسول الله ﷺ :

« عجباً لأمر المؤمن ، إن أمره كله خير ، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن . إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له[1] »

وكثير من الناس يعلم أن المصيبة بلاء ويتجلد لها ، فإذا أصابه الخير انغمس في شهواته ، وأخلد الى الراحة حتى يقسو قلبه وتميع نفسه ، ولا يفطن لما في ذلك من الفتنة . قال تعالى :

« إنما أموالكم وأولادكم فتنة والله عنده أجر عظيم » .

(سورة التغابن ١٥)

ولقد كان بنو اسرائيل يسامون العذاب ويُقتَّل أبناؤهم ، ثم أرسل الله إليهم موسى ــ عليه السلام ــ وأمرهم بالثبات والصبر حتى نجاهم وأخرجهم من الظلمات الى النور ، فظنوا أن البلاء قد رفع ، وأنه لا بأس عليهم إن عبثوا ولهوا كما يفعل عبَّادُ الأصنام . فكان نبيهم يربيهم ويوجههم، ويلهمهم الشكر كما ألهمهم الصبر ، يذكّرهم بنعم الله واحسانه ليشكروه ، ويبين لهم أن الله يزيد نعمه على الشاكرين الحامدين ، ويسبغ عليهم من فضله ورضوانه ، وكان يحذرهم من الكفر واللهو والفجور حتى لا يهلكوا كما هلك مَنْ قبلهم ، ويعلمهم أن الله غني عن شكر عباده ، وأن العبادة تعود على صاحبها بالنفع والأجر .

---

(١) رواه مسلم / ٦٤ ــ (٢٩٩٩) / والنسائي من حديث صهيب وسعد بن أبي وقاص .

قال رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل :

« يا عبادي ! لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً ، يا عبادي ! لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئاً ، يا عبادي ! لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني ، فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المِخيط[1] إذا أدخل البحر[2] » .

(١) المخيط : الابرة . قال العلماء : هذا تقريب الى الأفهام ، ومعناه لا ينقص شيئاً أصلا ، لأن ما عند الله لا يدخله نقص . وضرب المثل بالمخيط في البحر لأنه غاية مايضرب به المثل في القلة ، فان البحر من أعظم المرئيات،والإبرة منأصغر الموجودات ، مع انها صقيلة لا يتعلق بها ماء .

(٢) رواه مسلم / ٥٥ ـ (٢٥٧٧) / عن أبي ذر رضي الله عنه .

١٨ ـ الألـــواح

كان بنو اسرائيل بعد انقاذهم من أرض الذل والقهر الى الصحراء الطليقة في حاجة الى شريعة مفصلة لإعدادهم لمهمة الخلافة في الأرض بدين الله ، ولهذا أمر موسى بالتوجه الى الطور ليلقى ربه ويتلقى عنه :

« وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر فتم ميقات ربه أربعين ليلة[١] وقال موسى لأخيه هارون اخلفني في قومي وأصلح ولا تتبع سبل المفسدين » ٠

(سورة الأعراف ١٤٢)

فأعد موسى للأمر عدته بأن جعل أخاه هارون خليفته في قومه ، وزوده بنصائحه ، ومضى يقطع الطريق ، ويروض نفسه للقاء الموعود ، وكان الوعد ثلاثين ليلة فصامها موسى ــ عليه السلام ــ وطواها ، فلم تم الميقات استاك بلحاء شجرة ليطيب رائحة فمه ، فأوحى الله إليه : أما علمت أن خلوف فم الصائم أطيب عندي من ريح المسك ٠ وأمره أن يزيد عليها عشرة أيام[٢] ٠

ولما جاء لميقات الله تعالى ، وتلقى كلمات ربه اهتز كيانه ، وأشرقت نفسه ، فتشوفت روحه للنظر الى الله عز وجل :

---

(١) أكثر المفسرين (٢) على أن الثلاثين هي ذو القعدة،والعشر عشر ذي الحجة، فيكون الميقات قد كمل يوم النحر ، وحصل فيه التكليم لموسى عليه السلام ٠

(٢) الكشاف ج٢ ص ١١١ ، تفسير النسفي ج٢ ص ٨٠ ، تفسير ابن كثير ج٢ ص ٢٤٣ ٠

« ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال رَبِّ أرِني أنظُرْ إليك قال لن تراني ولكن انظر الى الجبل فان استقر مكانه فسوف تراني فلما تجلى ربه للجبل جعله دكاً(١) وخرَّ موسى صَعِقاً(٢) فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول(٣) المؤمنين » .

(الأعراف ١٤٣)

وأنّى لبشر فانٍ ولجسم محدود ضعيف أن يطيق رؤية من وسع كرسيه السموات والأرض ! وهل يستطيع أحد أن يديم النظر الى ضوء الشمس ، وهي جِرم صغير مما خلقه الله وأودعه شيئاً من النور الوهاج ، وهي تبعد عنا ملايين الأميال ! وهل يستقر الجبل الأشم إذا تجلى له الله عز وجل ؟ انظر لقد تحطم الجبل ، وصار مدكوكاً مسوىً بالأرض . وأدرك موسى رهبة الموقف فسقط مغشياً عليه غائباً عن وعيه ، فلما أفاق وثاب الى نفسه « قال : سبحانك ! » تنزهت وتعاليت عن أن تدركك الأبصار ، « تبت إليك » عن تجاوزي المدى في سؤالك ، « وأنا أول المؤمنين بعظمتك وجلالك(٤) » .

وأدركت موسى رحمة الله فإذا هو يتلقى منه بشرى الاصطفاء والموعظة والشريعة المفصلة :

---

(١) صار تراباً وساخ في الأرض . أرض دكاء: مستوية . ناقة دكاء: متواضعة السنام . واختلف العلماء في التجلي . قال ابن عباس : ظهر نوره للجبل .

(٢) سقط مغشياً عليه .

(٣) لا تعني « أول » أنه لم يكن قبله مؤمنون : فهي مقيدة بالمؤمنين من بني اسرائيل ، أو مخصوصة بأنه أول المؤمنين بأن الله لا يراه أحد في الدنيا أو دالة على رسوخ إيمانه .

(٤) لعلماء الكلام والمفسرين كلام كثير حول نظر المؤمنين الى الله عز وجل في الآخرة، لسنا في صدد التعرض له ، ولا يترتب على هذا الخلاف المشهور تكليف عملي .

« قال يا موسى إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين • وكتبنا له في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلا لكل شيء فخذها بقوة وأمُر قومَك يأخذوا بأحسنها سأريكم دار الفاسقين[1] • سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق وان يروا كل آية لا يؤمنوا بها وإن يروا سبيل الرُّشد لا يتخذوه سبيلا وإن يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلا ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين • والذين كذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة حبطت أعمالهم هل يجزون إلا ماكانوا يعملون»

(سورة الأعراف ١٤٤ ـ ١٤٧)

فقد اختار الله ـ سبحانه ـ موسى ـ عليه السلام ـ وفضله على أهل زمانه، وخصه برسالاته وبكلامه، وكتب له في الألواح مواعظ وأحكاماً مفصلة مبينة للحلال والحرام ليكون قدوة لقومه في الأخذ بما فيها من التكاليف وفي شكر الله وحمده •

ولا يهمنا عدد هذه الألواح ، أهي سبعة أم تسعة أم عشرة ، ولا هل كانت من زمرد أم من زَبَرجَد أم من خشب ، ولا طولها وعرضها ، ولا كيف كتبت وهل كتبها جبريل أم غيره[2] ؟ والمهم أن غايتها بيان شريعة الله وتقديم التوجيهات المناسبة لإصلاح أمة موسى عليه السلام •

والعمل بهذه التعاليم والتوجيهات يؤدي الى التمكين في الأرض ووراثة دار الفاسقين • والأقرب أن ذلك بشارة بدخول الأرض المقدسة التي كانت

---

(١) أي عاقبة الخارجين عن طاعتي المخالفين لأمري •

(٢) انظر قصص الأنبياء للثعلبي ص ١٧٧ ، وتفسير النسفي ج٢ ص ٨١ وتفسير ابن كثير ج٢ ص ٢٤٦ •

في حوزة الوثنيين . أما الذين يتكبرون ويتطاولون على الخلق ، ويكذبون بآيات الله ، ويأنفون من قبول الحق ، ويسلكون سبيل الضلال ، ويتجنبون سبيل الرشاد ويكفرون بالآخرة فإنهم مصروفون عن فهم وتذوق آيات الله . وليسوا أهلاً لحمل الرسالة الإلهية . وما لهم في الآخرة من خلاق .

والألواح المذكورة في هذه الآيات تشتمل على التوراة ، وهي كتاب موسى عليه السلام الذي جاء ذكره في مواضع عديدة من القرآن الكريم :

١ ـ « ثم آتينا موسى الكتاب تماماً على الذي أحسن وتفصيلا لكل شيء وهدى ورحمة لعلهم بلقاء ربهم يؤمنون » .

(سورة الأنعام ١٥٤)

فهي بيان مفصل لكل ما يحتاج إليه بنو اسرائيل في ذلك العصر ، يهتدي به المحسنون الصالحون العقلاء :

٢ ـ « ولقد آتينا موسى الهدى وأورثنا بني اسرائيل الكتاب . هدى وذكرى لأولي الألباب » .

(سورة غافر ٥٣ ـ ٥٤)

فيصبح الذين عملوا بها أئمة في الهداية بإيمانهم وصبرهم وتوكلهم على الله:

٣ ـ « ولقد آتينا موسى الكتاب فلا تكن في مِرْيَة من لقائه[1] وجعلناه هدى لبني اسرائيل . وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لمّا صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون » .

(السجدة ٢٣ ـ ٢٤)

---

(١) في شك من لقاء موسى الكتاب ، أي تلقيه بالرضا والقبول . أو من لقاء محمد ﷺ موسى ليلة المعراج أو يوم القيامة . أو أن المعنى : إنا آتينا موسى ـ عليه السلام ـ مثل ما آتيناك من الكتاب ، ولقيناه مثل ما لقيناك من الوحي .
(الكشاف للزمخشري ج٣ ص ٢٤٦)

٤ ـ وآتينا موسى الكتاب وجعلناه هدى لبني اسرائيل ألاّ تتخذوا من دوني وكيلا » • (الأسراء ٢)

٥ ـ وهو فرقان فارق بين الحلال والحرام وبين الحق والباطل ، وضياء يستضاء به في سبيل النجاة ، وشرف لمن يحمله ، ووعظ وتنبيه الى مصالح الدين والدنيا :

« ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان وضياء وذكراً للمتقين • الذين يخشون ربهم بالغيب وهم من الساعة مشفقون(١) » •

(سورة الأنبياء ٤٨ ـ ٤٩)

٦ ـ « ولقد آتينا موسى الكتاب وجعلنا معه أخاه هارون وزيرا • فقلنا اذهبا الى القوم الذين كذبوا بآياتنا فدمرناهم تدميراً (٢) » •

(سورة الفرقان ٣٥ ـ ٣٦)

ومعلوم أن هلاك فرعون وقومه كان قبل نزول التوراة •

٧ ـ « ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى بصائر للناس وهدى ورحمة لعلهم يتذكرون » •

(سورة القصص ٤٣)

٨ ـ « ولقد آتينا موسى الكتاب لعلهم يهتدون » •

(سورة المؤمنون ٤٩)

فهل صاروا من المهتدين ؟ وماذا كان موقفهم من الكتاب ؟

---

(١) خائفون •

(٢) التدمير : الاهلاك •

١٩ ـ عبـادة العجـل

حين ذهب موسى لميقات ربه ، ولم يرجع الى قومه بعد انقضاء الثلاثين ليلة التي وعدهم بها ساءهم ذلك . وكان هارون قد خطبهم وقال : إنكم قد خرجتم من مصر ، وحملتم معكم الحلي التي استعارتها نساؤكم من القبطيات، وهي لا تحل لكم ، وأمر أن تحفر حفرة ، وأن تلقى فيها تلك الحلي ، ثم تحرق في النار ، فجعلها السامري[١] على هيئة العجل[٢] . وكانت الريح تدخل في جوفه ، فيسمع له خوار كصوت القبر ؛ فقالوا : هذا إلهكم وإلـه موسى . وأحاطوا به ، وصاروا يرقصون حوله في نشوة وفرح ، مع أنـه لا يكلمهم ولا يهديهم ، ولا يضرهم ولا ينفعهم . ولم يستمعوا الى هارون وهو يحذرهم من عبادته ، بل زجروه ، وكادوا يقتلونه عدا فرقة قليلة ندمت على ما فعلت ، وعرفت أنه لا ينقذهم من عاقبة ما أتوا إلا أن تدركهم رحمة الله ومغفرته :

---

(١) قيل إن السامري منسوب الى قبيلة من بني اسرائيل يقال لها السامرة . وقيل : كان من قوم يعبدون البقر جيران لبني اسرائيل . وقال الاستاذ عبد الوهاب النجـار : السامري ليس منسوباً الى « سـامرة » في فلسطين بـل الى « شامر » العبرية ، وهي تنطق بالعربية « سامر » . ومعناها حارس .
(قصص الأنبياء للنجار ص ٢٢٤)

(٢) تذكر بضس الروايات أنه أصبح عجلا حقيقياً من لحم ودم ، يمشي ويخور ! وقيل : ما خار الا مرة واحدة ولم يعد . والأرجح أنه بقي من ذهب لا حياة فيه كما تفيد كلمة جسد والروايات في حياته لا يصح منها شيء
(الكامل لابن الأثير ج١ ص ١٨٩)

« واتَّخذَ قومُ موسى من بعده[1] من حليهم عجلاً جسداً له خُوار ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلا اتخذوه وكانوا ظالمين • ولما سقط في أيديهم[2] ورأوا أنهم قد ضلوا قالوا لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين » •

(الأعراف ١٤٨ ــ ١٤٩)

ولقد أخبر الله موسى بما فعله قومه حين كان على الطور ، فرجع إليهم في غضب شديد ، ولما رآهم يعبدون العجل ألقى الألواح ، وانهال عليهم يؤنبهم ويوبخهم :

« وما أعجلك عن قومك يا موسى • قال هم أولاء على أثَري[3] وعجِلت إليك ربِّ لترضى • قال فانا قد فتَنَّا قومك من بعدك وأضلهم السامري • فرجع موسى الى قومه غضبان أسِفاً[4] قال يا قومِ ألم يعدكم ربكم وعداً حسنا[5] أفطالَ عليكم العهد[6] أم أردتُم أن يَحِلَّ عليكم غضب من ربكم فأخلفتم موْعدي • قالوا ما أخلفنا موعِدَكَ بِمَلْكِنا[7] ولكنا حُمِّلْنا

---

(١) من بعد ذهابه الى الطور •

(٢) اشتد ندمهم على عبادة العجل • يقال سقط في يده إذا عدم الحيلة في دفع ما هو بصدده من أمر •

(٣) أي هم خلفي ، ينزلون قريباً من الطور ، وليس بيني وبينهم إلا مسافة يسيرة •

(٤) شديد الغضب ، أو حزيناً على ما صنع قومه من بعده •

(٥) وعدهم أن يعطيهم التوراة •

(٦) أي مدة مفارقتي •

(٧) أي عن قدرتنا واختيارنا •

أوزاراً من زينة القوم[1] فقذفناهــا فكذلك ألقــى السامري[2] ·
فأخرج لهم عجــلا جسداً له خُوار فقالوا هذا الهكم والــه موسى
فنسي[3] · أفــلا يرون ألاّ يَرْجِعُ إليهم قولا[4] ولا يملك لهم
ضَرّاً ولا نفعاً » ·

(سورة طه ٨٣ ـ ٨٩)

لقد جحدوا نعم الله عليهم ، ونسوا تنبيه نبيهم حين طلبوا منه أن يجعل لهم صنماً ! وردوا بأنهم لو كانوا يملكون أمرهم ما عبدوا العجل ، واعتذروا بأنهم تورعوا عن زينة القبط فألقوها عنهم، فتورعوا عن الحقير، وفعلوا الكبير! واستحقوا غضب العلي القدير :

« إنّ الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم وذِلّة" في الحياة الدنيا وكذلك نجزي المفترين[5] » ·

(سورة الأعراف ١٥٢)

فقد كُتب عليهم الغضب واللعنة ، وأن يسلط عليهم من يهينهم ويعذبهم:

« وإذ تأذّنَ ربك ليبعثن عليهم إلى يــوم القيامة من يسومهم سوء العذاب إن ربك لسريع العقاب وإنه لغفور رحيم » ·

(سورة الأعراف ١٦٧)

---

(١) أثقالا من حلي القبط ·

(٢) القى ما معه من الحلي ، أو ما معه من التراب الذي أخذه من أثر حافر فرس جبريل عليه السلام ·

(٣) أي فنسي موسى أن يطلبه ها هنا ، وذهب يطلبه عند الطور·أو نسي السامري ربه ، وأن العجل لا يكون إلهاً ·

(٤) لا يجيبهم ·

(٥) الكاذبين على الله ·

ومع أن هارون ــ عليه السلام ــ حاول أن يصدهم عن عبادة العجل ، فإنه لم ينجُ من تعنيف أخيه ولومه .

« ولقد قال لهم هارون من قبل[1] يا قوم إنما فُتنتم بـه[2] وإن ربكم الرحمن فاتبعوني وأطيعوا أمري . قالوا لن نبرح عليه عاكفين[3] حتى يرجع إلينا موسى . قال يا هارون ما منعك إذ رَأيتهم ضلوا . ألاّ تَتَّبِعَنِ أفَعَصَيتَ أمري » .

(سورة طه ٩٠ ــ ٩٣)

كان من واجبك أن تلحق بي فتخبرني عنهم ، أو أن تقاتل من كفر وعبد العجل ، أفعصيت أمري الذي أمرتك به من القيام بمصالحهم !

ثم أخذ بلحيته ورأسه يشده إليه :

« ولما رَجَعَ موسى إلى قومه غضبان أسِفاً قال بئسما خلفتموني من بعدي أعَجِلتم أمر ربكم[4] وألقى الألواح وأخذ برأس أخيه يجره إليه قال ابنَ أُمَّ[5] إن القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني فلا تُشمِت بي الأعداء ولا تجعلني مع القوم الظالمين » .

(سورة الأعراف ١٥٠)

---

(١) من قبل رجوع موسى إليهم .

(٢) ابتليتم بالعجل ، فلا تعبدوه .

(٣) لن نزال مقيمين على عبادة العجل .

(٤) أي استعجلتم قضاءه وعقابه ! أو استعجلتم موعده وميقاته !

(٥) هارون شقيق موسى ، وانما ذكر أمه استعطافاً له .

« قال يَبْنَؤُمَّ لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي إني خشيت أن تقول فرّقت بين بني اسرائيل ولم ترقُب[1] قولي » .

(سورة طه ٩٤)

فرد عليه مستعطفاً له بأمه : إني لم آلُ جهداً في وعظهم ، ولكنهم استضعفوني وهموا بقتلي ، فلا تفعل بي ما هو أمنية للأعداء من الاستهانة بي والاساءة إلي ، ولا تجعلني قريناً للظالمين بغضبك علي ، فقد خشيت إن فارقتهم واتبعتك أن تقول لي : لِمَ تركتهم وحدهم وفرقت بيني وبينهم ؟ وخفت ان قاتلت بعضهم ببعض أن تقول : فرقت بين بني اسرائيل ولم تحفظ وصيتي .

فلما اتضح له عذر أخيه وقف داعياً مستغفراً ليرضي أخاه وينفي الشماتة عنه :

« قال رَبِّ اغفر لي ولأخي وأدخلنا في رحمتك وأنت أرحم الراحمين » . (سورة الأعراف ١٥١)

رب اغفر لي ما فرط مني في حق أخي ، واغفر لأخي إن كان فرّط في حسن الخلافة ، وأدخلنا في عصمتك في الدنيا وجنتك في الآخرة ..

وبعد ذلك توجه موسى الى السامري يسأله عما حمله على ما صنع :

« قال ما خَطْبُكَ[2] يا سامري . قال بَصُرْتُ بما لم يبصروا به فقبضت قبضة من أثر الرسول فنبذتها[3] وكذلك سَوّلت[4] لي نفسي » .

(طه ٩٥ ـ ٩٦)

---

(١) لم تحفظ .
(٢) أي ما أمرك وما طلبك ، وما الذي عرض لك حتى فعلت ما فعلت .
(٣) أي ألقيتها .
(٤) حسنت .

قال : رأيت جبريل على فرس[1] فألقي في نفسي أن أقبض من أثر فرسه قبضة ، فطرحتها في جوف العجل ، وكذلك زينت لي نفسي[2] .

فحكم عليه بالنفي والمنع من مخالطة الناس ومكالمتهم . وأمر بتحريق العجل والقائه في البحر :

« قال فاذهب فان لك في الحياة أن تقولَ لا مِساسَ[3] وإن لك موعداً لن لن تُخْلَفَهُ[4] وانظر الى إلهك الذي ظَلْتَ[5] عليه عاكفاً لنُحَرِّقَنَّهُ ثم لَنَنْسِفَنَّهُ [6] في اليم نسفا . إنما الهكم الله الذي لا إله إلاّ هو وَسِعَ كل شيء علماً » .

(سورة طه ٩٧ ـ ٩٨)

---

(١) قيل : كان ذلك حين جاء جبريل ليأمر موسى بالذهاب لميقات ربه .
وقيل : كان حين جاء جبريل لهلاك فرعون ، وعبر البحر .

(٢) قال الاستاذ عبد الوهاب النجار : إن السامري خدع بني اسرائيل ، وأخذ منهم الحلي ، وبصر بعجل على هيئة العجول التي تعبد في مصر ولم يبصروا به ، فاشتراه وجاءهم به .
وفسر الآية السابقة بقوله : « إني قبضت قبضة من أثر الرسول أي تعليمه وأحكام التوحيد التي جاء بها الرسول ـ وهو موسى ـ فنبذتها ، أي القيتها وأهملتها » . (قصص الأنبياء للنجار ص ٢٢٠ ـ ٢٢٤)
ويبدو أن ما دفعه الى ذلك هو التأثر بالمنهج العقلاني الأوربي الذي ينكر كل ما يتعارض مع العلم المحدود الذي وصلوا إليه ! وقد فاته أن يؤول لنا كيف انقلبت عصا موسى الى حية ، وكيف جعل السحرة عصيهم تبدو وكأنها حيات ، بما يتفق مع هذا المنهج ، ولما جاز أن يقع بعض ذلك دون الآخر !

(٣) أي لا تماس الناس ولا يمسونك .

(٤) لن تغيب عنه ، ولا محيد لك عنه .

(٥) أصله ظللت ، فحذف اللام الأولى تخفيفا .

(٦) لنذرينه ، لنلقينه .

فالله الذي لا تنبغي العبادة إلا له هو واحد عالم بكل شيء[1] .

وهكذا لم يقتصر موسى ــ عليه السلام ــ على لوم من صنع العجل وحده ، بل بدأ بتوجيه اللوم الى القوم الذين وافقوه على صنعه وعكفوا على عبادته ، ثم الى أخيه المسؤول عنهم المستخلف فيهم ، وأخيراً الى صانعه . وقد عاقبة بما يستحقه ، وأراهم أن العجل ليس إلهاً ، فهو يحرق ويلقى في اليم ، ولا يملك لنفسه شيئاً .

وبعد أن سكن غضب موسى أخذ الألواح التي ألقاها :

« ولما سكت[2] عن موسى الغضبُ أخذ الألواح وفي نُسختها هدى ورحمةٌ للذين هم لربهم يرهبون » .

(سورة الأعراف ١٥٤)

واختار فريقاً من قومه ليتوبوا الى الله عز وجل مما اقترفوه من الإثم .

---

(١) الكشاف للزمخشري ج٢ ص : ١١٧ ــ ١٢١ ، ٥٤٨ ــ ٥٥٢ ، تفسير النسفي ج٢ ص ٨٢ــ٨٤ ، ج٣ ص ٦٣ــ٦٦ تفسير ابن كثير ج٢ ص ٢٤٧ــ٢٤٨ ، ج٣ ص ١٦١ ــ ١٦٤ ، في ظلال القرآن ج٣ ص ١٣٧٣ ــ ١٣٧٦ .

(٢) سكن .

٢٠ ـ التوبة

من رحمة الله بعباده أنه يقبل توبة من عصاه ويغفر له ذنبه :

« والذين عملوا السيِّئاتِ ثم تابوا من بعدها وآمنوا إن ربك من بعدها لغفور رحيم » ٠

(سورة الأعراف ١٥٣)

ولكن التوبة على بني اسرائيل كانت بشكل يتناسب مع فعلهم وطباعهم، إذ اختار موسى ــ عليه السلام ــ سبعين رجلاً من خيار قومه ، وأمرهم أن يطهروا ثيابهم ويزكوا أنفسهم،ويصوموا ويخرجوا معه الى طور سيناء،ليعتذروا الى ربهم من عبادة العجل ، وليتوبوا إليه مما وقعوا فيه من الكفر والخطيئة ٠

وبعد أن دعا موسى ربه وسأله التوبة وأقبل إليهم قالوا له :

« لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة » ٠

(سورة البقرة ٥٥)

فبعث الله عليهم صاعقة ، فأخذتهم فماتوا جميعاً ٠ وقام موسى يناشد ربه ويتوسل إليه ويقول ربِّ ماذا أقول لبني اسرائيل إذا أتيتهم وقد أهلكت خيارهم ، « رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي » ٠ فأحياهم الله ٠

قال تعالى :

« واختار موسى قومه سبعين رجلا لميقاتنا فلما أخذتهم الرجفة(١) قال رب لو شئت أهلكتهم من قبلُ وإيايَ أتُهلكنا بما

(١) الزلزلة الشديدة وهي الصاعقة ٠

فعل السفهاء منا إنْ هي الا فتنتك[1] تضل بها من تشاء وتهدي من تشاء أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وانت خير الغافرين • واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة وفي الآخرة إنا هُدْنا[2] إليك قال عذابي اصيب به من أشاء ورحمتي وسِعَتْ كل شيء فَسَأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون • الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه[3] مكتوباً عندهم في التوراة والانجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويُحِلُّ لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم اصرهم والأغلال[4] التي كانت عليهم فالذي آمنوا به وعَزَّروه[5] ونصروه واتبعوا النور[6] الذي أُنزل معه أُولئك هم المفلحون » •

(سورة الأعراف ١٥٥ ـ ١٥٧)

وهكذا اطلع الله نبيه موسى على نبأ الملة الأخيرة التي سيكتب لها رحمته، وعلى صفات النبي الأمي ﷺ ومنهج رسالته حتى لا يبقى عذر لبني اسرائيل إذا كذبوا به •

أما التوبة من عبادة العجل فكانت بالقتل •

---

(١) ابتلاؤك وامتحانك •

(٢) تبنا ورجعنا وأنبنا •

(٣) يجدون نعته •

(٤) أي التكاليف الصعبة والاحكام الشاقة •

(٥) أي عظموه ووقروه ومنعوه من العدو •

(٦) أي القرآن والوحي الذي جاء به •

عن ابن عباس ــ رضي الله عنهما ــ قال : « أمر موسى قومه عن أمر ربه عز وجل أن يقتلوا أنفسهم • قال : فاحتبى الذين عكفوا على العجل فجلسوا ، وقام الذين لم يعكفوا على العجل ، وأخذوا الخناجر بأيدهم ، وأصابتهم ظلمة شديدة ، فجعل يقتل بعضهم بعضاً ، فانجلت الظلمة عنهم ، وقد أجلَوا عن سبعين ألف قتيل ، كل من قُتل منهم كانت له توبة ، وكل من بقي كانت له توبة[1] » •

وعن سعيد بن جبير ومجاهد قالا : « قام بعضهم الى بعض بالخناجر ، يقتل بعضهم بعضاً ، لا يحنو رجل على قريب ولا بعيد ، حتى ألوى موسى بثوبه ، فطرحوا ما بأيديهم ، فكشف عن سبعين ألف قتيل » •

وقال قتادة : « أمر القوم بشديد من الأمر ، فقاموا يتناحرون بالشفار ، يقتل بعضهم بعضاً حتى بلغ الله فيهم نقمته • فسقطت الشفار من أيديهم ، فأمسك عنهم القتل ، فجعل لحيهم توبة وللمقتول شهادة » •

وقال السدي : « فاجتلد الذين عبدوه والذين لم يعبدوه بالسيوف •• حتى كثر القتل ، وكادوا أن يهلكوا••وحتى دعا موسى وهارون: ربنا أهلكت بني اسرائيل ، ربنا البقية البقية • فأمرهم أن يلقوا السلاح وتاب عليهم ، فكان من قتل من الفريقين شهيداً ومن بقي مكفراً عنه[2] » •

وهذه الآيات تذكر بني اسرائيل بنعم الله عليهم ونجاتهم من آل فرعون ، والتوبة عليهم من عبادة العجل ، وبعثهم من بعد أخذهم بالصاعقة ، وانزال الكتاب لهدايتهم • وتأمرهم بتقوى الله وعبادته وخشيته وشكره والوفاء بعهده والايمان برسوله والاستعداد للآخرة ، وتنهاهم عن كتمان الحق وخلطه بالباطل :

---

(١) رواه ابن جرير في تفسيره ج٢ ص ٧٣ ــ ٧٤ •
(٢) رواها ابن كثير في تفسيره ج١ ص ٩٢ •

« يا بني اسرائيل اذكروا نعمتي التي انعمت عليكم وأوفوا بعهدي أوفْ بعهدكم[1] وإيـاي فارهبون • وآمنوا بمـا أنزلت مصدقاً لما معكم[2] ولا تكونوا أول كافر به ولا تشتروا بآياتي ثمنا قليلا وإيـاي فاتقون • ولا تَلبِسُوا[3] الحـق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون • وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين • أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم[4] وأنتم تتلون الكتـاب فـلا تعقلون • واستعينوا بالصبر والصـلاة وانهـا[5] لكبيرة إلا على الخاشعين • الذين يظنون أنهم مُلاقوْا ربهم وأنهم إليه راجعون •

« يا بنـي اسرائيل اذكروا نعمتي التـي انعمت عليكم وأني فضلتكم على العالمين[6] •

---

(1) أي أوفوا بما عاهدتموني عليه من الايمان بي والطاعة لي والايمان برسلي أوف بما عاهدتكم عليه من حسن الثواب على حسناتكم •

(2) يعني القرآن الكريم •

(3) لا تخلطوا •

(4) قيـل : كان الأحبار يأمرون من نصحوه في السر من أقاربهم وغيرهم باتبـاع محمد ﷺ ولا يتبعونه • وقيل كانوا يأمرون بالصدقة ولا يتصدقون • وإذا أُتوا بالصدقات ليفرقوها خانوا فيها •

(5) الضمير للصلاة أو للاستعانة •

(6) عالم من كان في ذلك الزمان • اذ أن تفضيل بني اسرائيل على العالمين موقوت بزمان استخلافهم واختيارهم ، فأما بعدما عتوا عن أمر ربهم وعصوا أنبياءهم ، وجحدوا نعمـة الله عليهم ، وتخلوا عن التزاماتهم وعهدهم ، فقـد أعلن الله حكمه عليهم باللعنة والغضب والذلة والمسكنة •

« واتقوا يوماً لا تَجزي نفس عن نفس شيئا ولا يُقبَلُ منها شفاعة ولا يُؤخذ منها عدل[1] ولا هم يُنصرون •

« وإذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم[2] سُوء العذاب يُذَبِّحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم • واذ فرقنا بكم البحر فأنجيناكم وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون •

« واذ واعدنا موسى أربعين ليلة ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون • ثم عفونا عنكم من بعد ذلك لعلكم تشكرون • واذ آتينا موسى الكتاب والفرقان[3] لعلكم تهتدون •

واذ قال موسى لقومه يا قوم انكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا الى بارئكم[4] فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم فتاب عليكم إنه هو التواب الرحيم •

« واذا قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة[5] فأخذتكم الصاعقة[6] وأنتم تنظرون • ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون » • (سورة البقرة ٤٠ ـ ٥٦)

---

(١) فدية •

(٢) يوردونكم ويذيقونكم •

(٣) قيل : ان الفرقان هو التوراة • وقيل : المراد ما في الكتاب من الشرائع والأحكام المفرقة بين الحق والباطل والحلال والحرام • وقيل : الفرقان هو ما أوتيه موسى من الآيات والمعجزات • وقيل: النصر الذي فرق بينه وبين عدوه •

(٤) خالقكم الذي خلق الخلق بريئاً من التفاوت •

(٥) عياناً وعلانية •

(٦) نار جاءت من السماء فأحرقتهم ، وقيل : صيحة جاءت من السماء •

٢١ ــ موقف بني اسرائيل من الكتاب

حين عرض موسى ــ عليه السلام ــ الألواح على قومه ، ورأوا ما فيها من التكاليف الشاقة كبرت عليهم ، وأبوا قبولها ؛ فرفع الله الجبل على رؤوسهم وقيل لهم : إن قبلتموها بما فيها وألا ألقي عليكم . فلما نظروا إليه فوقهم خروا سجداً[١] . وأعلنوا عن قبولهم لها :

« وإذا نتقنا الجبل فوقهم كأنَّه' ظُلَّةٌ"[٢] وظنوا أنه واقع

---

(١) قال الحسن البصري رحمه : لما نظروا الى الجبل خر كل رجل ساجداً على حاجبه ونظر بعينه اليمنى الى الجبل فرقاً من أن يسقط عليه . فكذلك ليس اليوم في الأرض يهودي يسجد الا على حاجبه الأيسر ، يقول : هذه السجدة التي رفعت بها العقوبة .

(٢) حاول السيد رشيد رضا أن يجعل رفع الجبل مقبولا من العقلية الأوربية ومن تأثر بمنهجها فقال في تفسير المنار :
« النتق : الزعزعة والهز والجذب والنفض . ونتق الشيء : جذبه واقتلعه . وقد يكون ذلك بضرب من الزلزال . والمفهوم من أخذ الميثاق انهم قبلوا الايمان وعاهدوا موسى عليه .
فرفع الطور وظنهم أنه واقع بهم من الآيات التي رأوها بعد أخذ الميثاق كان لأجل أخذ ما اوتوه من الكتاب بقوة واجتهاد ، لأن رؤية الآيات تقوي الايمان وتحرك الشعور والوجدان » .
وتبعه في ذلك الاستاذ عبد الوهاب النجار الذي قال : « قد يكون جزء عظيم من الجبل اقتلع من مكانه اثناء رجفة أو زلزال ، ورأوه بأعينهم ، وهم في أسفل الجبل كأنه ظلة ، وخافوا وقوعه بهم ، وذلك عند أخذ ميثاقهم على العمل بالتوراة » .
(تفسير المنار ج١ ص ٣٤٠ــ٣٤١ ، قصص الأنبياء للنجار : ٢٣١)

بهم[1] خذوا ما آتيناكم بقوة[2] واذكروا ما فيه[3] لعلكم تتقون » ٠
(سورة الأعراف ١٧١)

ومع أن أخذ العهد عليهم بقبول مافي التوراة قد تم بذلك الشكل الرهيب الذي يجعلهم لا ينسونه أبداً ؛ فإنهم نكثوا العهد وأعرضوا عن التوراة بعد أن زال عنهم الخطر وأحسوا بالأمن :

« وإذا أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور[4] خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون ٠ ثم توليتم[5] من بعد ذلك فلولا فضل الله عليكم ورحمته لكنتم من الخاسرين » ٠
(سورة البقرة ٦٣ ـ ٦٤)

فكان عملهم مخالفاً لقولهم ، وكان نقضهم الميثاق لا يقل بشاعة عن عبادتهم العجل :

« ولقد جاءكم موسى بالبينات ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون ٠ وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا قالوا سمعنا وعصينا[6] وأشربوا في قلوبهم العجل[7]

---

(١) علموا أنهم ساقط عليهم إن أبوا أن يقبلوا أحكام التوراة ٠
(٢) بجد وعزم على احتمال مشاقه وتكاليفه ٠
(٣) احفظوا مافي الكتاب وادرسوه وامتثلوه ، ولا تنسوه ولا تغفلوا عنه ٠
(٤) الجبل ٠
(٥) أعرضتم عن الميثاق والوفاء به ٠
(٦) أي قالوا : سمعنا بلسانهم وعصينا بلسان حالهم حين عصوا أوامر نبيهم وخالفوا أحكام كتابهم ٠
(٧) أي تداخلهم حبه والحرص على عبادته ٠

بكفرهم قـل بئسما يأمركم بـه ايمانكم إن كنتم مؤمنـين[1] » ٠
(البقرة ٩٢ ـ ٩٣)

وذلك لأنهم نبذوا الميثاق وكتموا ما في الكتاب مقابل عَرَض يسير :

« وإذا أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتُبَيِّنُنَّه للناس ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا بـه ثمنا قليلا فبئس ما يشترون » ٠

(سورة آل عمران ١٨٧)

وكان أخلافهم شراً من أسلافهم إذ كانوا يأخذون الرشوة في الأحكـام وعلى تحريف الكلم :

« فخلف من بعدهم خَلْفٌ ورثوا الكتاب يأخذون عَرَضَ هذا الأدنى[٢] ويقولون سيُغْفَر لنا وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه[٣] ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب أن لا يقولوا على الله إلا الحق ودرسوا ما فيه والدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون » ٠

(الأعراف ١٦٩)

وكان اختلافهم في الكتاب وبعدهم عنه يزيد على مر العصور :

« ولقد آتينا موسى الكتاب فاختُلِفَ فيه ولولا كلمة سبقت من ربك[٤] لقضي بينهم[٥] وإنهم لفي شك منه مُريب » ٠

(سورة هود ١١٠ ، سورة فصلت ٤٥)

---

(١) إضافة الأمر الى ايمانهم تهكم ٠ وذلـك تشكيك في ايمانهم وقدح في صحة دعواهم له ٠

(٢) أي حطام الدنيا ٠

(٣) أي يرجون المغفرة وهم مصرون عائدون الى مثل فعلهم غير تائبين ٠

(٤) بتأخير العذاب الى أجل معلوم وجعل الحساب يوم القيامة ٠

(٥) لأهلكهم ٠

حتى إنهم كذبوا الأنبياء الذين بُعثوا بعد موسى عليه السلام ، وقتلوا بعضهم، وما ذاك إلا لأنهم أتوهم بالأمور المخالفة لأهوائهم وآرائهم، وألزموهم بأحكام التوراة التي خالفوها :

« ولقد آتينا موسى الكتاب وقَفَّينا[1] من بعده بالرسل وآتينا عيسى بن مريم البينات[2] وأيدناه بروح القُدس[3] أفكلما جاءكم رسول بمـــا لا تهوى[4] أنفسكم استكبرتم ففريقاً كذبتم وفريقـــا تقتلون[5] » .

(سورة البقرة ٨٧)

وأنكروا الوحي وكتموا كثيراً مما في كتابهم :

« وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء[6] قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نوراً وهدى للناس تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيراً[7] وعُلِّمتم مالم تَعْلَموا

(١) أتبعنا وأرسلنا على أثره .

(٢) المعجزات الواضحات .

(٣) أي بالروح المقدسـة ، أو بجبريل عليـه السـلام ، أو بالانجيل ، أو باسـم الله الأعظم .

(٤) لا تحب .

(٥) كزكريا ويحي عليهما السلام .

(٦) أي ما عظموا الله حق تعظيمه ، وما عرفوه حق معرفته حين أنكروا بعثة الرسل والوحـي .

(٧) مما فيه نعت الرسول . أي بعّضوه وجعلوه ورقات مفرقة ليتمكنوا مما راموا من الابداء والاخفاء .

أنتم ولا آباؤكم قل الله ثم ذرهم في خوضهم[1] يلعبون » ·

(سورة الأنعام ٩١)

ونسوا بعضه وحرّفوا بعضه الآخر ، واشتهروا بالخيانة ونقض المواثيق:

« فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم[2] وجعلنا قلوبهم قاسية يحرّفون الكَلِمَ عن مواضعه[3] ونَسُوا[4] حظاً مما ذُكِّرُوا به ولا تزال تطلع على خائنة منهم إلا قليلا منهم فاعفُ عنهم واصفح إن الله يحب المحسنين » ·

(سورة المائدة ١٣)

وموقفهم من محمد ﷺ كان أبشع وأشنع ؛ فمع أنهم كانوا على علم ببعثته ، لما يجدونه في كتابهم من نعته ، وكانوا يحدثون المشركين عنه ، فقد كفروا به بغياً وحسداً لأنه لم يكن منهم ، ولأن إيمانهم به لا يُبقي على مكانتهم الدينية بين الأميين ، ولا يسمح لهم بأكل المال بالباطل :

« ولما جاءهم كتاب[5] من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا[6] فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين · بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما

---

(١) في باطلهم الذي يخوضون فيه ·

(٢) طردناهم وأخرجناهم من رحمتنا ·

(٣) يتناولونه على غير ما أنزل ، ويحملونه على غير مراده ·

(٤) أي وتركوا العمل به رغبة عنه ·

(٥) أي القرآن الكريم ·

(٦) كانوا يقولون للمشركين : أظل زمان نبي فسنتبعه ونقتلكم معه قتل عاد وإرم·

أنزل الله بغياً[1] أن ينزّل الله من فضلـه على من يشاء من عبـاده فباؤوا[2] بغضب على غضب وللكافرين عذاب مهين » ٠

(سورة البقرة ٨٩ ـ ٩٠)

ولقد كانوا يحرفون التوراة ويلوون ألسنتهم بالكلام ليدل على البذيء الفاحش ، ويتظاهرون بأنهم يقصدون معنىً جميلاً حسناً ، ينوون الشتيمة والاهانة ويظهرون التوقير والاكرام :

«من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه[3] ويقولون سمعنا وعصينا واسمع غير مُسْمَعٍ[4] وراعنا[5] ليّاً بألسنتهم[6] وطعناً في الدين ولو أنهم قالوا سمعنا وأطعنا واسمع وانظُرنا لكان خيراً لهم وأقوم[7] ولكن لعنهم الله بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلا » ٠

(النساء ٤٦)

وكانوا يأخذون ما يوافق أهواءهم وشهواتهم ، ويجتنبون ما لا يحقق مصالحهم وأغراضهم :

---

(١) أي حسداً ٠

(٢) استوجبوا واستحقوا ٠

(٣) يميلونه عنها ، ويزيلونه ويضعون مكانه كلماً غيره ٠ وذلك نحو تحريفهم « أسمر ربعة » بوضعهم « آدم طوال » مكانه ٠

(٤) هذا القول يحتمل الذم ، أي اسمع منا مدعواً عليك بعدم السمع ، أو غير مسمع جواباً يوافقك ٠ ويحتمل المدح ، أي اسمع غير مأمور بالسمع ، أو غير مسمع مكروهاً من الكلام ٠

(٥) يحتمل انظرنا ، ويحتمل كلمة كانوا يتسابون بها ٠

(٦) فتلا بها وتحريفاً ، أي يفتلون بألسنتهم الحق الى الباطل ، أو ما يضمرونه من الشتم والهزء الى ما يظهرونه من التوقير ٠

(٧) أعـدل ٠

« ومن الذين هادوا سمّاعون للكذب سمّاعون لقوم آخرين لم يأتوك يحرفون الكَلِمَ من بعد مواضعه يقولون إن أوتيتم هذا فخذوه وإن لم تُؤتَوه فاحذروا[1] ومن يُرد الله فتنته[2] فلن تملك له من الله شيئاً أولئك الذين لم يُرِد الله أن يطهر قلوبهم لهم في الدنيا خِزي ولهم في الآخرة عذاب عظيم » . (المائدة ٤١)

فقد كان اليهود يسمعون من رسول الله ﷺ ليكذبوا عليه ويحرفوا ما سمعوه بالزيادة والنقصان والتبديل والتغيير ، كما كانوا يسمعون لأجل قوم آخرين منهم وجهوهم عيوناً ليبلغوهم ما سمعوا منه . ويزيلون الكلام عن مواضعه التي وضعه الله فيها ، ويعتبرون ما يوافقهم حقاً وخلافه باطلاً . وكانوا يقبلون ما يفتريه الأحبار ويفتعلونه من الكذب وتحريف الكتاب .

وقد روي أنهم غيروا حد الزنى ، واصطلحوا على الجلد مائة والتحميم والاركاب على حمار مقلوبين بدل الرجم ؛ واحتكموا الى رسول الله ﷺ في زنى يهودي ويهودية من أشرافهم لظنهم أنه يحكم بعقوبة أخف مما عندهم ؛ فيحتجون بذلك عند الله . وقالوا : إن أفتاكم بالتحميم والجلد فخذوه ، وإن أفتاكم بالرجم فاحذروا من قبوله واتباعه ولا تأخذوه . ولم يكن حد الزنى قد نزل على رسول الله ﷺ فقال لهم : ما تجدون في كتابكم ؟ قالوا : إن أحبارنا أحدثوا تحميم الوجه والتجبيه[3] .

---

(١) أ إن أوتيتم المحرف فاعلموا أنه الحق واعملوا به . وان أفتاكم محمد بخلافه فاياكم واياه ، فهو الباطل والضلال .

(٢) ضلالته .

(٣) تحميم الوجه : أي يصب عليه ماء حار مخلوط بالرماد ، والمراد تسخيم الوجه بالحميم وهو الفحم .
والتجبية : الاغلاظ في القول أو الفعل ، ومعناه الاركاب منكوساً بأن يحملا على دابة مخالفاً بين وجهيهما .

وقال عبد الله بن سلام(١) : ادعهم يا رسول الله بالتوراة • فأتى بها •

فوضع أحدهم يده على آية الرجم ، وجعل يقرأ ما قبلها وما بعدها• فقال له ابن سلام : ارفع يدك ، فإذا آية الرجم تحت يده • فأمر بهما رسول الله ﷺ فرجما(٢) • ونزل في ذلك قوله تعالى :

« إنا أنزلنا التوراة فيها هُدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار (٣) بما استُحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء فلاتخشوا الناس واخشون ولاتشتروا بآياتي ثمناً قليلا ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون • وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعينَ بالعين والأنفَ بالأنف والأذنَ بالأذن والسنَ بالسن والجروحَ قِصاص فمن تصدق به فهو كفارةٌ له ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون » •

(المائدة ٤٤ ـ ٤٥)

ووصلت بهم الوقاحة الى طلب المعجزات من رسول الله ﷺ فقالوا : إن كنت نبياً صادقاً فأتنا بكتاب من السماء جملة كما أوتي به موسى ، وقيل : كتاباً نعاينه حين ينزل • وقال ابن جريج : سألوه أن ينزل عليهم صحفاً من الله مكتوبة الى فلان وفلان بتصديقه فيما جاءهم به • فنزل قوله تعالى :

« يَسْئَلُكَ أهل الكتاب أن تُنَزِّلَ عليهم كتاباً من السماء فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرِنا اللهَ جهرة فأخذتهم

(١) كان يهودياً ثم أسلم وحسن اسلامه •

(٢) رواه الشيخان عن عبد الله بن عمر (خ ٦٨١٩ ، م ١٦٩٩) •

(٣) أي الزهاد والعلماء •

الصاعقة بظلمهم ثم اتخذوا العجل من بعد ما جاءتهم البينات فعفونا عن ذلك وآتينا موسى سلطانا مبينا • ورفعنا فوقهم الطور بميثاقهم وقلنا لهم ادخلوا الباب سجداً وقلنا لهم لا تَعْدُوا في السبت وأخذنا منهم ميثاقا غليظا » •

(سورة النساء ١٥٣ ـ ١٥٤)

وإنما اقترحوا ذلك على سبيل التعنت،حتى قامت عليهم الحجة باصرارهم على الكفر والضلال :

« أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه(١) من بعد ما عَقَلُوه(٢) وهم يعلمون » •

(سورة البقرة ٧٥)

---

(١) يتأولونه على غير تأويله •

(٢) أي فهموه •

٢٢ ــ لقــاء موسى بالخَضِر

عن أبي بن كعب ــ رضي الله عنه ــ عن النبي ﷺ « أن موسى قام خطيباً في بني اسرائيل ، فَسُئل : أي الناس أعلم ؟ فقال : أنا[١] • فعتب الله عليه إذ لم يردّ العلم إليه ، فقال له ، بلى ، لي عبد بمجمع البحرين هو أعلم منك •

قال : أي رب ، ومن لي به[٢] ؟

قال : تأخذ حوتاً فتجعله في مِكْتَل ، حيثما فقدت الحوت فهو ثَمّ[٣] •

وأخذ حوتاً فجعله في مكتل ، ثم انطلق هو وفتاه يوشَعْ بن نون ، حتى إذا أتيا الصخرة وضعا رؤوسهما ، فرقد موسى ، واضطرب الحوت ، فخرج فسقط في البحر ، فاتخذ سبيله في البحر سرباً ، فأمسك الله عن الحوت جرية الماء فصار مثل الطاق •

فانطلقا يمشيان بقية يومهما وليلتهما ، حتى إذا كان من الغد قال لفتاه :

آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً • ولم يجد موسى النصب حتى جاوز حيث أمره الله •

---

(١) في رواية أخرى : « سمعت رسول الله ﷺ يقول : بينما موسى في ملأ من بني اسرائيل جاءه رجل فقال : هل تعلم أحداً أعلم منك ؟ قال : لا • فأوحى الله الى موسى : بلى عبدنا خَضِر • فسأل موسى السبيل اليه ، فجُعل له الحوت آية وقيل له : إذا فقدت الحوت فارجع فانك ستلقاه » •
(البخاري ٣٤٠٠)

(٢) ربما قال سفيان : أي رب وكيف لي به ؟

(٣) أي هناك • وربما قال : فهو ثمه • وفي رواية أخرى : « خذ نوناً ميتاً حيث ينفخ فيه الروح » • وفي رواية أبي اسحق عندمسلم / ١٧٢ ــ (٢٣٨٠) / : « فقيل له : تزود حوتاً مالحاً ، فانه حيث تفقد الحوت » •

قال له فتاه : أرأيت إذ أوينا الى الصخرة فإني نسيت الحوت، وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره ، واتخذ سبيله في البحر عجباً ؛ فكان للحوت سرباً ولهما عجباً .

قال له موسى : ذلك ما كنا نبغي ، فارتدا على آثارهما قصصاً . حتى إذا انتهيا الى الصخرة ، فاذا برجل مسجى بثوب ، فسلم موسى ، فرد عليه فقال : وأنى بأرضك السلام ؟

قال : أنا موسى .

قال : موسى بني اسرائيل ؟

قال : نعم ، أتيتك لتعلمني مما علمت رشداً .

قال : يا موسى ! إني على علم من علم الله ، علمنيه الله ، لا تعلمه . وأنت على علم من علم الله ، علمكه الله ، لا أعلمه .

قال : هل اتبعك ؟

قال : إنك لن تستطيع معي صبراً، وكيف تصبر على ما لم تحط به خُبْراً.

قال : ستجدني إن شاء الله صابراً ولا أعصي لك أمراً .

فانطلقا يمشيان على ساحل البحر، فمرت سفينة، فكلموهم أن يحملوهم، فعرفوا الخَضِر[1] ،فحملوه بغير نَول[2] . فلما ركبا في السفينة جاء عصفور

(١) قال ﷺ : « إنما سمي الخضر لأنه جلس على فروة بيضاء فاذا هي تهتز من خلفه خضراء »
(رواه البخاري ومسلم والترمذي وأحمد عن أبي هريرة / خ ٣٤٠٢ /)
والفروة : الحشيش اليابس وما أشبهه . أو أرض بيضاء : ليس فيها نبات .
وحكي عن مجاهد أنه قيل له الخضر لأنه كان إذا صلى اخضر ما حوله .
(فتح الباري ج٦ ص ٤٣٣)

(٢) أجـرة .

فوقع على حرف السفينة ، فنقر في البحر نقرة أو نقرتين • قال له الخضر : يا موسى ! ما نقص علمي وعلمك من علم الله إلا مثل ما نقص هذا العصفور بمنقاره من البحر • إذ أخذ الفأس فنزع لوحاً • قال : فلم يَفجأ موسى إلا وقد قلع لوحاً بالقدوم[1] •

فقال له موسى : ما صنعت ؟ قوم حملونا بغير نَول ، عمدت الى سفينتهم فخرقتها لتغرق أهلها ، لقد جئت شيئاً إمراً •

قال : ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبراً ؟

قال : لا تؤاخذني بما نسيت ولا ترهقني من أمري عسراً •

فكانت الأولى من موسى نسياناً • فلما خرجا من البحر مروا بغلام يلعب مع الصبيان فأخذ الخضر برأسه فقلعه هكذا[2] •

فقال له موسى : أقتلت نفساً زكية بغير نفس ؟ لقد جئت شيئاً نكراً •

قال : ألم أقل لك : إنك لن تستطيع معي صبراً ؟

قال : إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني قد بلغت من لدني عذراً •

فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما ، فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقض مائلاً ـ أومأ بيده هكذا، وأشار سفيان كأنه يمسح شيئاً الى فوق ، فلم أسمع سفيان يذكر مائلاً إلا مرة ـ •

---

(١) في رواية أخرى : « ثم عمد الى ناحية منها ، فضرب فيها بالمنقار حتى خرقها • ثم أخذ لوحاً فطبقه عليها • ثم جلس عليها يرقعها » •

(٢) وأومأ سفيان بأطرافه كأنه يقطف شيئاً • وفي رواية أخرى : « فأخذ الخضر برأسه فقطعه » •وفي أخرى : « فأخذ غلاماً كافراً ظريفاً فاضجعه ثم ذبحه بالسكين » • (البخاري ٤٧٢٧ ، ٤٧٢٦)

قال : قوم أتيناهم فلم يطعمونا ولم يضيفونا ، عمدت الى حائطهم ، لو شئت لاتخذت عليه أجراً •

قال : هذا فراق بيني وبينك • سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبراً •

قال النبيﷺ:وددنا أن موسى كان صبر فقص الله علينا من خبرهما»(١)
وهذه الآيات تبين وقائع القصة والحكمة منها :

« وإذ قال موسى لفتاه(٢) لا أبْرَحُ(٣) حتى أبلغ مجمع البحرين(٤) أو امضي حُقُبا(٥) • فلما بلغا مجمع بينهما نسيا حوتهما فاتخذ سبيله في البحر سَرَبا(٦) • فلما جاوزا قال لفتاه آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نَصَباً(٧) •

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤٠١ ، ٤٧٢٥) ومسلم (٢٣٨٠) •
(٢) قيل فتاه لأنه كان يخدمه ويتبعه ويأخذ منه العلم •
(٣) لا أزال سائراً •
(٤) اختلف في مكان البحرين، فروي انهما بحر فارس والروم(الأبيض المتوسط)• وقيل هما بحر الأردن (الميت) والقلزم (الأحمر) • وقيل بحر الروم وبحر القلزم ، ومجمعهما في منطقة البحيرات المرة وبحيرة التمساح • أو أنه مجمع خليجي العقبة والسويس • والله أعلم •
(٥) أسير زماناً طويلا • وروي أن الحقب سنة ، كما روي أنه ثمانون سنة •
(٦) سُربا :: مسلكاً ومذهباً • وفي رواية عن أبي بن كعب : « فبينا هو في ظل صخرة في مكان ثريان ، اذ تضرب الحوت حتى دخل البحر ، فأمسك الله عنه جرية البحر حتى كأن أثره في حجر » • (البخاري : ٤٧٢٦) وفي رواية أخرى عنه : « وفي أصل الصخرة عين يقال لها : الحياة ، لا يصيب من مائها شيء إلا حَيي ، فأصاب الحوت من ماء تلك العين فتحرك وانسل من المكتل فدخل البحر » • (البخاري : ٤٧٢٧) وفي رواية أبي اسحق عند مسلم : « فاضطرب الحوت في الماء ، فجعل لا يلتئم عنه ، صار مثل الكوة » •
(٧) تعباً •

قال أرأيت إذ أوينا الى الصخرة فاني نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطانُ أن أذكره واتخذ سبيله في البحر عجباً ٠

قال ذلك ما كنا نَبْغِ[1] فارتدا على آثارهما قصصا[2] ٠ فوجدا عبداً من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علماً ٠ قال له موسى هل اتبعك على أن تعلّمَني مما عُلّمْتَ رُشداً ٠ قال إنك لن تستطيع معي صبراً ٠ وكيف تصبر على ما لم تُحِط به خُبْراً ٠ قال ستجدني إن شاء الله صابراً ولا أعصي لك أمراً ٠ قال فان اتبعتني فلا تسألني عن شيء حتى أحْدِثَ لك منه ذكراً ٠

فانطلقا حتى إذا ركبا في السفينة خرقها قال أخرقتَها لتغرق أهلها لقد جئتَ شيئاً إمْراً[3] قال ألم أقل إنك لن تستطيع معيَ صبراً قال لا تؤاخذني بما نسيتُ ولا ترهقني من أمري عُسْراً[4] ٠

فانطلقا حتى إذا لقيا غلاماً فقتله قال أقتلت نفساً زَكيّة[5] بغير نفس لقد جئت شيئاً نُكْراً ٠ قال ألم أقل لك إنك لن تستطيع معيَ صبراً ٠ قال إن سألْتُكَ عن شيء بعدها فلا تصاحبني قد بلغت من لَدُني عذراً ٠

---

(١) نطلب ٠

(٢) أي يتبعان آثارهما ٠

(٣) عظيماً ٠

(٤) أي ولا تعسر علي ٠

(٥) أي طاهرة لم تذنب ، أو صغيرة لم تبلغ الحنث ٠

فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية[١] استطعما أهلهـا فـأبـوا أن يُضَيِّفوهُما فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقض[٢] فأقامه[٣] قـال لو شئت لَتَّخَذْتَ عليه أجراً • قـال هـذا فِراقُ بيني وبينك سأنبِئُكَ بتأويل ما لم تستطع عليه صبراً[٤] •

أما السفينةُ فكانت لمساكين يعملون في البحر فأردت أن أعيبها وكان وراءهم مَلِكٌ يأخذ كـل سفينة غصبا[٥] • وأما الغـلام[٦] فكان أبواه مؤْمنين فخشينا أن يرهقهما[٧] طغياناً وكفراً[٨] • فأردنا أن يُبْدِلَهُما ربهما خيراً منه زكاة وأقرب رُحْماً[٩] • وأما الجدار

---

(١) قيل هي انطاقية أو الأبُلّة ، وهي بلدة على شاطىء دجلة في زاوية الخليج الذي يدخل الى مدينة البصرة ، ولعلها أيْلَة الواقعة في رأس خليج العقبة •
(معجم البلدان ج١ ص ٧٧ ، ٢٩٢)

(٢) يسقط ، يقع •

(٣) فرده الى حالة الاستقامة •

(٤) في رواية أبي اسحق عند مسلم / ١٧٢ ـ (٢٣٨٠) / : « ولو صبر لرأى العجب » •

(٥) قرأها ابن عباس : « وكان أمامهم ملك يأخذ كل سفينة غصباً » •

(٦) قال الكلبي : كان الغلام يسرق المتاع بالليل ، فاذا أصبح لجأ الى أبويه ، فيحلفان دونه شفقة عليه ، ويقولان : لقد بات عندنا •
(قصص الأنبياء للثعلبي ص ١٩٦)

(٧) يغشاهما •

(٨) أي يحملهما حبه على متابعته على الكفر • قال النبي ﷺ : « الغلام الذي قتله الخضر طبع كافراً • ولو عاش لأرهق أبويه طغياناً وكفراً • (مسلم)

(٩) رحمة وعطفاً • عن ابن عباس قال : « أبدلهما جارية فولدت نبياً من الأنبياء » وفي تفسير ابن الكلبي : ولدت جارية ولدت عدة أنبياء ، فهدى الله بهم أمماً • وقيل : عدة من جاء من ولدها من الأنبياء سبعون نبياً •
(تفسير النسفي ج٣ ص ٢٤)

فكان لغلامين يتيمين في المدينة وكان تحته كنز لهما وكان أبوهما صالحاً فأراد ربك أن يبلغا أشُدَّهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك وما فعلتُه عن أمري ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبراً » .

(سورة الكهف ٦٠ ــ ٨٢)

فلو بقيت السفينة سالمة لاغتصبها الملك الظالم . ولو عاش الغلام لأرهق والديه المؤمنين بكفره وطغيانه،وقادهما بدافع حبهما له الى أن يتبعاه في طريقه. ولو ترك الجدار ينقض لظهر الكنز من تحته ، فلم يستطع الصغيران أن يدفعا عنه أهل القرية اللئام . ولما كان أبوهما صالحاً ، فقد نفعهما الله بصلاحه في طفولتهما وضعفهما ، فأراد أن يكبرا ويشتد عودهما ويستخرجا كنزهما حين يقدران على حمايته .

وفي القصة من الفوائد :

استحباب الحرص على العلم ، والازدياد منه ، والرحلة فيه ، والتأدب في طلبه ، وعدم الغرور بتحصيله . وجواز دفع أغلظ الضررين بأخفهما ، والاغضاء عن بعض المنكرات مخافة أن يتولد منها ماهو أشد، وافساد بعض المال لاصلاح معظمه . وان الرجل الصالح يحفظ في ذريته ، وتشملهم بركة عبادته في الدنيا والآخرة ، بشفاعته فيهم ورفع درجتهم لتقر عينه بهم .

وهي تعلمنا الصبر والحكمة والاستسلام للمشيئة الالهية ، وترك الغيب لله الذي يدبر الأمر بحكمته وفق علمه الشامل الذي يقصر عنه البشر .

أما فتى موسى ! فلم يعد يذكر في سياق القصة ، لأن المقصود ذكر ما كان من العجائب لنعتبر بها ، وقد كان تابعاً لموسى ــ عليه السلام ــ لا يعمل إلا ما يكلفه به[1] .

---

(١) تفسير ابن كثير ج٣ ص ٩٢ ــ ١٠٠ ، فتح الباري لابن حجر ج٨ ص ٤٢١ ــ ٤٢٢ ، في ظلال القرآن : ٢٢٧٧ ــ ٢٢٨٢ .

٢٣ - ذبح البقرة

كان رجل من بني اسرائيل غنياً ، ولم يكن له ولد ، وكان له ابن عم مسكين[١] ، ولا وارث له غيره ، فلما طالت عليه حياته قتله ليرث ماله ، وحمله وألقاه على مجمع الطريق ، وأتى موسى فقال : إن قريبي قتل ، وإني لا أجد أحداً يبين لي قاتله غيرك يا نبي الله !

فنادى موسى في الناس : من كان عنده علم من هذا فليبينه ، فلم يكن عندهم علم • فأوحى الله إليه : قل لهم فليذبحوا بقرة[٢] • وإليك الآيات التي تروي بقية القصة :

« وإذا قال موسى لقومه إنّ الله يأمركم أن تذبحوا بقرة

قالوا أتتخذنا هزوا

قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين[٣] •

قالوا ادعُ لنا ربك يبين لنا ما هي

قال إنه يقول إنها بقرة لا فارض[٤] ولا بكر[٥] عوان بين ذلك[٦] فافعلوا ما تؤمرون •

---

(١) قيل انه ابن أخيه • (تفسير ابن كثير ج١ ص ١٠٨)

(٢) الكامل لابن الأثير ج١ ص ١٩٣ ـ ١٩٤ ، قصص الأنبياء للثعلبي ص ٢٠١ ، فتح الباري ج٦ ص ٤٤٠ •

(٣) المستهزئين ، لأن الهزء في مثل هذا من باب الجهل والسفه •

(٤) مسنة ، هرمة •

(٥) فتية ، صغيرة •

(٦) نصف بين البكر والهرمة •

قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها

قال إنه يقول إنها بقرة صفراء فاقع لونها[١] تسر الناظرين[٢]

قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هي إن البقر تشابه علينا وإنا إن شاء الله لمهتدون ٠

قال إنه يقول إنها بقرة لا ذلـول[٣] تثير الأرض ولا تسقـي الحرث[٤] مُسَلَّمة"[٥] لا شِيَة فيها [٦]

قالوا الآن جئت بالحق فذبحوها وما كادوا يفعلون ٠

« وإذ قتلتم نفسـاً[٧] فادّارأتم[٨] فيها والله مخرج ما كنتـم تكتمون ٠

فقلنا اضربوه ببعضها[٩] كذلك يحي الله الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون ٠

---

(١) صاف لونها ، شديدة الصفرة ٠

(٢) تعجبهم ٠

(٣) لم يذلها العمل ٠

(٤) اي لم تسخر لحرث الأرض أو نضح الماء لسقي المزروعات ٠

(٥) أي خالية من العيوب وآثار العمل ٠

(٦) لا بياض ولا أي لون آخر غير الصفرة فيها ٠

(٧) قيل : ان اسم المقتول : عاميل ٠

(٨) اختلفتم ، ودفع كل واحد التهمة عن نفسه ٠

(٩) قيل : ضربوه بلسانها ، أو بعظمها ، أو فخذها اليمنى ، أو عجب ذنبها ، أو بالبضعة التي بين الكتفين ٠

ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة وإنّ من الحجارة لَـمَـا يتفجّرُ منه الأنهار وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء وإن منها لما يهبط من خشية الله وما الله بغافل عما تعملون » .

(سورة البقرة ٦٧ ـ ٧٤)

وهذه القصة تبين لنا مدى العنت والجدل والقسوة والطمع عنـد بني اسرائيل ؛ إذ قتلوا النفس بدون حق ، مع أن رسولهم حذرهم من مغبة القتل وأكد لهم حرمة النفس البشرية :

« من أجل ذلك كتبنا على بني اسرائيل أنه من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتـل الناس جميعاً ومن أحياها[1] فكأنما أحيا الناس جميعا ولقد جاءتهم رسلنا بالبينات ثم إن كثيراً منهم بعد ذلك في الأرض لمسرفون » .

(المائـدة ٣٢)

وكان القاتل قريب القتيل ، والقتل لأخذ ماله ! مـع أن المرء يتصف بالشفقة والاحسان والعطف على أقاربه أكثرمن غيرهم . ثم ارتكب المجرم حماقة أخرى حين طلب من نبي الله أن يكشف عن القاتل ، وظن أنـه بذلك يدفع التهمة عن نفسه !

وحين قال لهم نبيهم: «إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة»، قابلوه بالاستنكار والرد الذي لا يليق أن يوجه الى رسول كريم أنقذهم من الذل والهوان ، فكان جوابهم سفاهة وسوء أدب ، واتهاماً لنبيهم بأنه يهزأ بهم ويسخر منهم .

ولو أنهم امتثلوا أمره ، وذبحوا أي بقرة كانت لأجزأت عنهم . ولكنهم شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهـم . وكانوا يتعنتون في سؤالهم كأنهـم

---

(١) استنقذها من أسباب الهلكة من قتل أو غرق أو حرق أو هدم أو غير ذلك .

لا يعرفون البقر ، ويقولون كل مرة : « ادعُ لنا ربك » كأن الله ليس ربهم ! ولولا أنهم أدركوا تعنتهم واستثنوا فقالوا : « ان البقر تشابه علينا وإنا إن شاء الله لمهتدون ، لما اهتدوا إليها أبداً .

ولذلك نهى الله تعالى عن الأسئلة التي تؤدي الى الضيق والحرج :

« يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبدَ لكم تسؤكم وإن تسألوا عنها حين ينزَّل القرآن تبدَ لكم عفا الله عنها والله غفور حليم . قد سألها قوم من قبلكم ثم أصبحوا بها كافرين » .

(سورة المائدة ١٠١ ــ ١٠٢)

كما نهى الرسول ﷺ عن الأسئلة التي تؤدي الى المنع والتحريم فقال :

« إن أعظم المسلمين بالمسلمين جُرماً من سأل عن شيء لم يحرم فحرم من أجل مسألته[١] .

وعندما التمسوا تلك البقرة الصفراء التي تسر الناظرين ، والمتوسطة في السن ، والتي لا تقوم بأي عمل ، ولا يوجد فيها أي عيب ، لم يجدوها إلا عند رجل منهم كان باراً بأمه فغالى بها حتى أخذ ملء جلدها ذهباً ، فذبحوها وضربوا القتيل ببعض أعضائها فحيي وقام فقال : قتلني فلان . ثم مات . فأخذ القاتل فقتل ، ولم يعط من ماله شيئاً[٢] .

ولا نستطيع أن ندرك العلاقة بين احياء الميت وضربه ببعض بقرة مذبوحة، فسر الحياة لا يمكن للإنسان أن يعلمه :

---

(١) أخرجه البخاري (٧٢٨٩) ومسلم وابن حيان عن سعد بن أبي وقاص .

(٢) اعتبر الاستاذ عبد الوهاب النجار الآيات دالة على قصتين منفصلتين ، أي : « واذ قال موسى لقومه إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة .. » قصة لا علاقة لها بالقصة الثانية التي تبدأ بـ : « واذ قتلتم نفساً .. » . =

= وقال : « قتل النفس والتدارؤ فيها مسألة مستقلة بنفسها غير مرتبطة بما قبلها .

« القصة التي أمر فيها موسى بذبح البقرة ، الغرض منها أن يقص الله على رسوله نموذجاً مما بلغ إليه تعنت بني اسرائيل دون استيفاء القصة استيفاء يشتمل على بيان الحكمة الباعثة على أمرهم بذبح البقرة .

« وأما القصة الأخرى المبينة في : « واذ قتلتم نفساً فادارأتم فيها » فإنه تعالى يقص علينا فيها لوناً من أفضاله على بني اسرائيل وحل مشكلاتهم بطريقة لم تخطر لهم ولا لبشر ببال ، وظلت هـذه الحكمة العاليـة المشتملة عليها تلك الطريقة غامضة » .

ثم بين طريقة التعرف على القاتل بحسب ما تدل عليه الآية بقوله :

« فذلك بأن يأتوا بالمتهم ، ثم يضربونه بجزء من تلك النفس أي من القتيل وهو متصل ببقية الجسم ، بأن يأتي واحد ويضرب المتهم بيد القتيل أو رجله، فإذا كان المتهم بريئاً لم يحدث له شـيء ، واذا كان قاتـلا ظهر عليه انفعال نفسي ورعدة يعلم بسببها أنه القاتل دون سواه .

« فالله سبحانه وتعالى أراد ببيان هذه الطريقة أن يعلم الفاعل بلا لبس ويقتص منه ويحيا من كانوا مظنة للاتهام وهم برآء » .

(قصص الأنبياء للنجار ص ٢٦١ ـ ٢٦٧)

وقد أيد قوله بشهادات المحققين ، وجعل الآيـة موافقة لمقررات علـم النفس الجنائي حتى لا يقول باحياء الميت كما تدل عليه الآية .

وقد سبقه الى هذا التعسف في التأويل الشيخ محمد رشيد رضا إلا أنه اعتبر الآيات دالة على قصة واحدة . اذ قـال في تفسيره : « فقلنـا اضربوه ببعضها كذلك يحي الله الموتى .. » .

« إن ذلك العمل كان وسيلة عندهم للفصل في الدماء عند التنازع في القاتل ، اذا وجد القتيل قرب بلد ، ولم يعرف قاتلـه ليعرف الجاني من غـيره ، فمن غسل يده وفعل ما رسم لذلك في الشريعة بريء من الدم ، ومن لم يفعل ثبتت عليه الجناية .

« ومعنى احياء الموتي على هذا حفظ الدماء التي كانت عرضة لأن تسفك بسبب الخلاف في قتل تلك النفس ؛ أي يحيها بمثل هذه الأحكام .. فالاحياء هنا معناه الاستبقاء .

« ثم قال : « ويريكم آياته » بما يفصل بها في الخصومات ويزيل أسباب الفتن والعدوان » . (تفسير المنار ج١ ص : ٣٥١)

« ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » .
(سورة الاسراء ٨٥)

ولعل الأمر بذبح البقرة يراد منه استئصال أي أثر بقي في قلوبهم من حب العجل وتقديس البقر ، فالبقرة تذبح مهما بلغت قيمتها ، وليست إلهاً يعبد ، وهي تذبح من أجل إنسان ميت ، وليس الانسان عبداً لها .

ثم إن احياء الميت الذي حدث في هذه القصة ، والذي حدث للسبعين الذين أخذتهم الرجفة دليل على احياء الموتى يوم القيامة ، يزيل أي شك من قلوب المشاهدين لهذه المعجزة في الآخرة .

ولكن بني اسرائيل مردوا على الغلظة والقسوة ، فلم تتأثر قلوبهم بالآيات والعظات ، فكانت أشد قسوة من الحجارة ! وهذا شأن النفوس التي تعاني طويلا من الظلم والاستبداد فتصبح خانعة مستجدية تحت سوط الجلاد ، وتتمرد حين يرفع عنها السوط ، وتبطر حين يتاح لها شيء من النعمة والقوة . أما النفوس السوية المؤمنة فتتصف بالتواضع والعزة والمروءة ، لا تطغيها القوة ولا يذلها الضعف . قال تعالى :

« إن الانسان خُلق هلوعاً[1] إذا مَسَّهُ الشر[2] جزوعا . وإذا مسه الخير[3] منوعاً . إلا المصلين . الذين على صلاتهم دائمون[4] » .
(سورة المعارج ١٩ ـ ٢٣)

---

(١) الهلع : الجزع عند مس المكروه ، والمنع عند مس الخير . والهلوع : هو الذي اذا ناله شر أظهر شدة الجزع ، واذا ناله خير بخل به ومنعه الناس .
(٢) الضر والفقر .
(٣) السعة والغنى .
(٤) يحافظون على الصلاة في مواقيتها .

٢٤ ـ تخاذل بنـي اسرائيـل

سار موسى ـ عليه السلام ـ بقومه نحو الأرض المقدسة ، وقام يذكرهم بنعم الله وفضله عليهم ؛ إذ جعل فيهم أنبياء يهدونهم سواء السبيل ، وجعلهم أحراراً يملكون أنفسهم بعد أن كانوا خاضعين لغيرهم،وآتاهم الكتاب ورزقهم من الطيبات • ثم حرضهم على الجهاد وقتال أعدائهم ، وأمرهم بدخول الأرض المقدسة ، وحذرهم من الجبن والتقاعس :

« وإذ قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكاً[1] وآتاكم ما لم يؤتِ أحداً من العالمين • يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كَتَبَ الله لكم[2] ولا ترتدوا على أدباركم[3] فتنقلبوا خاسرين » •

(سورة المائدة ٢٠ ـ ٢١)

وقد اختلف المفسرون والمؤرخون في الأرض المقدسة ما هي ؟

فقال مجاهد عن ابن عباس : هي الطور وما حوله •

وقال السدي وعكرمة عن ابن عباس : هي أريحا •

والأرجح أنها بيت المقدس الذي كان بأيديهم في زمان أبيهم يعقوب لما ارتحل هو وبنوه وأهله الى بلاد مصر أيام يوسف عليه السلام ، وقد قال بذلك مقاتل والربيع بن أنس وقتادة وأبو مسلم الأصفهاني وغيرهم • وهذا ما اختاره

---

(١) قال السدي : يملك الرجل منكم نفسه وماله وأهله (رواه ابن أبي حاتم) وقيل : كانوا مملوكين في أرض القبط ، فأنقذهم الله ، فسمى انقاذهم ملكاً •

(٢) التي أمركم الله بها •

(٣) لا تنكلوا عن الجهاد •

النسفي ورجحه ابن كثير رحمه الله الذي استبعد أن تكون أريحا ، البلدة المعروفة بشرقي بيت المقدس ؛ لأنها ليست على طريقهم وهم قاصدون بيت المقدس ، وليست هي المقصودة بالفتح ، إلا أن يكون المراد بأريحا ، أرض بيت المقدس كما قاله السدي فيما رواه الطبري عنه إذ قال :

« ثم أمرهم بالسير الى أريحا ، وهي أرض بيت المقدس »[1] .

ولما أصبحوا قريباً منها نظم موسى قومه ، وجعل عليهم اثني عشر نقيباً من جميع أسباط بني اسرائيل ، وأخذ عليهم العهد بالإيمان والتوحيد :

« ولقد أخذ الله ميثاق بني اسرائيل وبعثنا منهم اثني عشر نقيبا[2] وقال الله إني معكم[3] لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وآمنتم برسلي وعزّرتموهم[4] وأقرضتم الله قرضاً حسنا[5] لأكفّرنّ عنكم سيئاتكم[6] ولأدخلنكم جنات تجري من تحتها الأنهار فمن كفر بعد ذلك منكم فقد ضل سواء السبيل » .

(سورة المائدة ١٢)

وهؤلاء النقباء كانوا عرفاء على قبائلهم ، ويكفلونهم بالوفاء بما أمروا به ، وهم الذين ولوا المبايعة عن قومهم على السمع والطاعة، وقد بعثهم موسى

---

(١) تاريخ الطبري ج١ ص ٤٢٩ ، الكامل لابن الأثير ج١ ص ١٩٥ ، قصص الأنبياء للثعلبي : ٢٠٥ ـ ٢٠٦ ، تفسير النسفي ج١ ص ٢٧٧ ، تفسير ابن كثير ج١ ص ٩٨ ، ج٢ ص ٣٧ ـ ٣٨ .

(٢) النقيب هو الذي ينقب عن أحوال القوم ، ويفتش عنها .

(٣) ناصركم ومعينكم .

(٤) عظمتموهم أو نصرتموهم .

(٥) القرض الحسن هو الانفاق في سبيل الله وابتغاء مرضاته .

(٦) امحوها واسترها .

ـ عليه السلام ـ ليأتوا بخبر الكنعانيين الجبابرة الذين كانوا يسكنون تلك الأرض • فلما اطلعوا على ضخامة أجسامهم وخلقهم الهائل ذعروا منهم ورجعوا الى قومهم يلقون في قلوبهم الرعب ، مما جعلهم يتخاذلون ويجبنون عن قتالهم:

« قالوا يا موسى إنَّ فيها قوماً جبارين وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فان يخرجوا منها فانا داخلون » • (المائدة ٢٢)

إلا آن رجلين من النقباء ممن يخاف آمر الله ويخشى عقابه قالا لقومهما : ادخلوا عليهم باب القرية ، وتوكلوا على الله ، فهو يعينكم وينصركم ، فلم ينفع هذا القول فيهم شيئاً ، وتمادوا في الجبن والخذلان :

« قال رجلان[1] من الذين يخافون أنعَمَ اللهُ عليهما ادخلوا عليهم الباب فاذا دخلتموه فانكم غالبون وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين • قالوا يا موسى إنا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها فاذهب أنت ورَبُّك فقاتلا إنّا ها هنا قاعدون » •

(سورة المائدة ٢٣ ـ ٢٤)

فلما نكلوا عن القتال وأيس موسى ـ عليه السلام ـ من استجابتهم دعا عليهم :

« قال رَبِّ إني لا أملِك إلا نفسي وأخي فافرُق[2] بيننا وبين القوم الفاسقين • قال فانها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض[3] فلا تأسَ[4] على القوم الفاسقين » •

(سورة المائدة ٢٥ ـ ٢٦)

---

(١) يقال إنهما : يوشع بن نون فتى موسى ، وكالب بن يوفنا ختن موسى ، زوج زوج أخته مريم • (تاريخ الطبري ج١ ص ٤٧٧)

(٢) فافصل بيننا وبينهم ، أو فباعد بيننا وبينهم •

(٣) يسيرون فيها متحيرين ، لا يهتدون طريقاً •

(٤) لا تحزن •

فارتدوا على ادبارهم ، وانقلبوا خاسرين ، وباؤوا بغضب من الله، وتاهوا في الأرض أربعين سنة ، يصبحون كل يوم يسيرون ليس لهم قرار • وهناك حدثت أمور عجيبة وخوارق كثيرة سنبينها في الفصل التالي إن شاء الله تعالى•

وإن هذا الموقف من بني اسرائيل يدل على جبنهم وخوفهم من الموت وحبهم للحياة :

« ولَتَجِدَنَّهُمْ أحرص الناس على حياة ومن الذين أشركوا يود أحدهم لو يُعَمَّرُ ألف سنة وما هو بمزحزحه من العذاب أن يُعَمَّرَ والله بصير بما يعملون » • (سورة البقرة ٩٦)

وصفة الخوف والجبن ظهرت عليهم بشكل واضح في تاريخ حروبهم ضد المسلمين ، إذ لم يجرؤوا على الوقوف في وجههم في أي معركة • قال تعالى :

« لأنتم أشدُّ رهبة في صدورهم من الله ذلك بأنهم قوم لا يفقهون • لا يقاتلونكم جميعاً إلا في قرى محصنة أو من وراء جُدُر بأسهم بينهم شديد تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى ذلك بأنهم قوم لا يعقلون» •
(سورة الحشر ١٣ ــ ١٤)

وإن أمر بني اسرائيل بدخول الأرض المقدسة في عهد موسى ــ عليه السلام ــ لا يعني أن يكون للصهاينة الحق في اقامة كيان لهم فوق أرض فلسطين وطرد أهلها منها ، فالذين خوطبوا في هذه الآيات مؤمنون ، وهم منحدرون من سلالة يعقوب الذي عاش في تلك الأرض ، فهم أحق بها من أولئك القوم الوثنيين الذين كانوا يدنسونها ، أما اليهود الذين جاؤوا الى فلسطين من أوروبا وأمريكا وروسيا وغيرها من أصقاع العالم فليسوا من نسل اسرائيل ، وليس لهم حق في فلسطين التي فتحها المسلمون واستوطنوها منذ أربعة عشر قرناً ، وأصبحوا أحق بها وأهلها •

غير أن اليهود الذين أقاموا في تلك الأرض من قديم ، ورضوا بالعيش في ظل الاسلام بدون أن يعتدوا على المسلمين أو يعينوا أعداءهم ، فقد أمنهم هذا الدين على دمائهم وأموالهم ، ولم يعاملهم بغير البر والعدل • قال تعالى :

« لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم(١) وتقسطوا إليهم(٢) إن الله يحب المقسطين • إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على اخراجكم أن تولّوهم ومن يتولّهُمْ فأولئك هم الظالمون » •

(سورة الممتحنة ٨ ـ ٩)

فخلافنا مع اليهود في هذا العصر ليس نزاعاً على الحدود ، ولا يمكن أن يسوى بأنصاف الحلول ، فإما أن يخرج اليهود الذين احتلوا فلسطين ، وإما الجهاد حتى يأتي الله بالفتح أو أمر من عنده ، وإن رجوعنا الى ديننا وعودتنا الى قرآننا كفيل بذلك ؛ وهو الذي يكشف لنا طباع يهود ، ويكشفهم على حقيقتهم ، ويدلنا على مفتاح النصر :

« يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم » •

(سورة محمد ٧)

ونصر الله يكون بتصحيح العقيدة وترسيخ الإيمان ، وبعبادة الله والعمل بشريعته ، كما يكون بالاستعداد وحيازة القوة الممكنة :

---

(١) تكرموهم وتحسنوا إليهم •

(٢) وتقضوا إليهم بالعدل ولا تظلموهم •

« وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين مـن دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم وما تنفقوا من شيءفي سبيل الله يـوَفَّ إليكم وأنتم لا تُظلمون» .

(سورة الأنفال ٦٠)

وإن النصر قريب بإذن الله . عن أبي هريرة ــ رضي الله عنه ــ أن رسول الله ﷺ قال :

« لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود ، فيقتلهم المسلمون ، حتى يختبىء اليهودي من وراء الحجر والشجر . فيقول الحجر أو الشجر : يا مسلم! يا عبد الله ! هذا يهودي خلفي فتعال فاقتله ، إلا الغرقد[1] فإنه من شجر اليهود[2] » .

---

(١) شجر معروف له شوك ، يوجد في أرض بيت المقدس .

(٢) رواه مسلم : ٨٢ ــ (٢٩٢٢) والترمذي ، ورواه البخاري : ٣٥٩٣ وابن ماجه عن عبد الله بن عمر .

٢٥ ـ التيــــه

كان التيه بمثابة سجن مؤبد في الصحراء ، أو حكم بالنفي مدى الحياة على بني اسرائيل جزاء جبنهم وتخاذلهم .فلما ضرب عليهم التيه قالوا: ياموسى أين الطعام ؟ فأنزل الله عليهم المن والسلوى :

« يا بني اسرائيل قد أنجيناكم من عـدوكم[١] وواعدناكم[٢] جانبَ الطورِ الأيمنَ ونزّلنا عليكم المن والسلوى . كلوا مـن طيبات ما رزقناكم ولا تطغوا فيه[٣] فيَحِلَّ عليكم غضبي[٤] ومن يَحْلِلْ عليه غضبي فقـد هوى[٥] . وإني لغفار لمن تاب وآمـن وعمل صالحاً ثم اهتدى » . (سورة طه ٨٠ ـ ٨٢)

وقد اختلفت عبارات المفسرين في المن ما هو ؟

١ ـ فقال مجاهد : « المن صمغة ، والسلوى الطير » . (البخاري)

٢ ـ وقال ابن عباس رضي الله عنهما : « كان المن ينزل على الأشجار ، فيغدون إليه ، فيأكلون منه ما شاؤوا » .

٣ ـ وقال عكرمة : « المن شيء أنزله الله عليهم مثل الطل ، شبه الرُّب الغليظ » .

---

(١) أي فرعون .

(٢) نسب إليهم المواعدة لأنها كانت لنبيهم ونقبائهم ، وإليهم رجعت منافعها التي قام بها شرعهم ودينهم .

(٣) لا تتعدوا حدود الله فيه بأن تكفروا النعم ، أو لا تأخذوه من غير حاجة .

(٤) أي اغضب عليكم ، وتنزل عليكم عقوبتي .

(٥) شقي ، هلك .

٤ ــ وقال قتادة : « كان المن ينزل عليهم في محلهم سقوط الثلج ، أشد بياضاً من اللبن وأحلى من العسل ، يسقط عليهم من طلوع الفجر الى طلوع الشمس • يأخذ الرجل منهم ما يكفيه يومه ذلك ، فإذا تعدى ذلك فسد ولم يبقَ • حتى إذا كان يوم سادسه يوم جمعة أخذ ما يكفيه ليوم سادسه ويوم سابعه لأنه كان يوم عيد ، لا يشخص فيه لأمر معيشته، ولا يطلبه لشيء،وهذا كله في البَرِّيّة[1] » •

٥ ــ وقال السدي: «كان عسلاً يقع على الشجر في الليل فيأكلون منه» •

وهذه الأقوال كلها لا تنافي فيها ؛ فهي متقاربة تدل على أن المن حبيبات كقطرات الندى ، بيضاء جامدة حلوة • إن أكل وحده كان طعاماً وحلاوة ، وإن مزج مع الماء صار شراباً طيباً[2] •

أما السلوى ! فطير أكبر من العصفور مثل الحمام ، كان يأتيهم فيسترسل إليهم ، فيأخذونه بأيديهم •

١ ــ قال ابن عباس وابن مسعود رضي الله عنهم : « السلوى طائر يشبه السماني » • وقيل : هو السماني •

٢ ــ وقال قتادة : « السلوى كان من الطير الى الحمرة ، تحشرها عليهم الريح الجنوب وكان الرجل يذبح منها قدر ما يكفيه يومه ذاك ؛ فإذا تعدى فسد ولم يبق عنده • حتى إذا كان يوم سادسه ليوم جمعة أخذ ما يكفيه ليوم سادسه ويوم سابعه •• » •

---

(١) رواها ابن أبي حاتم •

(٢) تاريخ الطبري ج١ ص ٤٣٠ ، الكامل لابن الأثير ج١ ص ١٩٦ ، قصص الأنبياء للثعلبي ص ٢١٢ ــ ٢١٣ تفسير ابن كثير ج١ ص ٩٥ ــ ٩٧ ، فتح الباري لابن حجر العسقلاني ج٨ ص ١٦٤ ٠

٣ ــ وقال وهب بن منبه : « السلوى طير سمين مثل الحمامة ، كان يأتيهم فيأخذون منه من سبت الى سبت » • وفي رواية عنه قال : « سألت بنو اسرائيل موسى ــ عليه السلام ــ لحماً فقال الله : لأطعمنهم من أقل لحم يعلم في الأرض ، فأرسل عليهم ريحاً ، فأذرت عند مساكنهم السلوى ــ وهو السماني ــ مثل ميل في ميل ، قدر رمح في السماء • فخبؤوا للغد فنتن اللحم[1] » •

وهكذا يبدو الطمع والجشع عند بني اسرائيل ؛ فمع أنهم كانوا يجدون المن والسلوى كل يوم ، ومع نهيهم عن الأخذ زيادة على ما يحتاجونه في يومهم، فإنهم كانوا يجمعون أكثر من حاجتهم ؛ مما يدل على ضعف إيمانهم وعدم ثقتهم بالله الذي يرزقهم • فصار ما يدخرونه يفسد وينتن ،

عن أبي هريرة ــ رضي الله عنه ــ قال : قال النبي ﷺ •
« لولا بنو اسرائيل لم يَخْنَزِ[2] اللحم[3] » •

أي لولا ادخار بني اسرائيل اللحم لم ينتن ولم يفسد • فهم الذين سنّوا ادخاره فأصبحوا سبباً في فساده •

فلما أكلوا قالوا : هذا الطعام فأين الشراب ؟ فأمر موسى فضرب بعصاه الحجر ، فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً ، ليشرب كل سبط من عين :

« وإذ استسقى موسى لقومه فقلنا اضرب بعصاك الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا قد علم كل أناس مشربهم كلوا واشربوا من رزق الله ولا تعثوا[4] في الأرض مفسدين » •
(سورة البقرة ٦٠)

---

(١) المراجع السابقة •
(٢) يخنز : ينتن •
(٣) البخاري : ٣٣٣٠ ــ ٣٣٩٩ •
(٤) العيث : أشد الفساد •

وقد اختلف في الحجر ، أهو حجر مخصوص معين أم لا ؟

١ ــ قال ابن عباس رضي الله عنهما : « وجُعل بين ظهرانيهم حجر مربع، وأمر موسى فضربه بعصاه ، فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً ، في كل ناحية منه ثلاث عيون . وأعلم كل سبط عينهم يشربون منها . لا يرتحلون منقلة إلا وجدوا ذلك معهم بالمكان الذي كان منهم بالمنزل الأول » .

٢ ــ وقال عطية العوفي : « جُعل لهم حجراً مثل رأس الثور ، يحمل على ثور . فإذا نزلوا منزلاً وضعوه فضربه موسى بعصاه فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً . فإذا ساروا حملوه على ثور فاستمسك الماء » .

٣ ــ وقال قتادة : « كان حجراً طورياً من الطور ، يحملونه معهم. حتى إذا نزلوا ضربه موسى بعصاه » .

٤ ــ وقال سعيد بن جبير : هو الحجر الذي وضع موسى عليه ثوبه ليغتسل ، ففر الحجر بثوبه[1] . فلما وقف الحجر أتاه جبريل فقال: ياموسى! إن الله يقول لك : ارفع هذا الحجر فلي فيه قدرة ، ولك فيه معجزة » .

٥ ــ وقال الحسن : « لم يأمره أن يضرب حجراً بعينه » .

٦ ــ وقال وهب : « كان موسى يقرع أقرب حجر فينفجر منه عيون ، ثم تسيل كل عين في جدول السبط الذي أمر بسقيهم[2] » .

وسواء كان الحجر مبهماً أم معيناً ، وكانوا ينقلونه أو يجدونه معهم ؛ فإن انبجاس الماء منه حين يضربه موسى ــ عليه السلام ــ معجزة ونعمة من الله يجب أن تقابل بالطاعة والشكر لا بالمعصية والفساد في الأرض .

---

(١) انظر قصة الحجر في الفصل التالي .

(٢) تفسير الطبري ج١ ص ٢٤٣ ، تاريخ الطبري ج١ ص ٤٣٠ ، الكشاف للزمخشري ج١ ص ٢٨٤ تفسير ابن كثير ج١ ص ١٠٠ .

وبعد أن طعموا وشربوا قالوا : هـذا الطعام والشراب فأين الظـل ؟ فظلل الله عليهم الغمام :

« وظللنا عليكم الغمام وأنزلنا عليكم المن والسلوى كلوا من طيبات ما رزقناكم وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » •
(سورة البقرة ٥٧)

والغمام سحاب أبيض ظللوا به في التيه ليقيهم حر الشمس • وقيل ليس بالسحاب المعروف ، بل هو أبرد منه وأحسن وأطيب •

وهكذا تحولت الصحراء المهلكة بشمسها المحرقة وجفافها الى روضة ، هواؤها عليل ، ونهارها ظليل ، وماؤها غزير ، وطعامها لذيذ كثير • وفي هذا المناخ تصح الأجسام وتنتعش القلوب ، وتصفو الأذهان ، وتتهيء للقيـام بالأعمال الضخمة والمهام الصعبة • قال تعالى :

« ومن قـوم موسى أُمَّـةٌ يهدون بالحـق وبـه يعدلون • وقَطَّعنَاهم[1] اثنتي عشرة أسباطاً[2] أُمما وأوحينا الى موسى إذ استسقاه قومـه أن اضرب بعصاك الحجـر فانبجست[3] منه اثنتا عشرة عينا قد علم كل أُناس مشربهم وظللنا عليهم الغمام وأنزلنا عليهم المن والسلوى كلوا من طيبات ما رزقناكم وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون[4] » •
(سورة الأعراف ١٥٩ ـ ١٦٠)

---

(١) صيرناهم قطعاً أي فرقاً •
(٢) الأسباط : أولاد الولد ، وكانوا اثنتي عشرة قبيلة من اثني عشر ولداً من ولد يعقوب عليه السلام •
(٣) فانفجرت •
(٤) أي : وما رجـع إلينـا ضرر ظلمهم بكفرانهم النعم ، ولكن كانوا يضرون أنفسهم ، ويرجع وبال ظلمهم إليهم •

غير أن معظمهم لم يكونوا من المهتدين الشاكرين ، بل كانوا من الجاحدين الظالمين ؛ إذ لم ترق لهم هذه الحياة التي تجري على وتيرة واحدة ؛ فبطروا النعمة ، وجاؤوا الى نبيهم ليخرج لهم ما ألفوا من الحبوب والبقول وغير ذلك :

« وإذ قلتم يا موسى لن نصبر على طعام واحد[1] فادع لنا ربك يُخْرِجْ لنا مما تنبت الأرض من بقلها[2] وقثائها وفومها[3] وعدسها وبصلها قال أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير اهبطوا مِصْراً فان لكم ما سألتم وضُربت عليهم الذّلة والمسكنة[4] وباؤ بغضب من الله[5] ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق ذلك بما عَصَوا وكانوا يعتدون » .

(سورة البقرة ٦١)

فلم يدعُ لهم نبيهم هذه المرة ؛ بل جابههم بما فيه تقريع لهم وتوبيخ على ما سألوا من الأطعمة الدنيئة مع ما هم فيه من العيش الرغيد والطعام الهنيء الطيب النافع . وأمر بدخول أي بلد حيث تتوفر فيه هذه المزروعات، أو الرجوع الى مصر التي كانوا يأكلون فيها الحبوب والخضار ، وكانوا أيضاً يسامون الذل والهوان .

---

(١) قالوا : على طعام واحد ، وهم ياكلون المن والسلوى ، لأنه لا يتبدل ولا يتغير.

(٢) البقل : ما انبتته الأرض من الخضر .

(٣) الفوم : الحنطة أو الثوم . وقال بعضهم : هو الحمص . وقال بعضهم : الحبوب التي تؤكل كلها فوم .

(٤) أي وضع عليهم الهوان والفقر .

(٥) استحقوا الغضب من الله .

إن نفوسهم الدنيئة لم ترتفع على حاجات الجسد الغليظة ، ولم تتطلع الى سوى المطعم والمشرب الذي اعتادوا عليه ، ولم يقدروا الحرية والنعمة التي أصبحوا فيها ، ولم يكونوا جديرين بالخلافة في الأرض • فانقرض ذلك الجيل المتقاعس الجبان ، ونشأ من بعدهم جيل لم يذق طعم الذل والظلم • بل ربي في الصحراء حيث الهدوء والصفاء في ظل العدل والحرية والهداية ؛ فقاموا بالمهمة التي نكل عنها آباؤهم •

وبذلك ندرك أن الظلم والاستبداد يفسد النفوس ويحطم القلوب بحيث تستعصي على العلاج ، ولو أشرف عليه أفضل المربين ، وأن اعداد الأمة واصلاح المجتمع يحتاج الى جهود مضنية ووقت طويل وخطة حكيمة وقد ينقضي جيل ولا يظهر فيه أثر الاصلاح • ولكن هذه الجهود لا تضيع ، فإذا لم تؤتِ ثمارها في الجيل الأول ، فإنها ستؤتيها في ذريته من بعده •

٢٦ ـ وفاة موسى وهارون

لقد مات كل من نكل عن القتال ممن جاوز العشرين في التيه ، كما مات موسى وهارون عليهما السلام ، وكانت وفاة هارون حين خرج مع أخيه الى بعض الكهوف فمات ، فدفنه موسى وانصرف الى بني اسرائيل ، فقالوا : ما فعل هارون ؟ قال : مات . قالوا : كذبت ، ولكنك قتلته لحبنا إياه . وكان محبباً في بني اسرائيل .

فتضرع موسى الى ربه وشكا ما لقي من بني اسرائيل ؛ فأوحى الله إليه أن انطلق بهم الى موضع قبر هارون ، فإني باعثه حتى يخبرهم أنه مات موتاً ولم تقتله . فانطلق بهم الى قبره ، فنادى : يا هارون ! فخرج من قبره ينفض رأسه . فقال : أنا قتلتك ؟ قال : لا والله ، ولكني مت . قال : فعد الى مضجعك . وانصرفوا[١] .

وهذه الحادثة تدل على أن بني اسرائيل بقي في نفوسهم الغدر والخبث وسوء الطوية حتى أساؤوا الظن بنبيهم ومنقذهم ، واتهموه بالكذب والقتل . ولم تكن هذه أول مرة يؤذونه فيها ، فقد قذفوه بالزنى ، وأغروا بغياً على أن تبهت موسى بحضرة الملأ من بني اسرائيل ، وهو قائم فيهم يتلو عليهم كتاب الله تعالى . فتقول : يا موسى ! إنك فعلت بي كذا وكذا . ولكنها حين ناشدها بالله وغلظ عليها الأيمان اعترفت بأنهم دفعوها[٢] لتقول ذلك ، واستغفرت وتابت ، مما جعله يستغرب ايذاءهم :

---

(١) تاريخ الطبري ج١ ص ٤٣٤ ـ ٤٣٥ ، الكامل لابن الأثير ج١ ص١٩٩ـ٢٠٠ ، قصص الأنبياء للثعلبي ص ٢١٤ ـ ٢١٦ ، فتح الباري ج٦ ص ٤٣٨ ـ ٤٤٠ ـ ٤٤٢ .

(٢) يقال : إن قارون هو الذي دفعها الى ذلك ليشوه سمعته ويقيم عليه الحد فيقضي عليه . (تفسير ابن كثير ج٣ ص ٤٠١)

«وإذ قال موسى لقومه يا قوم لِمَ تؤذونني وقد تعلمون أني رسول الله إليكم فلما زاغوا(١) أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين» .

(سورة الصف ٥)

كما قالوا حين رأوه ستيراً لا يتعرى أمامهم ، ولا يُرى من جلده شيء استحياء منه فقالوا : ما يستتر هذا التستر إلا من عيب بجلده : إما برص وإما أُدْرة(٢) وإما آفة .

عن أبي هريرة ــ رضي الله عنه ــ عن النبي ﷺ قال : « كانت بنو اسرائيل يغتسلون عراة ، ينظر بعضهم الى بعض . وكان موسى يغتسل وحده . فقالوا : والله ما يمنع موسى أن يغتسل معنا إلا أنه آدر .

فذهب مرة يغتسل ، فوضع ثوبه على حجر ، ففر الحجر بثوبه ، فخرج موسى في إثره يقول : ثوبي يا حجر ، حتى نظرت بنو اسرائيل الى موسى فقالوا : والله ما بموسى من بأس(٣) . وأخذ ثوبه فطفق بالحجر ضرباً(٤) » .

ولهذا نهي المؤمنون أن يكونوا كالذين آذوا موسى :

« يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيهاً(٥) » .

(سورة الأحزاب ٦٩)

---

(١) مالوا عن الحق .

(٢) الأُدرة : نفخة في الخصية .

(٣) وفي رواية روح بن عبادة : « فرأوه كأحسن الرجال خلقاً » .

(٤) رواه البخاري : ٢٧٨ ومسلم : ١٥٥ ــ (٣٣٩) .

(٥) أي كان ذا جاه ومنزلة عند ربه عز وجل .

وكان الرسول ﷺ يتأسى به في الصبر على الأذى .

عن عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال : « لما قسم النبي ﷺ قسمة حنين قال رجل من الأنصار : ما أراد بها وجه الله . فأتيت النبي ﷺ فأخبرته ، فتغير وجهه ثم قال : رحمة الله على موسى ، لقد أوذي بأكثر من هذا فصبر[1] » .

وبعد وفاة هارون بست أو ثلاث سنوات توفي موسى عليه السلام .

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال : « أرسل ملك الموت الى موسى عليهما السلام ، فلما جاءه صكه[2] . فرجع الى ربه فقال : أرسلتني الى عبد لا يريد الموت[3] .

قال : ارجع إليه فقل له : يَضَعْ يده على متن ثور[4] فله بما غطى يده بكل شعرة سنة . قال : أي رب ! ثم ماذا ؟ قال : ثم الموت . قال : فالآن[5].

قال : فسأل الله أن يدنيه من الأرض المقدسة رمية بحجر .

---

(١) رواه البخاري : ٤٣٣٥ ومسلم : ١٤١ ـ (١٠٦٢) والترمذي .

(٢) في رواية همام عن أبي هريرة عند مسلم : ١٥٨ ـ (٢٣٧٢) وأحمد : « جاء ملك الموت الى موسى عليه السلام فقال له : أجب ربك . فلطم موسى عين ملك الموت ففقأها » .
وفي رواية عمار عن أبي هريرة عند أحمد والطبري : « كان ملك الموت يأتي الناس عياناً . فأتى موسى فلطمه ففقأ عينه » .

(٣) زاد همام عن أبي هريرة عن النبي ﷺ : « وقد فقأ عيني . فرد الله إليه عينه » . وفي رواية عمار عن أبي هريرة : « فقال : يا رب ! عبدك موسى فقأ عيني . ولولا كرامته عليك لشققت عليه » .

(٤) ظهره . وفي رواية عمار : « على جلد ثور » .

(٥) زاد عمار في روايته : « فشمه شمة فقبض روحه . وكان يأتي الناس خفية » . يعني بعد ذلك . ويقال إنه أتاه بتفاحة من الجنة فشمها فمات .

قال أبو هريرة : فقال رسول الله ﷺ : لو كنت ثَمَّ أريتكم قبره الى جانب الطريق تحت الكثيب[1] الأحمر[2] .

وقال ابن خزيمة : « أنكر بعض المبتدعة هذا الحديث وقالوا : إن كان موسى عرفه فقد استخف به . وإن لم يعرفه فكيف لم يقتص له من فقء عينه؟

والجواب : أن الله لم يبعث ملك الموت لموسى وهو يريد قبض روحه حينئذ ، وإنما بعثه إليه اختباراً . وإنما لطم موسى ملك الموت لأنه رأى آدمياً دخل داره بغير اذنه ، ولم يعلم أنه ملك الموت ، وقد أباح الشارع فقء عين الناظر في دار المسلم بغير إذن » .

وقال ابن قتيبة :« إنما فقأ موسى العين التي هي تخييل وتمثيل، وليست عيناً حقيقية ، ومعنى رد الله عينه : أي أعاده الى خلقته الحقيقية » .

وقيل : على ظاهره . ورد الله الى ملك الموت عينه البشرية ليرجع الى موسى على كمال الصورة ، فيكون ذلك أقوى في اعتباره .

وعاش موسى مائة وعشرين سنة[3] .

---

(١) الكثيب : الرمل المجتمع . وقد اشتهر عن قبر باريحاء عند كثيب احمر انه قبر موسى .

(٢) رواه البخاري : ٣٤٠٧ ومسلم : ٢٣٧٢ والنسائي .

(٣) انظر المراجع ص ٢٩٢ حاشية (١) .

٢٧ ـ صفات موسى ومنزلته

كان موسى ـ عليه السلام ـ طويل القامة، نحيف الجسم، أسمر اللون، رَجَل[١] الشعر بين المرسل والجعد، أقنى[٢] الأنف[٣].

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ:

« ليلة أسري بي رأيت موسى. وإذا هو رَجُل "ضَرْب"[٤] رَجِل كأنه من رجال شنوءة[٥] ». (البخاري: ٣٣٩٤)

وفي رواية أخرى: « وذكر النبي ﷺ ليلة أسري به فقال:

موسى آدم[٦] طوال كأنه من رجال شنوءة » (البخاري: ٣٣٩٦)

أما طباعه فكان فيها شيء من الحدة وسرعة الانفعال، بدليل موقفه حين « استغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه فوكزه موسى فقضى عليه ». ثم سرعان ما استغفر وتاب. وفي اليوم الثاني «أصبح في المدينة خائفاً يترقب». فلا يخاف في المدينة التي يتوفر فيها الأنس والأمن إلا من كان بهذا الطبع. وحين رأى « الذي استنصره بالأمس يستصرخه قال له موسى: إنك لغوي

---

(١) شعر رجل: بفتح الراء وسكون الجيم أو فتحها أو كسرها: بين السبوطة والجعودة.

(٢) قنا الأنف: ارتفاع أعلاه واحديداب وسطه، وسبوغ طرفه. أو نتوء وسط القصبة وضيق المنخرين.

(٣) تاريخ الطبري ج١ ص ٤٠٣.

(٤) ضرب: أي نحيف.

(٥) حي من اليمن. وفي حديث ابن عمر عند البخاري: « كأنه من رجال الزط » وهم معروفون بالطول والأدمة.

(٦) آدم: أي أسمر.

مبين » • ومع ذلك « أراد أن يبطش بالذي هو عدو لهما » • وحين نصحه الرجل بالخروج « خرج منها خائفاً يترقب »[1] دون أن يتحرى عن صدقه : أو يفكر في ملجأ أو وسيلة أخرى لنجاته •

وهذا الطبع بقي في موسى في كهولته كما كان في شبابه ، فما إن رأى عصاه تهتز كأنها جان حتى ولّى مدبراً ولم يعقب ، ولم يمنعه من ذلك أنه في رحاب المولى سبحانه وتعالى •

ولم تخف حدته في شيخوخته ، فحين رجع من ميقات ربه ، ورأى قومه يعبدون العجل « ألقى الألواح وأخذ برأس أخيه يجره إليه »[2] ألقاها وفيها كلام رب العزة • وعنف أخاه وهو شيخ وقور قد جاوز الثمانين من عمره • لكنه حين علم بعذره عفا عنه واستغفر له •

وكان قوي الجسم ، يقتل عدوه بوكزة واحدة ، أميناً عفيفاً يتصف بالمروءة والشهامة،سقى للمرأتين وهو غريب طريد طاوي البطن منهك القوى• فلم تخف صفاته هذه عليهما فقالت احداهما : « يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوي الأمين »[3] •

وكان كريم الأصل طيب الخصال جامعاً للأخلاق الحميدة • قال تعالى :

« ولقد فتناقبلهم قوم فرعون وجاءهم رسول كريم ، أن أدوا إليّ عباد الله إني لكم رسول أمين » •

(سورة الدخان ١٧ ــ ١٨)

وكان شديد الذكاء حاضر البديهة ، لم ينس أن يحتاط للدعوة ولنفسه وهو يتلقى الرسالة من ربه :

---

(١) سورة القصص : ١٥ ــ ٢١ •
(٢) سورة الأعراف : ١٥٠ •
(٣) سورة القصص : ٢٣ ــ ٢٦ •

« رب إني قتلت منهم نفساً فأخاف أن يقتلون وأخي هارون هو أفصح مني لساناً فأرسله معي ردءاً يصدقني إني أخاف أن يكذبون » .

(سورة القصص ٣٣ ـ ٣٤)

ولم تفته حجة يدعو بها فرعون الى تصديقه . ولم يدع السحرة بدون أن يحذرهم من افتراء الكذب وتضليل الناس :

« ويلكم لا تفتروا على الله كذباً فيسحتكم بعذاب وقد خاب من افترى » .

(سورة طه ٦١)

مما جعلهم يترددون في موقفهم :

« فتنازعوا أمرهم بينهم وأسروا النجوى » .

(سورة طه ٦٢)

وكان قوي الارادة ماضي العزيمة ، يتوكل على ربه ، ويثق بنصرته ؛ لم يشعر بالخوف حين رأى جنود فرعون تلاحقهم ، وقد اعترض البحر طريقهم:

« فلما تراءى الجمعان قال أصحاب موسى إنا لمدركون . قال كلا إنّ معي ربي سيهدين » .

(سورة الشعراء ٦١ ـ ٦٢)

وكان جريئاً صريحاً؟قبل عرض شيخ مدين عليه،وأعلن موافقته بوضوح:

« قال ذلك بيني وبينك أيّما الأجلين قضيت فلا عدوان علي والله على ما نقول وكيل » .

(سورة القصص ٢٨)

واعترف أمام فرعون بفعلته ، ولم يمنعه ذلك من تبليغ رسالته :

« قال فعلتها إذاً وأنا من الضالين • ففررت منكم لمّا خفتكم فوهب لي ربي حكماً وجعلني من المرسلين » •

(سورة الشعراء : ٢٠ ـ ٢١)

وكان مع حكمته وقوته شديد الحياء ، يبالغ في الستر ، يغتسل وحده ، ولا يتعرى أمام قومه ، وكان صبوراً يتحمل الأذى ويتغلب على المصاعب •

وكان مخلصاً ، أخلص لربه العبادة ، وأخلصه الله له ومحضه لدعوته ، ورفع منزلته ، وأسبغ عليه من رحمته :

« واذكر في الكتاب(١) موسى إنه كان مخلَصاً(٢) وكان رسولا نبيـاً(٣) • وناديناه من جانب الطور الأيمنِ وقربناه(٤) نجيـا • ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبياً » •

(سورة مريم ٥١ ـ ٥٣)

وكان محسناً هادياً مهدياً :

« ولقد مننا(٥) على موسى وهارون • ونجيناهما وقومهما من الكرب(٦) العظيم • ونصرناهم فكانوا هـم الغالبين • وآتيناهمـا الكتاب المستبين(٧) • وهديناهما الصراط المستقيم • وتركنا عليهما

---

(١) يقول الله تعالى لنبيه محمد ﷺ : واتلُ على قومك ما كان من خبر موسى •

(٢) قرأ بعضهم بكسر اللام من الاخلاص في العبادة • والمخلِص لله : الذي يعمل لله لا يحب ان يحمده الناس • وقرأ آخرون بفتح اللام، بمعنى أنه كان مصطفى•

(٣) الرسول : هو صاحب الدعوة من الأنبياء المأمور بابلاغها للناس • والنبي لا يكلف ابلاغ الناس دعوة ، إنما هو في ذاته صاحب عقيدة يتلقاها من الله •

(٤) تقريب منزلة ومكانة لا منزل ومكان •

(٥) أنعمنـا •

(٦) من الغرق ، أو من سلطان فرعون وقومه •

(٧) البليغ في بيانه ، الواضح الجلي •

في الآخرين • سلام على موسى وهارون • إنا كذلك نجزي المحسنين • إنهما من عبادنا المؤمنين » •

(سورة الصافات ١١٤ ـ ١٢٢)

وكفى به شرفاً أن الله تعالى اصطفاه لرسالته :

« قال يا موسى إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين » •

(سورة الأعراف ١٤٤)

وكلمه بدون واسطة :

« وكلم اللهُ موسى تكليماً » •

(سورة النساء ١٦٤)

ولذلك أبقى الله له ذكراً جميلاً وثناء حسناً ، وجعل منزلته عالية :

عن مالك بن صعصعة ـ رضي الله عنه ـ أن النبي ﷺ حدثه عن ليلة أسري به قال : « ثم صَعِدَ بي حتى أتى السماء الخامسة فاستفتح • قيل : من هذا ؟ قال : جبريل • قيل : ومن معك ؟ قال : محمد ﷺ • قيل : وقد أرسل إليه ؟ قال : نعم • قيل : مرحباً به فنعم المجيء جاء • فلما خلصت فإذا هارون[1] • قال : هذا هارون فسلم عليه • فسلمت عليه • فرد ثم قال : مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح •

ثم صعد بي حتى أتى السماء السادسة ، فاستفتح • قيل : من هذا ؟ قال:

---

(١) استشكل رؤية الأنبياء في السماوات مع أن أجسادهم مستقرة في قبورهم بالأرض • وأجيب بأن أرواحهم تشكلت بصور أجسادهم ، أو احضرت أجسادهم لملاقاة النبي ﷺ تلك الليلة تشريفاً له وتكريماً •

(فتح الباري ج٧ ص ٢١٠ ـ ٢١٢)

جبريل • قيل : من معك ؟ قال : محمد • قيل : وقد أرسل إليه ؟ قال : نعم • قيل : مرحباً به فنعم المجيء جاء • فلما خلصت فإذا موسى • قال : هذا موسى فسلم عليه • فسلمت عليه • فرد ثم قال : مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح •

فلما تجاوزت بكى • قيل له : ما يبكيك ؟ قال أبكي لأن غلاماً بعث بعدي ، يدخل الجنة من أمته أكثر مما يدخلها من أمتي(١) •

ثم فرضت علي الصلاة خمسين صلاة كل يوم • فرجعت فمررت على موسى • فقال : بما أُمرت ؟ قال : أمرت بخمسين صلاة كل يوم • قال : إن أمتك لا تستطيع خمسين صلاة كل يوم • وإني والله قد جربت الناس قبلك،

---

(١) في رواية شريك عن أنس : « لم اظن أحداً يرفع علي » •
وفي حديث أبي سعيد : « قال موسى : يزعم بنو اسرائيل أني أكرم على الله • وهذا أكرم على الله مني » •
زاد الأموي في روايته : « ولو كان هذا وحده هان علي ، ولكن معه أمته ، وهم أفضل الأمم عند الله » •
وفي رواية عن عبد الله بن مسعود أنه « مر بموسى — عليه السلام — وهو يرفع صوته فيقول : أكرمته وفضلته • فقال جبريل : هذا موسى • قلت • ومن يعاتب ؟ قال : يعاتب ربه فيك ! قلت : ويرفع صوته على ربه ؟ قال : ان الله قد عرف له حدته » •

قال العلماء : لم يكن بكاء موسى حسداً ، معاذ الله ؛ فإن الحسد في ذلك العالم منزوع عن آحاد المؤمنين ، فكيف بمن اصطفاه الله تعالى • بل كان أسفاً على ما فاته من الأجر الذي يترتب عليه رفع الدرجة بسبب ما وقع من أمته من كثرة المخالفة المقتضية لتنقيص أجورهم المستلزم لتنقيص أجره ؛ لأن لكل نبي مثل أجر كل من اتبعه • ولهذا كان من اتبعه في العدد دون من اتبع نبينا ﷺ مع طول مدتهم •

وأما قوله : « غلام » فليس على سبيل النقص ، بل على سبيل التنويه بقدرة الله وعظيم كرمه ، اذ أعطى لمن في ذلك السن مالم يعطه أحداً قبله ممن هو أسن منه • (فتح الباري ج٧ ص ٢١١)

وعالجت بني اسرائيل أشد المعالجة ، فارجع الى ربك فأسأله التخفيف لأمتك . فرجعت . فوضع عني عشراً . فرجعت الى موسى . فقال مثله . فرجعت فوضع عني عشراً . فرجعت الى موسى فقال مثله . فرجعت فوضع عني عشراً . فرجعت الى موسى فقال مثله . فرجعت فأمرت بعشر صلوات كل يوم . فرجعت فقال مثله . فرجعت فأمرت بخمس صلوات كل يوم . فرجعت الى موسى فقال : بم أمرت ؟ قلت : أمرت بخمس صلوات كل يوم . قال : إن أمتك لا تستطيع خمس صلوات كل يوم ، وإني قد جربت الناس قبلك ، وعالجت بني اسرائيل أشد المعالجة . فارجع الى ربك فاسأله التخفيف لأمتك . قال : سألت ربي حتى استحييت ، ولكني أرضى وأسلم . فلما جاوزت نادى منادٍ : أمضيت فريضتي وخففت عن عبادي[1] » .

وقد وقع من موسى من العناية بهذه الأمة من أمر الصلاة ما لم يقع لغيره . ووقعت الاشارة لذلك في حديث أبي هريرة عند الطبري والبزار قال عليه الصلاة والسلام : « كان موسى أشدهم علي حين مررت به ، وخيرهم لي حين رجعت إليه » .

وفي حديث أبي سعيد : « فأقبلت راجعاً فمررت بموسى ، ونعم الصاحب كان لكم ، فسألني : كم فرض عليك ربك ؟..[2] » .

ولهذا نهى النبي ﷺ أن يفضل على موسى :

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال : « استب رجل من المسلمين ورجل من اليهود . فقال المسلم : والذي اصطفى محمداً ﷺ على العالمين في قسَم يقسم به . فقال اليهودي : والذي اصطفى موسى على العالمين .

(١) رواه البخاري : ٣٨٨٧ .
(٢) فتح الباري لابن حجر ج٧ ص ٢١١ ـ ٢١٢ .

فرفع المسلم عند ذاك يده فلطم اليهودي . فذهب اليهودي الى النبي ﷺ فأخبره الذي كان من أمره وأمر المسلم . فقال : لا تخيروني على موسى ؛ فإن الناس يصعقون ، فأكون أول من يفيق ، فإذا موسى باطش بجانب العرش[1]، فلا أدري أكان فيمن صعق فأفاق قبلي ، أو كان ممن استثنى الله[2] » .

وفي رواية أخرى عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال :

« بينما يهودي يعرض سلعته أعطي بها شيئاً كرهه ، فقال : لا والذي اصطفى موسى على البشر . فسمعه رجل من الأنصار ، فقام فلطم وجهه وقال : تقول والذي اصطفى موسى على البشر والنبي ﷺ بين أظهرنا ؟

فذهب اليهودي إليه فقال : يا أبا القاسم ! إن لي ذمة وعهداً ، فما بال فلان لطم وجهي ؟ فقال : لم لطمت وجهه ؟ فذكره . فغضب النبي ﷺ حتى رؤي في وجهه ثم قال : لا تفضلوا بين أنبياء الله ؛ فإنه ينفخ في الصور فيصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله ، ثم ينفخ فيه أخرى فأكون أول من بعث ، فإذا موسى آخذ بالعرش ، فلا أدري أحوسب بصعقة يوم الطور ، أم بعث قبلي[3] » .

---

(١) البطش : الأخذ بقوة . وفي حديث أبي سعيد : « آخذ بقائمة من قوائم العرش » . (البخاري : ٣٣٩٨)

(٢) البخاري : ٣٤٠٨ ومسلم : ١٦٠ ـ (٢٣٧٣) .

(٣) البخاري : ٣٤١٤ ومسلم : ٢٣٧٣ .

الجزء الرابع

المسيح عليه السلام

عيسى بن مريم

كلمة الله وآخر أنبياء بني إسرائيل

تمهيد

تتضمن قصة عيسى ــ عليه السلام ــ في القرآن الكريم ولادته ورسالته ووفاته ، كما تتضمن ولادة أمه ونشأتها • وتنتهي قصته بمشهد من مشاهد يوم القيامة يبين دعوته وطبيعته •

وقد ذكر اسم « عيسى » وحده في القرآن الكريم تسع مرات •

واقترن اسمه باسم أمه : « عيسى ابن مريم » ثلاث عشرة مرة •

وذكر لقبه ونسبته : « المسيح ابن مريم » خمس مرات •

وذكر اسمه بكامله : « المسيح عيسى ابن مريم » ثلاث مرات •

وذكر بلقب « المسيح » ثلاث مرات أيضاً •

وذكرت نسبته « ابن مريم » مرتين •

فجموع الحالات التي ورد فيها اسمه خمس وثلاثون في ثلاث وثلاثين آية من ثلاث عشرة سورة •

أما أمه فقد ذكر اسمها تسع مرات •

وإليك هذا الجدول الذي بينا فيه أماكن ورود هذه الأسماء :

اسم السورة	رقم السورة	رقم الآية	حالات ذكر				اسم السورة	رقم السورة	رقم الآية	حالات ذكر			
			المسيح	عيسى	ابن مريم	مريم				المسيح	عيسى	ابن مريم	مريم
البقرة	٢	٨٧		/	/		المائدة	٥	٧٨		/	/	
		١٣٦		/					١١٠		/	/	
		٢٥٣		/	/				١١٢		/	/	
آل عمران	٣	٣٦				/			١١٤		/	/	
		٤٢				/			١١٦		/		
		٤٣				/	الأنعام	٦	٨٥		/		
		٤٤				/	التوبة	٩	٣٠	/			
		٤٥	/	/	/	/			٣١	/		/	
		٥٢		/			مريم	١٩	١٦				/
		٥٥		/					٢٧				/
		٥٩		/					٣٤		/	/	
		٨٤		/			المؤمنون	٢٣	٥٠			/	
النساء	٤	١٥٦				/	الأحزاب	٣٣	٧		/	/	
		١٥٧	/	/	/		الشورى	٤٢	١٣		/		
		١٦٣		/			الزخرف	٤٣	٥٧			/	
		١٧١	/	/	/				٦٣		/		
		١٧٢	/				الحديد	٥٧	٢٧		/	/	
المائدة	٥	١٧	//		//		الصف	٦١	٦		/	/	
		٤٦		/	/				١٤		/	/	
		٧٢	//		/		التحريم	٦٦	١٢				/
		٧٥	/		/		المجموع	١٤	٤١	١١	٢٥	٢٣	٩

١ ـ مولد مريم

كانت حنة بنت فاقوذ امرأة عمران بن ماثان عقيماً لا تلد ، فرأت يوماً طائراً يطعم فرخه ، فاشتهت الولد وتمنته ، فدعت الله أن يهبها ولداً ، فاستجاب دعاءها . فلما تحققت الحمل نذرت أن تجعله خالصاً مفرغاً للعبادة وخدمة بيت المقدس . ثم مات زوجها وهي حامل . فلما وضعت ، وتبين أنها أنثى ، حارت كيف تفي بنذرها ، لأنه لم يكن من المعهود أن تقوم النساء بخدمة بيت المقدس . وسمتها مريم(١) وعوذتها وذريتها من شر الشيطان(٢) .

وإليك الآيات التي تدل على فضل آل عمران وشرف الأسرة التي ينتمي إليها عيسى ــ عليه السلام ــ وتروي قصة مولد مريم ونذر أمها :

« إنَّ الله اصطفى(٣) آدم ونوحاً وآل ابراهيم وآل عمران على العالمين . ذرية بعضُها من بعض والله سميع عليم . إذ قالت امرَأتُ عمران(٤) ربِّ إني نذرت لك ما في بطني محرَّراً(٥) فتقبل مني إنك أنت السميع العليم . فلما وضعتها قالت ربِّ إني وضعتها أنثى

---

(١) معنى مريم بلغتهم : العابدة والخادمة .

(٢) الكشاف للزمخشري ج١ ص ٤٢٤ ـ ٤٢٦ ، تفسير ابن كثير ج١ ص ٣٥٨ ـ ٣٥٩ ، قصص الأنبياء للثعلبي ص ٣٢٣ ـ ٣٢٤ .

(٣) اختار .

(٤) ليس هو عمران والد موسى عليه السلام ، وانما هو والد مريم البتول . وبين العمرانين أكثر من ألف سنة ، وألف وثمانمائة سنة على ما يقول الثعلبي والزمخشري .

(٥) خالصاً ، مفرغاً للعبادة ، معتقاً لخدمة بيت المقدس .

والله أعلم بما وضعتْ وليس الذكر كالأنثى[1] وإني سميتها مريم وإني أعيذها[2] بك وذريَّتَها[3] من الشيطان الرجيم[4] » ·

(سورة آل عمران ٣٣ ـ ٣٦)

فتقبل الله نذرها وحفظ مريم وابنها من غواية الشيطان ·

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن النبي ﷺ قال :

« ما من مولود يولد إلا والشيطان يمسه حين يولد ، فيستهل صارخاً من مس الشيطان إياه إلا مريم وابنها »[5] ·

وظاهر الخبر أن ابليس ممكن من مس كل مولود عند ولادته ، لكن من كان من عباد الله المخلصين لم يضره ذلك المس أصلا ، واستثنى من المخلصين مريم وابنها ، فإنه ذهب يمس على عادته ، فحيل بينه وبين ذلك[6] ·

ومعناه على ما قال الزمخشري :

« ان كل مولود يطمع الشيطان في اغوائه إلا مريم وابنها فإنهما كانا معصومين ، وكذلك كل من كان في صفتهما كقوله تعالى :

« لأغوينهم أجمعين · إلا عبادك منهم المخلصين » ·

(سورة الحجر ٣٩ ـ ٤٠)

واستهلاله صارخاً من مسه تخييل وتصوير لطمعه فيها ، كأنه يمسه ويضرب بيده عليه ويقول : هذا من أغويه »[7] ·

(١) أي في القوة والجلد في العبادة وخدمة المسجد ·
(٢) أجيرها · (٣) أولادها · (٤) الملعون ·
(٥) البخاري : ٤٥٤٨ ، ٣٤٣١ ومسلم : ٢٣٦٦ ·
(٦) فتح الباري ج٨ ص ٢١٢ ·
(٧) الكشاف ج١ ص ٤٢٦ ·

٢ ـ طهارة مريم وعبادتها

روي أن مريم لفَّتها أمها في خرقة بعد ولادتها ، وحملتها الى المسجد ، وقالت للأحبار الذين يلون بيت المقدس : دونكم هذه النذيرة ، فإني حررتها وهي انثى ، ولا يدخل الكنيسة حائض ، وأنا لا أردها الى بيتي[١] •

لكني أميل الى أن تقديمها الى الأحبار قدكانحينأصبحت مميزة قادرة على القيام ببعض الخدمة فيه ، لا قبل ذلك حين كانت محتاجة الى أمها لترضعها وتطعمها وتعتني بها • قال الامام ابن كثير :

« والظاهر إنما سلمتها إليهم بعد رضاعها وكفالة مثلها في صغرها »[٢]•

وقد تنافس فيها الأحبار لأنها كانت بنت إمامهم وصاحب قربانهم • فقال لهم زكريا عليه السلام : ادفعوها إليّ ، فأنا أحق بها ، وعندي خالتها[٣] •

فردوا عليه بقولهم : لو تركت لأحق الناس لتركت لأمها • ولكنا نقترع عليها• ثم انطلقوا الى نهر فألقوا سهامهم أو أقلامهم التي يكتبون بها في الماء • فارتفع قلم زكريا وثبت فوق الماء ، ورسبت أقلامهم أو جرت مع الماء ؛ وأصبح كافلا لها وضامناً لمصالحها[١] • قال الله تعالى :

« ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك[٤] وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيُّهم يكفُل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون[٥] » •

(سورة آل عمران ٤٤)

---

(١) تفسير النسفي ج١ ص ١٥١ ـ ١٥٤ ، تفسير ابن كثير ج١ ص ٣٦٣ ، قصص الأنبياء للثعلبي ص٣٢٥ •

(٢) البداية والنهاية لابن كثير ج٢ ص ٥٨ •

(٣) يعني زوجته أم يحي عليه السلام •

(٤) الخطاب لمحمد ﷺ ، يعني ان علمه بهذه الأخبار الدقيقة التي وقعت قبله بكثير دليل على أنه رسول يوحى إليه •

(٥) أي يتنافسون في التكفل بمريم •

ونشأت مريم في بيت الله نشأة مباركة حسنة في رعاية النبي الصالح وزوج خالتها زكريا عليه السلام ، الذي وضعها في أشرف موضع • وكان كلما دخل عليها غرفتها وجد عندها فاكهة وطعاماً ، فسألها من أين حصلت عليه ؟ فقالت هو من عند الله • فعلم منزلتها عند ربها وفضلها :

« فتقبلها ربُّها[1] بقبُول حسن وأنبتها نباتاً حسنا[2] وكفَّلها زكريا كلما دخل عليها زكريا المحراب[3] وجد عندها رزقاً[4] قال يا مريم أنَّى لك هذا قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب » •

(سورة آل عمران ٣٧)

وقد أمرتها الملائكة بكثرة العبادة والطاعة ، واعلمتها بأن الله اختارها واختصها بالكرامة السَّنية ، وفضلها على غيرها من النساء :

« وإذ قالت الملائكة[5] يا مريم إن الله اصطفاك وطهَّرَكِ

---

(١) رضي بها في النذر •

(٢) مجاز عن التربية الحسنة •

(٣) قيل : بنى لها زكريا محراباً في المسجد ، أي غرفة تصعد إليها بسلم • وقيل : المحراب أشرف المجالس ، كأنها وضعت في أشرف موضع من بيت المقدس • وقيل : كانت مساجدهم تسمى المحاريب •

(٤) قيل : فاكهة الشتاء في الصيف وفاكهة الصيف في الشتاء • ولا حاجة لهذا التكلف ؛ فالفاكهة في حينها تكون أشهى وألذ منها في موسم آخر • والمهم انه كان يجد عندها قوتها وما يدل على كرامتها عند الله ، لأنه لم يكن يدخل عليها غيره • (تفسير ابن كثير ج١ ص ٣٦٠ ، تفسير النسفي جـ١ ص ١٥٢) •

(٥) المراد بالملائكة هنا جبريل وحده كقوله تعالى : « ينزل الملائكة بالروح من أمره » (النحل ٢) يعني جبريل • (تفسير الرازي ج٢ ص ٦٦٩)

واصطفاك على نساء العالمين . يا مريم اقنتي[1] لربك واسجدي واركعي مع الراكعين » .

(سورة آل عمران ٤٢ ـ ٤٣)

وبين الرسول ﷺ منزلة مريم بقوله :

« خير نسائها[2] مريم ابنة عمران ، وخير نسائها[3] خديجة » .

(الشيخان عن علي ، خ : ٣٤٣٢)

---

(١) أديمي الطاعة والخشوع .

(٢) أي نساء أهل الدنيا في زمانها ، أو نساء تلك الأمة .

(٣) أي نساء هذه الأمة .

٣ ـ البشارة بالمسيح

عرفنا ان مريم نشأت في كفالة زكريا نبي بني اسرائيل وعظيمهم نشأة مباركة ، فكانت قديسة مشهورة بالعبادة والتبتل والعفة والتقوى • فلما أراد الله تعالى أن يوجد منها عبده ورسوله عيسى عليه السلام اعتزلت أهلها ، وذهبت نحو الشرق(١) • وبينما هي تخلو الى نفسها لشأن من شؤونها التي تقتضي التواري من أهلها والاحتجاب عن أنظارهم ، إذ بها تفاجأ مفاجأة عنيفة ، تعبر عنها الآيات التالية :

« واذكر في الكتاب(٢) مريم إذ انتبذت(٣) من أهلها مكاناً شرقياً(٤) • فاتخذت من دونهم حجابا فأرسلنا إليها روحنا(٥) فتمثل لها بشراً سَويا(٦) • قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا • قال إنما أنا رسول ربك أهب لك غلاما زكياً(٧) » •

(سورة مريم ١٦ ــ ١٩)

فما إن رأت الرجل يَفْجَؤُها في خلوتها حتى انتفضت مذعورة ولجأت الى الله تستعيذ به ، وتستثير مشاعر التقوى في نفس الرجل الذي تمثل أمامها ، ليقول لها : « إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكياً » •

---

(١) ذكر أنها كانت حينئذ في الثالثة عشرة من عمرها (تاريخ الطبري ج١ ص٥٨٥)
(٢) الخطاب لمحمد ﷺ ليقرأ هذه القصة في القرآن الكريم •
(٣) اعتزلت وتنحت •
(٤) قال السدي : أصابها الحيض ، فخرجت من المسجد فاقامت شرقي المحراب • وقال ابو عبيدة : مما يلي الشرق •
(٥) هو جبريل عليه السلام •
(٦) أي على صورة إنسان تام كامل •
(٧) طاهراً من الذنوب أو نامياً على الخير •

وفي موضع آخر من القرآن الكريم دلالة على أن الملك ذكر لها اسم الغلام ونسبه وصفته :

« إذ قالت الملائكة[1] يا مريم إنَّ الله يُبَشِّرُكِ بكلمة[2] منه اسمه المسيح[3] عيسى[4] ابن مريم وجيهاً[5] في الدنيا والآخرة ومن المقربين • ويكلم الناس في المهد وكهلا ومن الصالحين » •

(سورة آل عمران ٤٥ ـ ٤٦)

وبعد أن سمعت هذا الكلام وهي تشعر بالفزع والخجل ، تجلدت وسألت في صراحة : كيف ذلك ؟

« قالت ربِّ أنَّى يكون لي ولد ولم يمسسني بشر » •

(سورة آل عمران ٤٧)

«قالت أنَّى يكون لي غلام ولم يمسسني بشر ولم أكُ بَغيًّا[6]» •

(سورة مريم ٢٠)

فهي عذراء لم يمسسها بشر ، ولم تتزوج • وليست بغياً حاش لله • ولم تكن تتصور وسيلة للحمل غير الوسيلة المعهودة بين الذكر والأنثى :

---

(١) المراد بالملائكة هاهنا جبريل وحده •

(٢) أي بقول الله : « كن » أو بعيسى •

(٣) لقب من الألقاب المشرفة معناه المبارك أو الملك أو المختار أو المنذور للهداية والصلاح • وقيل : سمي مسيحاً لأنه كان لا يمسح ذا عاهة إلا برىء ، أو لكثرة سياحته في الأرض •

(٤) اسمه بالعبرية : « يشوع » أي المخلص ، لأنه سبب لتخليص كثيرين من آثامهم وضلالهم •

(٥) ذا جاه وقدر •

(٦) البغي هي الزانية الفاجرة •

« قال كذلك قال ربك هو علي هين ولنجعله آية[1] للناس ورحمة منا وكان أمراً مقضياً[2] ».

(سورة مريم ٢١)

« قال كذلك الله يخلق ما يشاء إذا قضى أمراً فانما يقول له كن فيكون . ويعلمه الكتاب[3] والحكمة والتوراة والانجيل[4] . ورسولا الى بني اسرائيل اني قد جئتكم بآية من ربكم .. » .

(سورة آل عمران ٤٧ ـ ٤٩)

فهذا الأمر الخارق الذي لا تتصور مريم وقوعه هين على الله الذي يقول للشيء كن فيكون . وقد أراد الله أن يجعل هذا الحادث العجيب علامة على قدرته . فكما انه يخلق الناس من ذكر وأنثى فهو قادر على أن يخلق من أنثى بدون ذكر . وقد خلق من قبل آدم من غير أب ولا أم ، وخلق حواء ولم يكن قبلها امرأة . وبذلك تظهر قدرته على الخلق بأشكاله المختلفة .

وقد ذكر الملك صفات هذا المولود المبشر به بما لا يدع مجالا للشك . فهو شريف مبارك ، له وجاهة ومكانة عند ربه في الدنيا والآخرة ، وهو زاهد طاهر ، يكلم الناس في الصغر كما يكلمهم في الكبر ، وينطق بالحكمة ، ويتعلم الكتابة والتوراة والانجيل . وهو رسول الله الى بني اسرائيل مؤيد بالمعجزات .

---

(١) علامة وبرهاناً على قدرة الله .
(٢) مقدراً مسطوراً في اللوح .
(٣) أي الكتابة .
(٤) الانجيل باليونانية بمعنى الخبر السعيد أو البشارة . (محاضرات في النصرانية ـ محمد أبو زهرة ص ٥٩ ، عبقرية المسيح ـ العقاد ص ١٩٢) .

وقد ورد ذكر عفة مريم وصلاحها وحملها بالمسيح في قوله تعالى :

« ومريم ابنت عِمْران التي احصنت فرجها[1] فنفخنا فيه[2] من روحنا وصَدَّقت بكلمات ربها[3] وكتبه[4] وكانت من القانتين[5] » . (سورة التحريم ١٢)

« والتي أحصنت فرجها فنفخنا فيها[2] من رُوحنا وجعلناها وابنها آية للعالمين » . (سورة الأنبياء ٩١)

ويروى ان جبريل ـ عليه السلام ـ لما تمثل لمريم في صورة بشر سوي نفخ بفيه في جيب درعها ، فولجت النفخة في فرجها ، فحملت . واضافة الروح إليه تعالى لتشريف عيسى عليه السلام[6] .

ولعل هذه النفخة شبيهة بتلك التي جعلت آدم حياً بعد أن كان طيناً ، وجعلته مستحقاً لتكريم الملائكة بالسجود :

---

(١) حفظته وصانته من كل مباشرة . وكل ما في الدرع من شق ونحوه يقع عليه اسم الفرج .

(٢) أي نفخ جبريل بأمرنا ، أو فعلنا النفخ في مريم من جهة روحنا وهو جبريل ، لأنه نفخ في جيب درعها فوصل النفخ الى جوفها . أو نفخنا الروح في عيسى فيها ، أي أحييناه في جوفها . وقيل : خلقنا فيه ما يظهر به الحياة في الأبدان. و « فيها » : أي في مريم أو في نفس عيسى . و « فيه » : أي في فرجها ، أوفي فرج ثوبها أو في عيسى . وقرأت « فيها » في الآيتين .

(٣) قال مقاتل : يعني بعيسى . ويدل عليه قراءة الحسن : « بكلمة ربها » . وقال أبو علي الفارسي : الكلمات : الشرائع .

(٤) كتبه : أي الكتب السماوية المنزلة . وقرئت : « كتابه » أي الأنجيل .

(٥) الطائعين .

(٦) تفسير النسفي ج ٣ ص ٩٠ ، التفسير الكبير للامام الرازي ج ٦ ص ١٩٢ ، ج٨ ص ٢٣٨ ، تفسير ابن كثير ج٤ ص ٣٩٤ .

« إذ قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من طين • فاذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين » •

(سورة ص ٧١ ـ ٧٢)

فهي روح الله الذي خلق الأشياء كلها ، ومنه تستمد الكائنات الحية حياتها • ولا نستطيع أن ندرك حقيقة هذه الروح أو النفخة ، ولا كيف تجعل الجماد حياً ، أو تجعل الأنثى تحمل جنيناً في أحشائها بدون أن تتحد البييضة المنحدرة الى رحمها بنطفة رجل كما هو معتاد في تكوين الأجنة ؛ فهذا الادراك لا يفيدنا في القيام بالخلافة في هذه الأرض ، ولم نزود بقوى تعيننا عليه • وما علينا إلا أن نسلم بالقدرة لله الخلاق ، ونوقن أن عيسى ــ عليه السلام ــ حملت به أمه بأمر الله تعالى من غير أب ، وأنها منزهة عن كل ما رماها به اليهود مع يوسف النجار[1] الذي كان معها في خدمة بيت المقدس ، والذي تقول عنه الأناجيل المتداولة أنه كان خطيبها ، أو أنه كان قد تزوجها، ولكنه لم يدخل بها ولم يقربها •

وتبقى هي وابنها آية في تاريخ البشرية تدل على القدرة الطليقة التي تخلق النواميس ، ولكنها لا تحتبس داخل النواميس[2] •

(١) هو يوسف بن يعقوب بن ماثان ، ابن عم مريم • كان حكيماً ونجاراً ، يعمل بيديه ، ويتصدق بأجره • (الكامل لابن الأثير ج١ ص ٣٠٧)
وقد نسب انجيل متى وانجيل لوقا المسيح إليه مع أنهما اختلفا في نسبه اختلافا كبيراً • ولم يجزم لوقا بنسبه هذا •

(٢) في ظلال القرآن ص ٢٣٩٥ •

٤ ـ الحكمة في ولادة المسيح من غير أب

إن ولادة عيسى ـ عليه السلام ـ من غير أب تبين قدرة الله سبحانه وتعالى ، وأنه الفاعل المختار المريد ، وأنه لا يتقيد في تكوينه للأشياء بقانون الأسباب والمسببات التي نرى العالم يسير عليها . فالأسباب الجارية لا تقيد ارادة الله لأنه خالقها ومبدعها ومريدها . والأشياء لم تصدر عن الله كما يصدر الشيء عن علته والمسبب عن سببه ، من غير أن يكون للعلة ارادة في معلولها ، بل كانت بفعله ـ سبحانه ـ وبارادته التي لا يقيدها شيء .

وخلق عيسى من غير أب هو بلا ريب اعلان لهذه الارادة الأزلية بين قوم غلبت عليهم الأسباب المادية ، وفي عصر ساده نوع من الفلسفة أساسها أن خلق الكون كان من مصدره الأول كالعلة عن معلولها ، فكان عيسى آية الله على أنه ـ سبحانه ـ لا يتقيد بالأسباب الكونية ، وان العالم كان بارادته ، ولم يكن ـ سبحانه ـ بمنزلة العلة من المعلول . تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً.

ثم ان ولادة عيسى ـ عليه السلام ـ من غير أب اعلان لعالم الروح بين قوم أنكروها ، حتى لقد زعموا أن الانسان جسم لا روح فيه ، وأنه ليس إلا تلك الأعضاء والعناصر التي يتكون منها ، فلقد قيل عن اليهود إنهم كانوا لا يعرفون الإنسان إلا جسماً عضوياً ، ولا يقرون أنه جسم وروح .

يقول «رنيان» في هذا: «إن اليهود ماكانوا يقولون كاليونان : إن الانسان جسم وروح»، ويؤيد هذا ما جاء في التوراة التي بأيديهم في تفسير النفس بأنها الدم . فقد جاء فيها : « لا تأكلوا دم جسم ما لأن نفس كل جسد هي دمه ».

إذن لم يكن اليهود يعرفون الروح على أنها شيء غير الجسم . فلما جاء عيسى من غير أب ، وكان ايجاده من روح مخلوقة كان ذلك اعلاناً لعالم الروح بين قوم أنكروها ولم يعرفوها . فكان هذا قارعة قرعت حسهم ليدركوا الروح، وكان آية معلمة لمن لم يعرف الإنسان إلا على أنه جسم لاروح فيه[1].

(١) محاضرات في النصرانية للاستاذ الشيخ محمد ابو زهرة ، ص : ١٧ ـ ١٨ .

٥ ــ ولادتــــه

لما ظهر مخايل الحمل بمريم[١] ، واستشعرت من قومها اتهامها بالريبة ، ذهبت الى مكان بعيد[٢] ، فألجأها الطلق الى جذع نخلة هناك . وها هي الآيات تصف حالتها ومشاعرها حينئذ :

« فحملته فانتبذت[٣] به مكاناً قصيّاً[٤] . فأجاءها[٥] المخاض[٦] الى جذع النخلة قالت ياليتني مِتُّ قبل هذا وكنت نَسْياً مَنْسِيّاً[٧] . فناداها من تحتها[٨] ألا تحزني قد جعل ربك

(١) اختلف في مدة حملها . فقيل : ساعة واحدة أو ثلاث ساعات . وقيل : ستة أشهر أو سبعة أو ثمانية . والمشهور عن الجمهور أنها حملت به تسعة أشهر ، وهو قول النصارى (تاريخ ابن الأثير ج١ ص ٣٠٩ ــ ٣١٠ ، تفسير النسفي ج٣ ص ٣٤ ــ ٣٥ ، تفسير ابن كثير ج٣ ص ١١٦ ــ ١١٨) .

(٢) اختلف في المكان الذي تنحت إليه . فقيل : كان شرقي محرابها الذي تصلي فيه من بيت المقدس . وقيل : ولد بالناصرة في الجليل . وقيل : في قرية بيت لحم على بعد ثمانية أميال من بيت المقدس . وهذا هو المشهور بين الناس ويؤيده حديث رواه النسائي والبيهقي . وهو المعتمد عند النصارى .
(البداية والنهاية لابن كثير جـ٢ ص ٦٦ ، عبقرية المسيح للعقاد ص ٧٠ والمصادر السابقة) .

(٣) اعتزلت .

(٤) بعيداً .

(٥) جاء بها وألجأها واضطرها .

(٦) الطلق ووجع الولادة .

(٧) شيئاً متروكاً ، أو شيئاً لا يعرف .

(٨) قرئت من بفتح الميم وكسرها ، أي عيسى ، انطقه الله ، أو جبريل ناداها من أسفل الوادي .

تحتك سَرِيًّا[1] • وهزي إليك بجذع النخلة تُسَاقِطْ عليك رطبا جَنيًّا[2] • فكلي واشربي وقرّي عينا[3] فاما ترَيِنّ من البشر أحداً فقولي إني نذرت للرحمن صوماً فلن أكلم اليوم إنْسيًّا »[4] •

(سورة مريم ٢٢ ـ ٢٦)

فعانت من آلام الولادة والحزن والكآبة والوحدة حتى تمنت لو أنها ماتت قبل تلك الحال ، أو أنها لم تخلق ، ولم تكن شيئاً يذكر •

وما إن وضعت حتى سمعت نداء يقول لها : لاتحزني،قد جعل ربك بقربك جدول ماء • وحركي جذع النخلة التي تستندين إليها يسقط عليك ثمرها ، فكلي واشربي وطيبي نفساً ، وكوني مسرورة ؛ فإذا سألك أحد عن ولدك : « فقولي : إني نذرت للرحمن صوماً فلن أكلم اليوم إنسياً » •

وهكذا وجدت طعامها وشرابها،ولقنت حجتها التي ترد بها على الفضوليين والسفهاء ، مما قوى عزيمتها على مواجهة قومها :

« فأتت به قومها تحمله[5] قالوا يا مريم لقد جِئْتِ شَيئاً

---

(١) نهر صغير • (٢) طريا • والرطب والتمر مناسبان للنفساء •

(٣) طيبي نفساً •

(٤) قيل : كانوا يصومون عن الكلام كما يصومون عن الأكل والشرب • وقيل كانوا اذا صاموا يحرم عليهم الطعام والكلام •

(٥) وذلك فيما بين السنة السادسة والرابعة قبل التاريخ الميلادي ؛ لأنه وقع خطأ حين دعا الراهب دنيوسيس الصغير الى تاريخ الأيام من السنة الأولى للميلاد ، وذلك سنة ٥٣٢ م •

يقول الاستاذ عباس محمود العقاد : « القول الراجح في تقدير المؤرخين أن ميلاد السيد المسيح متقدم على السنة الأولى ببضع سنوات » •

وقد مضت ثلاثة قرون قبل أن تحتفل كنيسة من الكنائس المعتمدة بعيد الميلاد• ثم احتفلت الكنيسة الشرقية بالميلاد في السادس من كانون الثاني ، واحتفلت به الكنيسة الغربية في الخامس والعشرين من كانون الأول • ويرجح انها اختارت هذا اليوم لتصرف المسيحيين عن حضور المحافل الوثنية التي كانت تتخذه عيداً للشمس ، وتعلن فيه الأفراح بانتصار النور على الظلام ؛ لأنه هو الموعد الذي يبدأ فيه الليل يقصر والنهار يطول) •

(عبقرية المسيح ـ العقاد ص ٧٦ ، ٧٩ ، ٨٦ـ٨٧)

فَرِيًّا[1] • يا أخت هارون[2] ما كان أبوك امرَأ سَوْءٍ وما كانت أمُّك بغيا •

فأشارت إليه قالوا كيف نكلم من كان في المهد صبياً •

قال إني عبد الله آتاني الكتاب[3] وجعلني نبيًّا • وجعلني مباركا أين ما كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حيا • وبَرًّا بوالدتي ولم يجعلني جباراً شقيا • والسلام عليَّ يومَ وُلدت ويومَ أموت ويوم أبعث حياً » •

(سورة مريم ٢٧ ــ ٣٣)

فما إن رأوها تحمله حتى كالوا لها الشتائم والتهم : أنت من بيت طاهر معروف بالصلاح والعبادة ، فكيف صدر هذا منكِ ؟ وأي عار لحق أسرتك بسببك !

فأشارت الى الغلام الذي تحمله بدون أن تتكلم •

فغضبوا من احالة الكلام عليه ، وقالوا متهكمين بها ظانين أنها تزدري بهم : كيف نكلم صبياً صغيراً ؟

---

(١) أي أمراً عظيماً •

(٢) قد يكون المقصود بهارون أخا موسى عليهما السلام ، فهي من نسله ، قيل لها : « يا أخت هارون » كما يقال للتميمي : يا أخا تميم وللمضري : يا أخا مضر• وقيل : كان هارون أخاها من أبيها ، وكان من أفضل بني اسرائيل • وقيل : هو رجل صالح في زمانها شبهوها به في الصلاح • وقيل: رجل طالح شتموها به• بــه •

(تفسير النسفي ج٣ ص ٣٥ ، تفسير ابن كثير ج٣ ص ١١٨ ــ ١١٩ ، قصص الأنبياء للثعلبي ص ٣٣٦) •

(٣) أي الانجيل •

وأذهلهم سماع صوته الرفيع : إني عبد الله الذي قضى أن يجعلني نبياً ، وأن يؤتيني الكتاب، وجعلني مباركاً معلماً للخير ونافعاً للخلق، وأمرني بالصلاة والزكاة طيلة حياتي ، وأمرني ببر والدتي والاحسان إليها . ولم يجعلني جباراً مستكبراً عاقاً . والسلامة والأمان مقدران لي حين ولدت وحين أموت وحين أُبعث يوم القيامة .

وهكذا تحققت البشارة ووقعت المعجزة ، غلام يولد من غير أب ويتكلم في المهد ، ويدعو الى عبادة الله . فمن يكون هذا المولود ؟

٦ ـ طبيعة المسيح

من استعراضنا قصة الحمل بالمسيح وولادته يتبين لنا أنه بشر ، له حياة محدودة ذات أمد ، وهو يموت ويبعث ، وهو عبد الله وليس إلهاً ولا ابناً لله سبحانه وتعالى . وليست طبيعته الهية ولا هي مركبة من طبيعة إنسانية وأخرى إلهية كما يقول بعضهم . تعالى الله عن قولهم .

فالله منزه عن الولد والشريك :

« ما اتخذ الله من ولد وما كان معه إله إذاً لذهب كل إلـه بما خلق ولـعـلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون . عالم الغيب والشهادة فتعالى عما يشركون » . (سورة المؤمنون ٩١ ـ ٩٢)

فلو قدر تعدد الآلهة لانفرد كل منهم بما خلق فاستبد به ، ولتميز ملك كل واحد عن الآخر،ثم لكان كل منهم يطلب قهر الآخر وخلافه،فيعلو بعضهم على بعض ، فلا ينتظم الكون بذلك . وبما أن الوجود متسق منتظم ، لا نرى فيه أثراً لتمايز الممالك والتغالب ، فإن الله واحد لا شريك له :

« بديع السماوات والأرض(١) أنـّى يكون له ولد ولم تكن لـه صاحبة وخلق كل شيء وهو بكل شيء عليم » .

(سورة الأنعام ١٠١)

فالولادة من صفات الأجسام ، ومخترع الأجسام لا يكون جسماً حتى يكون له ولد . والولد يكون متولداً بين شيئين متناسبين ، والله ـ تعالى ـ لا يناسبه ولا يشابهه شيء من خلقه، لأنه مالك السموات والأرض، فلا صاحبة لـه ولا ولـد :

---

(١) خالقها على غير مثال سابق .

« الذي له ملك السماوات والأرض ولم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك وخلق كل شيء فقدّره تقديراً » ٠

(سورة الفرقان ٢)

فكل شيء مما سواه مخلوق مربوب ، وكل شيء تحت قهره وتدبيره وتسخيره وتقديره ، وهو الذي هيأ كل شيء لما يصلح له بلا خلل فيه ، وقدر حجمه وشكله ووظيفته وعمله وزمانه ومكانه وتناسقه مع غيره من هذا الوجود الكبير ، كما إنه خلق الإنسان على هذا الشكل الذي تراه ، فقدره للتكاليف والمصالح المنوطة به في الدين والدنيا ، وقدره للبقاء الى أمد معلوم ، وجعله يتناسل لامتداد الحياة الى أجل مسمى ، وهو ـ سبحانه ـ باق لا يفنى قادر لا يحتاج ٠ وكل ما في السموات والأرض منقادون له ، يقرون له بالطاعة، ويشهدون له بالوحدانية ، لا يمتنع شيء منهم على تكوينه وتقديره :

« وقالوا اتخذ الله ولداً سبحانه بل له ما في السماوات والأرض كل له قانتون[1] ٠ بديع السموات والأرض وإذا قضى أمراً فانما يقول له كن فيكون » ٠

(سورة البقرة ١١٦ ـ ١١٧)

فكل ما قدره من الأمور وأراد كونه يتكون ويوجد على وفق ما أراد من غير امتناع ولا توقف ٠ ومن كان بهذه الصفة من القدرة كانت صفاته مباينة لصفات الأجسام فأنى يتصور التوالد ثمّ ٠ والذي ابتدع السماوات والأرض من غير أصل وعلى غير مثال هو الذي ابتدع المسيح عيسى من غير والد بقدرته ٠

---

(١) مطيعون عابدون ٠

وقولهم : « اتخذ الرحمن ولداً » بهتان عظيم تفزع منه السماوات والأرض والجبال :

« وقالوا اتخذ الرحمن ولداً • لقد جئتم شيئا إدّاً(١) • تكاد السموات يتفطّرن(٢) منه وتنشق الأرض(٣) وتَخِرُّ الجبال هدّاً(٤) أن دعوا للرحمن ولداً • وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولداً إنْ كلُّ مَنْ في السموات والأرض إلا آتي الرحمن عبداً(٥) • لقد أحصاهم وعَدَّهُم عداً • وكلهم آتيهِ يوم القيامة فرداً » •

(سورة مريم ٨٨ ـ ٩٥)

فلا يصلح للرحمن ، ولا يليق به لجلاله وعظمته أن يكون له ولد ، لأن اتخاذ الولد لحاجة ومجانسة ، وهو منزه عنهما • وكل مَنْ في السموات والأرض يأتي الله يوم القيامة مقراً بالعبودية ، منفرداً بلا معين ولا ناصر • وهو الذي علم عددهم منذ خلقهم الى يوم القيامة •

ونسبة الولد الى الله بهتان وكذب ليس عليه أي دليل ، وكفر يعذّب من يصدر عنه :

« قالوا اتخذ الله ولداً سبحانه هو الغني له ما في السموات وما في الأرض إنْ عندكم من سلطان بهذا أتقولون على الله ما لا تعلمون •

---

(١) الإد : العجب ، أو العظيم المنكر •

(٢) يتشققن فرقاً •

(٣) تنخسف وتنفصل أجزاؤها •

(٤) تسقط وتتكسر وتتهدم •

(٥) خاضعاً ، ذليلا •

قل إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون • متاع في الدنيا ثم إلينا مرجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون » •

(سورة يونس ٦٨ ــ ٧٠)

فعيسى ــ عليه السلام ــ عبد لله وابن لمريم ، لا يصح أن ينسب الى غير أمه • وهو كلمة الله ، ولا أب لـــه • هذا هو القول الحق ، وخلافـــه باطل لا حقيقة لـــه :

« ذلك عيسى ابن مريم قولَ الحق فيه يمترون[1] • ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه إذا قضى أمراً فانما يقول له كن فيكون • وإنّ الله ربــي وربكم فاعبدوه هـــذا صراط مستقيـــم • فاختلف الأحزاب[2] من بينهم فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم » •

(سورة مريم ٣٤ ــ ٣٧)

فما ينبغي لله أن يتخذ من ولد ، فهو منزه عن ذلك • ولقد قال الله لعيسى « كن » فكان من غير أب ، وعيسى نفسه دعا الى عبادة الله وهو في مهـــده بقوله : « إن الله ربي وربكم فاعبدوه » •

وإن شأن عيسى وحاله كشأن آدم الذي خلقه الله من تراب ، ولم يكن ثمة أب ولا أم :

---

(١) يشكون أو يختلفون •

(٢) أي اختلف الفرق وصاروا شيعاً فيه ؛ منهم من يقر بأنه عبد الله ورسوله وهو الحق ، ومنهم من يدعي أنه ولد الله ، ومنهم من يقول : إنه الله • تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً •

« إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال لــه كن فيكون • الحق من ربك فلا تكن من الممترين[1] » •

(سورة آل عمران ٥٩ ــ ٦٠)

بل إن الوجود من غير أب ولا أم أغرب وأعجب من الوجود بغير أب • وإن جاز ادعاء النبوة في عيسى ، فجوازه في آدم أولى ؛ وذلك باطل بالاتفاق ، لم يقل به أحد • فدعواه في عيسى أشد بطلاناً وأظهر فساداً • هذا هو حــق اليقين لا محيد عنه ولا صحيح سواه • وماذا بعد الحق إلا الضلال •

ولقد نهى أهل الكتاب عن تجاوز الحد في عيسى وعن عقيدة التثليث :

« يا أهل الكتاب لا تَغْلُوا في دينكم ولا تقولــوا على الله إلا الحق إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته[2] ألقاها الى مريم وروح منه[3] فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة انتهو خيراً لكم إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد له ما في السموات

(١) الشاكين •

(٢) قال الزمخشري : قيل لعيسى : كلمة الله وكلمة منه لأنه وجد بكلمته وأمره من غير واسطة ولا نطفة •

(الكشاف ج١ ص ٥٨٤ ــ ٥٨٥)

وقال الامام النسفي : قيل له : « كلمة » لأنه يهتدي به كما يهتدي بالكلام •

(ج١ ص ٢٦٣)

وقال ابن أبي حاتم : ليس الكلمة صارت عيسى ، ولكن بالكلمة صار عيسى •

(تفسير بن كثير ج١ ص ٥٩٠)

(٣) قال الزمخشري : وقيل له : روح الله وروح منه لأنه ذو روح وجد من غير جزء من ذي روح كالنطفة المنفصلة من الأب الحي • وانما اخترع اختراعاً من عند الله وقدرته خالصة •

وقال النسفي : قيل له روح لأنه كان يحي الموتى • =

وما في الأرض وكفى بالله وكيلا لن يستنكف[1] المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعاً • فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله وأما الذين استنكفوا واستكبروا فيعذبهم عذاباً أليما ولا يجدون لهم من دون الله وليا ولا نصيراً » •

(سورة النساء ١٧١ ـ ١٧٣)

فالله منزه عن الشريك والولد • والمسيح عبد الله ورسوله وخلق من خلقه، قال له : كن • فكان • وخلقه بالكلمة التي أرسل بها جبريل الى مريم ، فنفخ فيها من روحه بإذن ربه ، ولن يأنف المسيح أن يكون عبداً لله ، ولا الملائكة المقربون الذين هم أقوى وأقدر منه ؛ لأن من يترفع عن عبادة الله يعذبه الله يوم القيامة ، ومن يؤمن ويعمل صالحاً يعطيه من الثواب على قدر عملـه ، ويزيده من فضله وإحسانه •

وكيف يكون المسيح إلهاً وهو عبد مخلوق كسائر العباد تنفذ فيه قدرة الله ومشيئته ، ويخضع لقهره وسلطانه :

« لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم قـل فمن يملك من الله شيئاً إن أراد أن يـهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن في

= وقال ابن كثير : أي من خلقـه • ليست « مِنْ » للتبعيض بل هي لابتـداء الغاية : والذي اتصل بها من الملك هي الروح المضافة الى الله اضافة تشريف وتكريم ، وهي مخلوقة من مخلوقات الله كما يقال : بيت الله ، وناقة الله ، وعبد الله ؛ وكذا روح الله •• وهي الكلمة التي عنهـا خلق وبسببها وجـد وقال مجاهد : « أي ورسول منه » • وقال غيره : « ومحبة منه » •
والأظهر أنه مخلوق من روح مخلوقـة • (البدايـة والنهاية لابـن كثير ج٢ ص ٧١ ، والمصادر السابقة)

(١) لن يأنف ، ولن يستكبر •

الأرض جميعا ولله ملك السموات والأرض وما بينهما يخلق ما يشاء والله على كل شيء قدير » • (سورة المائدة ١٧)

قال الإمام النسفي في تفسير هذه الآية :

« وعطف من في الأرض جميعاً على المسيح وأمه إبانة أنهما من جنسهم لا تفاوت بينهما وبينهم • والمعنى : ان من اشتمل عليه رحم الأمومية متى يفارقه نقص البشرية ، ومن لاحت عليه شواهد الحدثية أنى يليق به نعت الربوبية • ولو قطع البقاء عن جميع ما أوجد لم يعد نقص الى الصمدية[1] »•

وادعاء أن الله هو المسيح ابن مريم أو أن الله ثالث ثلاثة كفر يعذب عليه في النـــار :

« لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم وقال المسيح يا بني اسرائيل اعبدوا الله ربي وربّكم إنه من يشرك بالله فقد حَرّم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار • لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله الا إله واحد وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسّنّ الذين كفروا منهم عذاب أليم • أفلا يتوبون الى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم • ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وامه صدّيقة كانا يأكلان الطعام أنظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر أنى يؤفكون[2] • قل اتعبدون من دون الله مالا يملك لكم ضراً ولا نفعاً والله هو السميع

---

(١) تفسير النسفي ج١ ص ٢٧٦ •

(٢) كيف يصرفون عن استماع الحق وتأمله •

العليم • قل يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم غير الحق ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل»

(سورة المائدة ٧٢ ـ ٧٧)

والمسيح لم يفرق بينه وبين قومه في أنه عبد لله • بل إن أول كلمة نطق بها وهو صغير في المهد : « إني عبد الله » • والقول بالأقانيم الثلاثة ، أو جعل المسيح وأمه إلهين مع الله ، وجعل الله ثالث ثلاثة كفر وزور يلقى قائله العذاب والنكال في النار •

والمسيح كسائر الرسل المتقدمين عليه ، وأمه مؤمنة به مصدقة له كغيرها من النساء المصدقات للأنبياء المؤمنات بهم • وهما يحتاجان الى التغذية بالطعام والى خروجه منهما ؛ ولا يكون إلهاً من يحتاج الى الطعام ليعيش •

قال سبحانه وتعالى :

« وقالت اليهود عُزَيرٌ ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يُضاهِؤُنَ[1] قول الذين كفروا من قبلُ قاتلهم الله أنّى يؤفكون • اتخذوا أحبارهم[2] ورهبانهم[3] أرباباً من دون الله والمسيحَ ابن مريم وما أُمروا الا ليعبدوا إلهاً واحداً لا اله إلا هو سبحانه عما يشركون » •

(سورة التوبة ٣٠ ـ ٣١)

وقولهم هذا لا يعضده برهان ولا يستند الى بيان • ولعلهم تلقوه من

---

(١) يشابهون • (٢) علماءهم • (٣) نساكهم •

كهنتهم[1] الذين كانوا يتبعونهم فيما حللوا وحرموا ، ويجعلونهم آلهة من دون الله .

روى الإمام أحمد والترمذي وابن جرير من طرق عن عدي بن حاتم رضي الله عنه أنه لما بلغته دعوة رسول الله ﷺ فر الى الشام ، وكان قد تنصر في الجاهلية ، فأسرت أخته وجماعة من قومه ، ثم مَنّ رسول الله ﷺ على أخته وأعطاها ، فرجعت الى أخيها ، فرغبته في الاسلام وفي القدوم على رسول الله ﷺ .

فقدم عدي الى المدينة ، وكان رئيساً في قومه طيء ، وأبوه حاتم الطائي المشهور بالكرم ، فتحدث الناس بقدومه ، فدخل على رسول الله ﷺ ــ وفي عنق عدي صليب من فضة ــ وهو يقرأ هذه الآية: «اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله » .

قال : فقلت : إنهم لم يعبدوهم !

فقال : « بلى ، إنهم حرموا عليهم الحلال، وأحلوا لهم الحرام، فاتبعوهم، فذلك عبادتهم إياهم » .

---

(١) انفرد لوقا بقوله عن عيسى عليه السلام : « وابن العلي يدعى » ، « وابن الله يدعى » . وقد جاء لوقا بهذه العبارات ليزين بها أمر المسيح ، ويدخل على الناس تعظيمه .
وهو من تلاميذ بولس ورفقائه ، ولم يكن من تلاميذ المسيح ولا من تلاميذ حوارييه . ولبولس شأن خطير في المسيحية وليس في الأناجيل الثلاثة الأولى ما يدل على ألوهية المسيح . وكان مرقس ينكر الوهيته ، وكذلك كان استاذه بطرس الحواري . وانما تضمن انجيل يوحنا ذكراً صريحاً لالوهيته .
(محاضرات في النصرانية ــ محمد أبو زهرة ص ٤٩ ــ ٥٨ ، قصص الأنبياء ــ النجار ص ٣٧٧) .

وقال رسول الله ﷺ : « يا عدي ! ما تقول ؟ أيضرك أن يقال : الله أكبر؟ فهل تعلم شيئاً أكبر من الله ؟ ما يضرك ؟ أيضرك أن يقال : لا إله إلا الله ، فهل تعلم إلهاً غير الله ؟ » .

ثم دعاه الى الاسلام فأسلم ، وشهد شهادة الحق . قال : فلقد رأيت وجهه استبشر ثم قال : « إن اليهود مغضوب عليهم ، وان النصارى ضالون[1] » .

فالواجب أن نعبد إلهاً واحداً وأن نتبع شريعته ، ونعمل بكتابه ، وأن نتلقى منه العقيدة والقيم والنظم ، وأن نتصور الوجود وحقائق الأشياء والارتباطات فيما بينها على هديه ، وأن نعبده بالكيفية التي بينها بدون غلو أو تفريط ، وألا نتجاوز الحقيقة في عيسى عليه السلام . وإذ أردنا أن ننسبه فننسبه الى أمه دون غيرها ، كما يقول القرآن الكريم ؛ إذ نسبه إليها ثلاثاً وعشرين مرة ، بينما تضمن أسماء غيره من الرسل مجردة عن النسب في غالب الأحوال . فهو إنسان وليس ابن الإنسان ، وهو رسول الله وليس ابن الله سبحانه وتعالى . وطبيعته بشرية وليست إلهية .

(١) تفسير ابن جرير الطبري ج١٠ ص ٨٠ ـ ٨١ ، تفسير ابن كثير ج٢ ص ٣٤٨ ـ ٣٤٩ .

٧ - حياتـه ونبوتـه

لا نجد آيات تروي لنا فصول حياة المسيح وتبليغه رسالة ربـه بالقدر الذي رأيناه عند كلامنا عن موسى وإبراهيم عليهما السلام ، ولا نريد أن نرجع الى الأناجيل الرسمية وغير الرسمية ، ننفض عنها ما تراكم عليها من الغبار زهاء ألفين من السنين ، ونقارن بعضها ببعض ، ونمحض وقائعها ونحقق رواياتهـا مما لا طائل تحته ، لأن ما يبقى منها بعد الغربلة لا يقدر بالعناء اللازم لذلك ، وليقيننا بأنه لو كان فيها نفع لتضمنها الكتاب الذي أنزل مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه .

روي أن مريم حملت ابنها الى مصر بعد ولادته ، لأنها خافت اليهود عليه ، أو خافت من الملك هيرودس الذي أعلمه حكماء المجوس والكهان بولادته ، وأراد أن يقتله ، وانها بقيت في مصر اثنتي عشرة سنة[1] الى أن مات ذلك الملك فعادت الى فلسطين[2] .

وقيل : إن ذلك هو المأوى المقصود بقوله تعالى :

« وجعلنا ابن مريم وأمـه آيـة وآويناهما إلى ربوة[3] ذات قرار[4] ومعين[5] » .

(سورة المؤمنون ٥٠)

---

(١) وقيل بضعة أشهر .

(٢) الكامل لابن الأثير ج١ ص ٣١٢ ، قصص الأنبياء للثعلبي ص ٣٣٦ ـ ٣٣٧ ، ٣٤٠ ، محاضرات في النصرانية : ٢٨ ـ ٢٩ .

(٣) أرض مرتفعة .

(٤) مستقر من أرض مستوية ، أو ذات ثمار وماء يستقر فيها ساكنوها .

(٥) ماء جار على وجه الأرض .

قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : « ليس الربى إلا بمصر ، والماء حين يسيل يكون الربى عليها القرى » •

ولكن قيل: المأوى هو دمشق وغوطتها،روي ذلك عن سعيد بن المسيب• وعن ابن عباس : « ذات قرار ومعين » قال أنهار دمشق • وعن مجاهد قال : أويا الى غوطة دمشق وما حولها •

وقيل : المقصود بذلك بيت المقدس • والمعين هو النهر الذي قال الله تعالى فيه : « قد جعل ربك تحتك سرياً » • كذا قال الضحاك وقتادة » والله أعلم[1] •

وروي أن أمه أسلمته الى الكُتاب لما بلغ سبع سنين ، فجعل لا يعلمه المعلم شيئاً إلا بدره إليه ، وناقشه فيه ، وفسر له ما لا يخطر على باله• ولا ريب أنه تعلم الكتابة على أيسر حال وأتمه مصداقاً لقوله تعالى :

« ويعلمه الكتاب والحكمة » •

(سورة آل عمران ٤٨)

أي الخط والفهم •

وروي أن أمه لما عادت به الى فلسطين نزلت بقرية الناصرة التي ولدت فيها ، والتي نسب النصارى إليها •وأنه أقام فيها الى أن بلغ ثلاثين سنة ، فأوحى الله إليه أن يبرز للناس ، ويدعوهم الى الله ، ويداوي المرضى والزمنى والأكمه والأبرص • ففعل ما أمر به[2] •

---

(١) الكشاف ج٣ ص ٣٣ ــ ٣٤ ، تفسير النسفي ج٣ ص ١٢٤ ، تفسير ابن كثير ج٣ ص ٢٤٦ •

(٢) قصص الأنبياء للثعلبي ص٣٤٠ ، البداية والنهاية لابن كثير ج٢ ص٧١ــ٩١، الكامل لابن الأثير ج١ ص ٣١٤ •

٨ ـ دعوته ومعجزاته

لقد زاغ بنو اسرائيل وانحرفوا عن دينهم انحرافاً كبيراً على الرغم من الأنبياء الكثيرين الذين بعثوا فيهم من بعد موسى عليه السلام .

فكان منهم طائفة «الصدوقيين» الذين ينكرون القيامة والحساب والجزاء في الآخرة ، ويقولون بأن الجزاء يتحقق في الدنيا ؛ بأن يبارك الله لأصحاب الأعمال الصالحة ، ويعاقب أصحاب الأعمال الرديئة ، وكانوا حرفيين في أحكام الدين ، يتمسكون بالأشكال والقوالب ، ويعزفون عن المغزى والمضمون . وكانوا منغمسين في المتع والملذات ، متكالبين على حطام الدنيا .

وكان « الفريسيون » يظهرون بمظهر الزهد والتجرد لطاعة الله ، ويبتزون أموال الناس .

وكانت طائفة « الآسين » متنطعة تنكر ذبح الحيوان ، ولا تقرب القرابين من غير النبات . وكان الزهد والرهبانية غالباً عليها . وكانت مؤمنة بالبعث والحساب .

وكان الكتبة يتعاطون الوعظ ، ويكتبون الشريعة لمن يطلبها ، ويقدمون الفتاوى لمن يلتمسها ، ويأخذون أموال الناس ، ويأكلون الدنيا بالدين .

وكان الكهنة وسدنة الهيكل يحرفون كلام الله ، ويتهالكون على جمع المال ، فكانوا يحرضون الفقراء والمحتاجين على تقديم النذور للهيكل لتصير الى خزائنهم ، ولا يمنعهم من ذلك شدة حاجة الناس الى ما ينذرونه . وفي أمثالهم يقول الله تعالى :

« يا أيها الذين آمنوا إن كثيراً من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله » .

(سورة التوبة ٣٤)

وكان بنو اسرائيل يتحرجون من عمل الخير يوم السبت باعتباره يوم عطلة لا يجوز العمل فيه ؛ مع أن الله نهاهم عن الأعمال الدنيوية فيه ، ولم ينههم عن العمل الصالح .

وفي ذلك العصر تحجرت الأشكال والأوضاع في الدين والمجتمع، وساءت العلاقات بين الطوائف والأمم . وتكدست الثروة في أيدي فئة قليلة؛ فانغمست في الملذات والشهوات . وكانت الضرائب التي يجبيها الحكام والاتاوات التي يأخذها الكهان تنوء بالناس ؛ فعاش معظمهم يعانون من الجوع والفاقة ، وساءت حالتهم الصحية ، وكثر المرضى والمفلوجون والمصابون بالخرس والصمم والعمى ويبس المفاصل والأطراف والمجانين على الرغم من وجود كثير ممن يتعاطى الطب والعلاج[1] .

فكان السيد المسيح يدعو الى توحيد الله والأخلاص في عبادته والعمل بأوامره واجتناب نواهيه ، ويدعو الى الايمان باليوم الآخر والاستعداد له ، وينهى الناس عن التهافت على الدنيا والغرور بزخرفها . يمثلهم بالمسافرين ؛ والمسافر لا يبني القصور ، ولا يحوز العقارات . ويوصيهم بالزهد والتوكل على الله الذي يتكفل بطعامهم ورزقهم . ويأمرهم بالتواضع ، ويحذرهم من الكبر والصلف ، ويحثهم على حسن المعاملة بين بعضهم بعضاً ، وينهاهم عن الظلم والعدوان وأكل المال بالباطل[1] .

وكان يدعو الى الالتزام بالتوراة عدا احكاما يسيرة شرعت لبني اسرائيل خاصة بسبب ظلمهم وقسوة قلوبهم وأكلهم السحت . قال الله تعالى :

« فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم وبصدهم عن سبيل الله كثيراً . وأخذهم الربا وقد نهوا عنه وأكلهم أموال الناس بالباطل وأعتدنا للكافرين منهم عذابا أليماً » .

(سورة النساء ١٦٠ ـ ١٦١)

فقد حرم الله عليهم بعض الطيبات مما كان حلالا لهم بسبب بغيهم وطغيانهم ومخالفتهم رسولهم واختلافهم عليه ومنعهم أنفسهم والناس عن الإيمان واتباع الحق.ومن ذلك تحريم لحوم الابل وألبانها ، وتحريم الشحوم:

---

(١) عبقرية المسيح ـ عباس محمود العقاد ص : ٢١ـ٢٨ ، ٤٥ـ٤٦ ، ٨٦ـ٨٧ ، ١٠١ ـ ١٠٢ .

قصص الأنبياء ـ عبد الوهاب النجار ص : ٣٩١ ـ ٣٩٤ ، ٣٩٩ .

« وعلى الذين هادوا حرّمنا كل ذي ظُفُر (١) ومن الغنم والبقر حرمنا عليهم شحومهما(٢) إلا ما حملت ظهورهما(٣) أو الحوايا(٤) أو ما اختلط بعظم(٥) ذلك جزيناهم ببغيهم(٦) وإنا لصادقون » .

(سورة الأنعام ١٤٦)

وكان أبوهم اسرائيل قد حرّم على نفسه لحوم الإبل وألبانها ، فحرمت عليهم :

« كل الطعام كان حِلّا لبني اسرائيل إلا ما حرم اسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين » . (سورة آل عمران ٩٣)

روى الإمام أحمد عن عن ابن عباس ــ رضي الله عنهما ــ أن عصابة من اليهود قالوا للنبي ﷺ : أخبرنا أي الطعام حرم اسرائيل على نفسه ؟ فقال لهم:

« أنشدكم بالذي أنزل التوراة على موسى ، هل تعلمون أن اسرائيل مرض مرضاً شديداً ، وطال سقمه ، فنذر لله نذراً لئن شفاه من سقمه ليحرمن أحب الطعام والشراب إليه.وكان أحب الطعام إليه لحم الإبل ، وأحب الشراب إليه ألبانها » ؟ فقالوا : اللهم نعم .

وكان عيسى ــ عليه السلام ــ يدعم دعوته بالمعجزات التي أعلمت أمه بأنه سيجيء بها حين بشارتها به :

« ورسولا الى بني اسرائيل أني قد جئتكم بآية من ربكم أني أخلق من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً باذن الله وأبرِئ الأكمهَ (٧) والأبرصَ وأحي الموتى باذن الله وأنبئكم

---

(١) البهائم والطير ما لم يكن مشقوق الأصابع ، كالابل والنعام والأوز والبط .
(٢) يعني الشحم الذي على الكرش والكليتين .
(٣) يعني ما علق بالظهر من الشحوم ، مثل الإلية .
(٤) ما اشتمل على الامعاء .
(٥) ما اختلط من الشحوم بالعظام ، مثل المخ وما اختلط بالعصعص ومافي القوائم والجنب .
(٦) أي شرعنا لهم ذلك بسبب ظلمهم . (٧) الذي ولد أعمى .

بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين • ومُصدّقاً لما بين يديّ من التوراة ولأحل لكم بعض الذي حُرّم عليكم وجئتكم بآية من ربكم فاتقوا الله وأطيعون • إنّ الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم » •

(سورة آل عمران ٤٩ ــ ٥١)

فكان يصور من الطين شكل طير ثم ينفخ فيه فيطير عياناً بإذن الله • وقيل : لم يصور غير الخفاش مرة واحدة • وكان يرد البصر الى الأكمه الذي ولد أعمى ، ويشفي الأبرص ويحي الموتى بإذن الله • وكان يخبرهم بما أكل أحدهم وبما هو مدخر في بيته • وكان يأمرهم بتقوى الله وطاعته • ويقر بالعبودية لله ، ويبين أنه لا قدرة له على فعل شيء من هذه المعجزات بنفسه ، وانما يفعلها بأمر الله •

وقد جاء بهذه المعجزات لأنه بعث في زمن الأطباء وأصحاب علم الطبيعة ، فجاءهم من الآيات بما لا سبيل لأحد إليه إلا أن يكون مؤيداً من الذي شرع الشريعة • فمن أين للطبيب قدرة على احياء الجماد أو على مداواة الأكمه والأبرص وبعث من هو في قبره رهين الى يوم التناد[1] •

ولعله جاء بهذه المعجزات لأن أهل زمانه كان قد سادهم انكار الروح في أقوال بعضهم وأفعال جميعهم ؛ فجاء بمعجزة هي في ذاتها أمر خارق للعادة مصدق لما يأتي به الرسول ، وهي أيضاً اعلان صادق للروح وبرهان قاطع على وجودها • فهذا طين مصور على شكل طير ، ينفخ فيه فيصير طيراً • وما ذاك إلا لأن شيئاً غير الجسم وليس من جنسه فاض عليه ؛ فكانت معه الحياة • وهذا ميت يناديه المسيح ؛ فإذا هو حي يجيب • وما ذاك إلا لأن روحاً حلت فيه بذلك النداء ؛ ففاضت عليه الحياة •

فكانت معجزته من جنس دعوته ، وتناسب أخص رسالته • وهي الدعوة

---

(١) تفسير النسفي ج١ ص ١٠٥ ، تفسير ابن كثير ج١ ص ٣٦٤ ــ ٣٦٥ ، الكامل لابن الأثير ج١ ص ٣١٤ ، قصص القرآن للثعلبي ص ٣٤٢ •

الى تربية الروح والعمل للدار الآخرة . فهو بهذه المعجزات أثبت قدرة الله على أحياء الموتى ، وبرهن على عودة الحياة بما لا يسع جاحد البعث والنشور أن يستمر في جحوده . وقد كان معظم اليهود لا يؤمنون باليوم الآخر ، وان كان بعضهم لا ينكر ذلك اليوم ، فانهم في أعمالهم لا يرجون حساباً ولا جزاء ولا بعثا ولا نشوراً [1] .

كما كان عيسى ـ عليه السلام ـ بلسماً لأولئك المعتوهين والمشلولين والمصابين بالأمراض التي استعصت على العلاج ، والذين لا يقدرون على دفع أجور الأطباء . وقد صدقه بعض هؤلاء وأحبوه واتبعوه . ولكن كثيراً من بني اسرائيل كذبوه وكفروا به واتهموه بأنه ساحر . قال الله تعالى :

« إذ قال الله يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك إذ أيدتك بروح القدس [2] تكلم الناس في المهد وكهلا [3] وإذ علمتك الكتاب والحكمة [4] والتوراة والانجيل وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير باذني فتنفخ فيها فتكون طيراً باذني وتبرىء الأكمه والأبرص باذني وإذ تخرج الموتى باذني وإذ كففت بني اسرائيل عنك إذ جئتهم بالبينات فقال الذين كفروا منهم إن هذا إلا سحر مبين » . (سورة المائدة ١١٠)

وكان ينبغي أن يؤمنوا به وان يهتدوا بهديه لا سيما وهو متبع للتوراة غير مخالف لما فيها إلا في القليل من الأحكام التي نسخت تخفيفاً عليهم :

« وقفينا على آثارهم [5] بعيسى ابن مريم مصدقا لما بين يديه من التوراة وآتيناه الانجيل فيه هدى ونور" ومصدقاً لما بين يديه من

---

(١) محاضرات في النصرانية ـ محمد أبو زهرة ص : ٢٢ ـ ٢٣ .
(٢) هو جبريل عليه السلام .
(٣) تدعو الناس الى الله في صغرك وكبرك .
(٤) الخط والفهم .
(٥) أتبعنا أنبياء بني اسرائيل .

التوراة وهدى وموعظة للمتقين • وليحكم أهل الانجيل بما أنزل الله فيه ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون » •

(سورة المائدة ٤٦ ـ ٤٧)

ولكنهم لم يهتدوا الى الحق ، ولم يبصروا النور الذي أتى به ، ولم ينزجروا عن ارتكاب المحارم ، ولم يتقوا الله ، ولـم يخافوا وعيده وعقابه ، ولم يقيموا ما أمروا به في الكتاب المنزل إليهم ؛ فكانوا من الفاسقين الخارجين عن طاعة ربهم المائلين الى الباطل • اذ لم يؤمنوا بعيسى ، ولم يصدقوا بشارته بالرسول ﷺ من بعده :

« وإذ قال عيسى ابن مريم يابني اسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يدي من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين » •

(سورة الصف ٦)

وأحمد هو خاتم الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام •

عن جبير بن مطعم قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول :

« لي خمسة أسماء : أنا محمد ، وأنا أحمد ، وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي[1] ، وأنا العاقب[2] » •
(رواه البخاري : ٣٥٣٢ ومسلم والترمذي والنسائي)

---

(١) أي على أثري ، أي إنـه يحشر قبـل الناس • وهـو موافق لرواية أخرى : « يحشر الناس على عقبي » •

(٢) زاد يونس بن يزيد في روايته عن الزهري : « الذي ليس بعده نبي » •

٩ ـ الحواريون

الحواريون هم الذين آمنوا بعيسى عليه السلام ، واتبعوه ونصروه :

« فلما أحس[١] عيسى منهم الكفر قال مَنْ أنصاري الى الله[٢]
قال الحواريون[٣] نحن أنصار الله آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون •
ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين » •

(سورة آل عمران ٥٢ ـ ٥٣)

فحين علم عيسى من اليهود التصميم على الكفر والاستمرار على الضلال قال : من أنصاري وأعواني ؟ فألهم الله الحواريين أن يؤمنوا به :

« وإذ أوحيت الى الحواريين أن آمنوا بي وبرسولي قالوا آمنا
واشهد بأننا مسلمون » • (سورة المائدة ١١١)

وقد طلبوا شهادة نبيهم باسلامهم لأن الرسل يشهدون يوم القيامة على أقوامهم ، كما سألوا الله أن يجعلهم مع الشاهدين الذين تشهد أعمالهم وأحوالهم على دينهم ، والذين يدعون الى الايمان بالله بأقوالهم وأفعالهم ، ويرتفعون الى مقام العلماء العاملين الذين يشهدون لربهم بالوحدانية :

«شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط[٤]
لا إله إلا هو العزيز الحكيم » • (سورة آل عمران ١٨)

والذين يشهدون على الأمم يوم القيامة مع المرسلين والمؤمنين من هذه الأمة المحمدية :

---

(١) علم واستشعر منهم التصميم على الكفر •
(٢) من يتبعني الى الله ، ومن أنصاري في الدعوة الى الله ؟
(٣) حواري الرجل : صفوته وخاصته •
(٤) مقيماً للعدل •

« وكذلك جعلناكم أمة وسطاً[1] لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً » •

(سورة البقرة ١٤٣)

وقد قيل بأن الحواريين كانوا صيادين • وقيل : كانوا قصارين ، يحورون الثياب ، أي يبيضونها • وقيل : سموا بذلك لبياض ثيابهم • والصحيح ان الحواري الناصر كما ثبت في الصحيحين عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ ندب الناس يوم الخندق ، فانتدب الزبير• ثم ندبهم فانتدب الزبير • ثم ندبهم فانتدب الزبير فقال النبي ﷺ : « لكل نبي حواري ، وحواري الزبير[2] » •

وقال الحسن : الحواريون : الأنصار •

وعن مصعب قال : الحواريون اثنا عشر رجلا اتبعوا عيسى •

ولعل اتباعه كانوا أكثر من ذلك ، ولكن هؤلاء خاصتهم وتلامذته الذين لم يفارقوه ، أو هم أول من آمن به[3] •

وقد أمر الله المؤمنين أن يكونوا أنصار دينه ، وأن يستجيبوا لرسوله كما استجاب الحواريون لعيسى عليه السلام :

« يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله كما قال عيسى ابن مريم للحواريين من أنصاري الى الله قال الحواريون نحن أنصار الله فآمنت طائفة من بني اسرائيل وكفرت طائفة فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين[4] » •

(سورة الصف ١٤)

---

(١) خياراً وعدولا •

(٢) البخاري : ٣٧١٩ ومسلم : ٤٨ ـ (٢٤١٥) •

(٣) قصص الأنبياء للثعلبي ص ٣٤٠ ـ ٣٤١ ، تفسير النسفي ج٤ ص ٢٤٤ ، تفسير ابن كثير ج١ ص ٣٦٥ •

(٤) فغلبوا عليهم •

١٠ ـ مائـدة السمـاء

قال الحواريون لعيسى عليه السلام : هل لك أن تسأل ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء ، وهل يعطيك ربك اذا سألته ذلك ؟ وقد ذكر بعضهم أنهم سألوه لحاجتهم وفقرهم، وأرادوا أن يقتاتوا منها ويتقووا بها على العبادة .

فقال لهم : اتقوا الله ولا تسألوا هذا ، فعساه أن يكون فتنـة لكم ، وتوكلوا على الله في طلب الرزق إن كنتم مؤمنين .

قالوا : نريد أن نأكل منها تبركاً وأكلا يشرفنا ، ويسد حاجتنا ، ونزداد يقيناً وايماناً بك وعلماً برسالتك ، ونشهد أنها آية من عند الله ودلالة راجحة على نبوتك وصدق ما جئت به .

فلما علم عيسى أن سؤالهم لم يكن للتعنت ، قام فدعا الله أن ينزل عليهم مائدة يفرحون بها ، ويأكل منها آخر الناس وأولهم ، وتكون دلالة على قدرته وعلى اجابته لدعوته ، وأن يرزقهم رزقاً هنيئاً بلا كلفة ولا تعب .

وإليك الآيات المتعلقة بنزول المائدة :

« إذ قال الحواريون يا عيسى ابن مريم هل يستطيع ربُّك [(١)] أن ينزل علينا مائدة من السماء قال اتقوا الله إن كنتم مؤمنين . قالوا نريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبنا ونعلم أن قد صدقتنا ونكون عليها من الشاهدين . قال عيسى ابن مريم اللهم ربنا أنزل علينا مائدة

---

(١) قرأ بعضهم : « هل تستطيع ربَّك » أي هل تستطيع سؤال ربك .
وقيل : ان معنى « هل يستطيع » : هل يفعل . ونقل هذا القول عن الحسن .

من السماء تكون لنا عيداً[1] لأولنا وآخرنا وآية منك وارزقنا وأنت خير الرازقين • قال الله إني منزلها عليكم فمن يكفر بعد منكم فاني أعذبه عذابا لا أعذبه أحداً من العالمين » •

(سورة المائدة ١١٢ ــ ١١٥)

وقد قيل بأنهم أبوا نزولها حين عرض عليهم العذاب إن كفروا بعدها •

وعن الحسن أنهم قالوا : لا حاجة لنا فيها • فلم تنزل •

ولكن الذي عليه الجمهور أنها نزلت ؛ لأن الله أخبر بنزولها :

« إني منزلها عليكم » • وهو الذي اختاره ابن جرير وابن كثير وآخرون •

وفي نزولها روايات عديدة اخترنا منها هذه الرواية المختصرة التي رواها ابن أبي حاتم :

عن ابن عباس ــ رضي الله عنهما ــ أن عيسى ابن مريم قالوا له •

ادعُ الله أن ينزل علينا مائدة من السماء •

قال فنزلت الملائكة بالمائدة يحملونها ، عليها سبعة أحوات وسبعة أرغفة ، حتى وضعتها بين أيديهم • فأكل منها آخر الناس كما أكل منها أولهم[2] •

أما إن خبر المائدة لا يعرفه النصارى ، وليس هو في كتابهم على هذا النحو ، فهذا لا نكترث به بعد أن ذكره القرآن الكريم •

---

(١) اي يكون يوم نزولها عيداً نعظمه نحن ومن بعدنا • وقيل هو يوم الأحد •

(٢) تفسير النسفي ج١ ص ٣٠٩ ــ ٣١٠ ، تفسير ابن كثير ج٢ ص ١١٦ ــ ١١٩ •

وأعظم من هذه المائدة التي أنزلت غذاء للأجسام ماأنزله الله غذاء للأرواح والعقول من البينات والهدى ، وخاصة تلك المائدة العامرة الباقية التي تكفل الله بحفظها بقوله :

« إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » .

(سورة الحجر ٩)

ولئن كانت مائدة عيسى شبعاً للجائع وبرءاً للسقيم وغنىً للفقير كما في أثر رواه ابن أبي حاتم عن سليمان الخير :« فاستغنى كل فقير أكل منها،وبرىء كل زَمِن أكل منها ؛ فلم يزالوا أغنياء أصحاء حتى خرجوا من الدنيا »(١) . فإن مائدة القرآن الكريم شفاء من أمراض القلوب وبرء من كل داء ، وحل لكل مشكلة ، وسعادة في الدارين :

« وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خساراً » .

(سورة الاسراء ٨٢)

---

(١) انظر الصفحة السابقة حاشية (٢) .

١١ ـ المكر بعيسى ورفعه

لم ترق تعاليم المسيح ـ عليه السلام ـ لكثير من اليهود الذين حقت عليهم اللعنة •

« لُعِنَ الذين كفروا من بني اسرائيل على لسان داوُد وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون • كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون » •

(سورة المائدة ٧٨ ـ ٧٩)

ورأوا فيها خطراً على مصالحهم وثرواتهم • ولقد ضاق الكهنة والفريسيون من دعوته الى القناعة والعفة والزهد ، ومن نهيه عن الربا والرشوة والفساد والظلم ، فتمالؤوا عليه ، ووشوا به الى الحاكم ،وقالوا : إن هنا رجلا يضل الناس ، ويصدهم عن طاعة الملك ، ويفسد الرعايا ، ويفرق بين الأب وابنه ، وإنه ولد زنية ، الى غير ذلك مما تقلدوه في رقابهم ورموه به من الكذب ، حتى تمكنوا من حمل الحاكم على أن يصدر الأمر بالقبض والحكم عليه بالاعدام صلباً ، وأرسل جنداً ليقبضوا عليه •

فلما عثروا عليه وأحاطوا به ، واقتحموا بيته ، نجاه الله منهم ، ورفعه إليه ، وألقى شبهه على من تقدمهم إليه[1] فلما دخلوا وراءه ، قبضوا عليه وهم يحسبون أنه عيسى ، فأخذوه وأهانوه وصلبوه ، ووضعوا على رأسه الشوك•

---

(١) قيل : إن رأس اليهود أمر رجلا من أصحابه أن يدخل عليه فيقتله ، فلما دخل لم يرَ عيسى ، فأبطأ عليهم ، فظنوا أنه يقاتله ، فالقى الله عليه شبه عيسى • فلما خرج ظنوا انه عيسى فقبضوا عليه • (قصص الأنبياء ـ الثعلبي : ٣٤٨ ـ ٣٤٩) • =

وكان هذا من مكر الله بهم ، فإنه نجى نبيه ، ورفعه من بين أظهرهم ، وتركهم في ضلالهم يعمهون ، ويعتقدون أنهم قد ظفروا به . قال الله تعالى :

« ومكروا ومكرَ اللهُ[1] والله خير الماكرين .

« إذ قال الله يا عيسى إني متوفيك ورافعك إليّ ومطهرك من الذين كفروا وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا الى يوم القيامة ثم إليّ مرجعكم فأحكم بينكم فيما كنتم تختلفون . فأمّا الذين كفروا فأعذبهم عذاباً شديداً في الدنيا والآخرة ومالهم من ناصرين . وأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم والله لا يحب الظالمين . ذلك نتلوه عليك من الآيات والذكر الحكيم » .

(سورة آل عمران ٥٤ ـ ٥٨)

ومع أن المفسرين اتفقوا على نجاة عيسى من القتل والصلب فإنهم اختلفوا في معنى قوله تعالى : « إني متوفيك ورافعك إليّ » على أقوال

١ ـ متوفيك : أي مستوفي أجلك ، ومميتك حتف أنفك ، وعاصمك من أن يقتلك الكفار .

= وقيل : ان شبهه ألقى على تلميذه الخائن الذي دلهم عليه ، والذي تقدمهم ليمسكوا به . وعرفته الأناجيل « يهوذا الاسخريوطي » . (قصص الأنبياء ـ النجار : ٤٢٢) .

وقيل : ان عيسى ـ عليه السلام ـ لما احس بهم ، وأنه لا محالة من دخولهم عليه أو خروجه إليهم قال لحوارييه : أيكم يرضى أن يلقى عليه شبهي وهو رفيقي في الجنة ؟

فقال شاب منهم : أنا . فالقى الله عليه شبهه ، حتى كأنه هو . ورفع عيسى . والله أعلم .

(١) جازاهم على مكرهم بأن رفع عيسى ، والقى شبهه على غيره حتى قتل .

٢ ــ متوفيك : قابضك من الأرض • قال مطر الوراق : متوفيك من الدنيا ، وليس بوفاة موت • وكذا قال ابن جرير : توفيه هو رفعه •

٣ ــ مميتك في وقتك بعد النزول من السماء ، ورافعك الآن• قال قتادة: هذا من المقدم والمؤخر ، وتقديره : إني رافعك إليّ ، ومتوفيك بعد ذلك •

٤ ــ المراد بالوفاة ههنا النوم كما قال تعالى :

« وهو الذي يتوفاكم بالليل[١] ويعلم ما جرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه ليُقضى أجَلٌ مسمى ثم إليه مَرْجِعُكُمْ ثم ينبئكم بما كنتم تعملون » • (سورة الأنعام ٦٠)

« الله يتوفَّى الأنفُسَ حين موتها والتي لم تمت في منامها[٢] فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى الى أجل مسمى إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون » • (سورة الزمر ٤٢)

فقد ألقى الله عليه النوم ، ورفعه إلى السماء ، حتى لا يلحقه خوف •

وهذا ما رجحه ابن كثير إذ قال : رفعه الى السماء بعدما توفاه بالنوم على الصحيح المقطوع به ، وخلصه مما كان أراد أذيته من اليهود الذين وشوا به الى بعض الملوك الكفرة[٣] •

---

(١) أي يقبض أنفسكم عن التصرف بالتمام في المنام •

(٢) يتوفى الأنفس التي لم تمت في منامها : أي يتوفاها حين تنام ، تشبيهاً للنائمين بالموتى حيث لا يميزون ولا يتصرفون •

(٣) الكشاف للزمخشري جـ١ ص ٤٣٢ــ٤٣٣، تفسير النسفي جـ١ ص١٥٦ــ٢٦٠، تفسير الرازي جـ٦ ص ٦٨٩ ــ ٦٩٠ ، تفسير ابن كثير جـ١ ص ٣٦٥ ــ ٣٦٧، ٥٧٤ ، تفسير البيضاوي • تاريخ الطبري جـ١ ص ٦٠٢ ، البداية والنهاية لابن كثير جـ٢ ص ٩١ ، قصص الأنبياء للثعلبي : ٣٤٩ •

وهكذا يكون اختلافهم في الوفاة ، هل هي على الحقيقة بمعنى الموت ، أم هي على المجاز بمعنى النوم أو الرفع من الأرض ؟ وهل بقي ميتاً ورفعت روحه[1] ، أم مات لفترة قصيرة[2] ثم بعث ورفع ؟ وهل رفع بجسمه وروحه أم رفعت روحه دون جسمه ؟ وهل توفاه الله بعد رفعه الى السماء أم أبقاه حياً حتى ينزل الى الأرض ثانية ثم يتوفاه ؟ .

والقرآن الكريم يتسع لكل هذه التصورات ، ولا يبين واحداً منها على وجه التحديد . فلنترك المسألة الآن، ونكتفي باعتقادنا اعتقاداً جازماً أن المسيح لم يصلب ولكن شبه لهم .

وقد أكد الله نجاة المسيح عليه السلام ، وبين حقيقة ما وقع له بقوله :

« وبكفرهم وقولهم[2] على مريم بهتانا عظيماً[3] وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن

---

(١) قال الشيخ رشيد رضا : « التوفي في اللغة : أخذ الشيء وافياً تاماً .
فالمتبادر في الآية : إني مميتك وجاعلك بعد الموت في مكان رفيع عندي .
وأما تطهيره من الذين كفروا فهو انجاؤه مما كانوا يرمونه أو يرومونه به من الشر . ولا نكتة هنا لتقديم التوفي على الرفع ، اذ الرفع هو الأهم لما فيه من البشارة بالنجاة ورفعة المكانة . والآية على ظاهرها . والتوفي على معناه الظاهر المتبادر ، وهو الاماتة العادية . والرفع يكون بعده ، وهو رفع الروح».
(تفسير المنار جـ ٣ ص ٣١٦ ـ ٣١٧)

(٢) عن وهب قال : توفاه الله ثلاث ساعات من أول النهار حين رفعه إليه .
وقال ابن اسحق : توفاه الله سبع ساعات ثم أحياه .
ويعتقد النصارى أنه صلب ودفن . وبعد أن مكث في القبر ثلاثة أيام قام في الفصح ومكث أربعين يوماً ، ارتفع بعدها الى السماء أمام تلاميذه الذين عينهم لنشر ديانته . (محاضرات في النصرانية ص ٣٠)

(٣) الضمير يرجع الى أهل الكتاب الذين لم يؤمنوا بعيسى عليه السلام إيماناً صحيحاً .

(٤) يعني أنهم رموها بالزنى .

شبّهَ لهم[1] وإنّ الذين اختلفوا فيه لفي شك منه وما لهم به من علم إلا اتباع الظن[2] وما قتلوه يقينا[3] بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزاً حكيماً » •

(سورة النساء : ١٥٥ ـ ١٥٨)

وهكذا يعز الله رسله وينصر المؤمنين به ، ويجعل الذين اتبعوا موكب الرسل الكرام فوق الذين كفروا ، ويدخلهم جنته ، ويضل الكافرين ويعذبهم وينزل على رسوله ما يثبت رسالته ويكشف عن الحقائق المختلف فيها •

وذكروا أن نبوة عيسى دامت ثلاث سنين ، وأنه عاش الى أن رفع اثنتين وثلاثين سنة وأياماً • وأن أمه توفيت بعد رفعه بست سنين وكان جميع عمرها نيفاً وخمسين سنة[4] •

(١) أي رأوا شبهه فظنوه إياه •

(٢) يعني من ادعى أنه قتله من اليهود ، ومن سلمه إليهم من جهال النصارى ، كلهم في شك من ذلك وحيرة وضلال •

(٣) أي ما قتلوه متيقنين أنه هو ، بل شاكين متوهمين •

(٤) تاريخ الطبري جـ١ ص ٥٨٥ ـ ٥٩٨ ، البداية والنهاية لابن كثير جـ٢ ص٩٥، الكامل لابن الأثير جـ١ ص ٣٠٧ ، قصص الأنبياء للثعلبي ص ٣٥١ •

١٢ - نـزول عيسـى

يدل على أن عيسى ـ عليه السلام ـ لم يمت ، وأن وفاته بمعنى رفعه من الأرض أو نومه ، وأنه رفع بجسمه وروحه ما يأتي من النصوص الدالة على نزوله قبل يوم القيامة . وهذه النصوص منها ما هو قطعي في ثبوته ظني في دلالته ، وذلك آيتان من كتاب الله . ومنها ما هو ظني في ثبوته قطعي في دلالته ، وذلك أحاديث عديدة ، غير أن كثرتها تفيد اليقين .

أما الآيتان ، فأولاهما تضمنتها هذه الآيات :

« ولما ضُرِب ابنُ مريم مثلا إذا قومُك منه يَصِدُّون[١] . وقالوا ءَالهتنا خير أم هو ما ضربوه لك إلا جدلا بل هم قوم خَصِمون . إنْ هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلا لبني اسرائيل . ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة في الأرض يخلُفون[٢] . وإنه لَعِلْمٌ للساعة فلا تَمْتَرُنّ بها[٣] واتبعونِ هذا صراط مستقيم . ولا يصدنكم الشيطان إنه لكم عدو مبين . ولما جاء عيسى بالبينات قال قد جئتكم بالحكمة ولأبينَ لكم بعض الذي تختلفون فيه فاتقوا الله وأطيعون . إنّ الله هو ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم . فاختلف الأحزاب من بينهم فويل للذين ظلموا من عذاب يوم أليم » .

(سورة الزخرف ٥٧ ـ ٦٥)

---

(١) يضحكون ويعرضون عن الحق .

(٢) يعمرون الأرض بدلكم .

(٣) لا تشكن فيها .

وقد ذكر في نزول هذه الآيات أن محمداً ﷺ لما قرأ على المشركين :

« إنكم وما تعبدون من دون الله حصب[1] جهنم أنتم لها واردون » . (سورة الأنبياء ٩٨)

قال ابن الزبعري : يا محمد ! أخاصة لنا ولآلهتنا أم لجميع الأمم ؟

فقال عليه السلام : هو لكم ولآلهتكم ولجميع الأمم .

فقال : ألست تزعم أن عيسى ابن مريم نبي ، وتثني عليه وعلى أمه خيراً ، وقد علمت أن النصارى يعبدونهما ، وعزير يعبد ، والملائكة يعبدون ؛ فإن كان هؤلاء في النار فقد رضينا أن نكون نحن وآلهتنا معهم .

فقال ﷺ : « كل من أحب أن يعبد من دون الله فهو مع من عبده ؛ فإنهم يعبدون الشيطان ومن أمرهم بعبادته » .

فأنزل الله تعالى :

« إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها[2] مبعدون[3] » .
(سورة الأنبياء ١٠١)

يعني عزيراً والمسيح والملائكة . ونزلت هذه الآيات تصف ضجيج المشركين وعنادهم وجدالهم بالباطل وخصامهم بغير حق ، وتبين حقيقة عيسى عليه السلام ، أنه عبد كسائر العباد ، أنعم الله عليه بالنبوة والرسالة ، وجعله دلالة وبرهاناً على قدرته ، ومثالا وقدوة لأمته . وانه جاء بالمعجزات والانجيل والشرائع الواضحات ليبين لبني اسرائيل ما يختلفون فيه من الأمور الدينية ، « إنه لعِلمٌ للساعة » وهنا موضع الشاهد . وفي تفسير هذه الآية أقوال :

---

(١) حطب . (٢) عن جنهم .
(٣) رواه الواحدي النيسابوري عن ابن عباس بمثله ، أسباب النزول ص ٢٠٦ .

أ ــ قيل الضمير في : « إنــه » عائد على القرآن ؛ فإن فيــه الاعلام بالساعة والدلالة عليها . وهــذا بعيد ، لأنــه لا ذكــر للقرآن في الآيات . والصحيح انه عائد على عيسى ، فإن السياق في ذكره .

ب ــ وقيل : إن ما وضع على يدي عيسى من ابــراء الاسقام وإحيــاء الموتى دليل على بعث الأموات يوم القيامة .

ج ــ وقيل : إن نزوله من أشراط الساعة ، يعلم به دنوها . ويؤيــد هذا المعنى قراءة ابن عباس : « وإنه لَعَلَم للساعة » أي أن نزوله أمارة ودليل على وقوع الساعة .

وقال مجاهد : « وإنه لعلم للساعة » : أي آية للساعة خروج عيسى ابن مريم عليه السلام قبل يوم القيامة . وهكذا روي عن أبي هريرة وابن عباس وأبي العالية وأبي مالك وعكرمة والحسن وقتادة والضحاك وغيرهم[1] .

وثاني الآيتين قولــه تعالى :

« وإن من أهل الكتاب إلا ليؤْمِنَنّ به قبل موته ويومَ القيامة يكون عليهم شهيداً[2] » .

(سورة النساء ١٥٩)

وفي تفسيرها أقوال أيضاً :

أ ــ قيل : إن الضمير الأول في « به » يرجع الى الله أو الى محمد ﷺ ،

---

(١) الكشاف للزمخشري ج٣ ص ٤٩٤ ، تفسير النسفي ج٤ ص ١١٧ ــ ١١٨ ، تفسير البيضاوي ، تفسير ابن كثير ج٤ ص ١٣١ ــ ١٣٢ .

(٢) يشهد عليهم أنه قد بلغهم الرسالة من الله ، وأقر بعبودية الله عز وجل . وسنبين في الفصل الأخير هذه الشهادة .

والثاني في « موته » يرجع الى الكتابي . قال عكرمة : « لا يموت النصراني ولا اليهودي حتى يؤمن بمحمد ﷺ » . أي إنه يكشف عنه الغطاء حين يعاني سكرات الموت ، فيعلم أن الله واحد لا شريك له ، وان محمداً عبده ورسوله . ولا يتقبل منه الإيمان حينئذ .

ب ـ وقيل : إن الضمير الأول يرجع الى عيسى ، والثاني يرجع الى الكتابي . قال البيضاوي في تفسير الآية : (أي ما من أهل الكتاب أحد إلا ليؤمنن به . فقوله : « ليؤمنن » جملة قسمية وقعت صفة لأحد . والمعنى ما من اليهود والنصارى أحد إلا ليؤمنن بأن عيسى عبد الله ورسوله قبل أن يموت ، ولو حين أن تزهق روحه . ويؤيد ذلك قراءة أبي بن كعب : ليؤمنن به . فقوله : « ليؤمنن » جملة قسمية وقعت صفة لأحد . والمعنى على معاجلة الإيمان به قبل أن يضطروا إليه ولا ينفعهم إيمانهم) .

وعن ابن عباس ـ رضي عنهما ـ قال : « لا يموت اليهودي حتى يشهد أن عيسى عبد الله ورسوله ، ولو عجل عليه بالسلاح » . وقال مجاهد : « كل صاحب كتاب يؤمن بعيسى قبل موته : قبل موت صاحب الكتاب » .

ج ـ وقيل : الضميران لعيسى . والمعنى : انه اذا نزل من السماء آمن به أهل الكتاب الذين يكونون في زمان نزوله . قال الحسن البصري : « قبل موت عيسى . والله إنه لحي . ولكن اذا نزل آمنوا به أجمعون » . وهذا ما رجحه ابن كثير رحمه الله[1] .

---

(١) تفسير ابن كثير ج١ ص ٥٧٦ ـ ٥٧٧ ، الكشاف ج١ ص ٥٨٠ ـ ٥٨١ ، تفسير النسفي ج١ ص ٢٦٠ ـ ٢٦١ ، تفسير البيضاوي .

وأما الأحاديث فمنها :

١ ــ عن أبي هريرة ــ رضي الله عنه ــ قال : قال رسول الله ﷺ :

« والذي نفسي بيده ليوشكن[١] أن ينزل فيكم[٢] ابن مريم حكماً[٣] عدلا ؛ فيكسر الصليب ويقتل الخنزير[٤] ، ويضع الحرب[٥] ، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد[٦] حتى تكون السجدة الواحدة خيراً من الدنيا وما فيها[٧] » .

أخرجه البخاري : ٣٤٤٨ ومسلم : ٢٤٢ ــ (١٥٥)

ثم يقول أبو هريرة : واقرؤوا إن شئتم : « وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً » . وهذا مصير منه الى أن الضميرين يعودان على عيسى .

٢ ــ وعنه قال : قال رسول الله ﷺ : « يوشك أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً مقسطاً يكسر الصليب ، ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويفيض المال حتى لا يقبله أحد » . (أحمد ج٢ ص ٢٤٠) والترمذي (ج٣ ص ٢٣٢) .

---

(١) ليقربن ، أي لا بد من ذلك سريعاً .

(٢) في هذه الأمة .

(٣) أي حاكما بهذه الشريعة . وللطبراني من حديث عبد الله بن مغفل : « ينزل عيسى مصدقا بمحمد على ملته » .

(٤) أي يبطل دين النصرانية بان يكسر الصليب ويبطل ما تزعمه النصارى من تعظيمه .

(٥) في رواية الكشميهني : « الجزية » . والمعنى : إن الدين يصير واحداً ، فلا يبقى أحد من أهل الذمة يؤدي الجزية . ويؤيده أن عند أحمد من وجه آخر عن أبي هريرة : « وتكون الدعوى واحدة » .

(٦) في رواية عطاء بن ميناء عن أبي هريرة عند مسلم : ٢٤٣ ــ (...) : « ولتذهبن الشحناء والتباغض والتحاسد ، وليدعون الى المال فلا يقبله أحد » .

(٧) أي انهم حينئذ يتقربون الى الله بالصلاة لا بالتصدق بالمال .

٣ ـ وعنه أن رسول الله ﷺ قال :

« ليهلن عيسى ابن مريم بفج الروحاء[1] بالحج والعمرة[2] » .

٤ ـ وعنه أنه ﷺ قال :

« ليهبطن عيسى ابن مريم حكماً وإماماً مقسطاً.وليسلكن فجاً فجاً حاجاً أو معتمراً . وليأتين قبري حتى يسلم علي ، ولأردنّ عليه »[3] .

٥ ـ وعنه قال : قال رسول الله ﷺ :

« كيف أنتم إذا نزل ابن مريم فيكم وامامكم منكم »[4] .

٦ ـ وعن النواس بن سمعان قال : ذكر رسول الله ﷺ الدجال ذات غداة ، فخفّض فيه ورفّع حتى ظنناه في طائفة النخل .. ثم قال : « فبينما هو كذلك إذ بعث الله المسيح بن مريم عليه السلام ، فينزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق بين مهرودتين[5]، واضعاً كفيه على أجنحة ملكين ، اذا طأطأ رأسه قطر ، واذا رفعه تحدر منه جمان كاللؤلؤ[6] . فلا يحل[7] لكافر يجد ريح نفسه إلا مات . ونفسه ينتهي حيث ينتهي طرفه ؛ فيطلبه حتى يدركه بباب لد[8] فيقتله ..»[9] .

---

(١) موضع بين الحرمين على ثلاثين أو اربعين ميلا من المدينة .

(٢) رواه مسلم : ٢١٦ ـ (١٢٥٢) وأحمد (ج٢ ص ٢٤٠) .

(٣) رواه الحاكم في المستدرك . وهو صحيح .

(٤) رواه البخاري : ٣٤٤٩ ومسلم : ٢٤٤ ـ (...) وأحمد .

(٥) الهُرد : طين أحمر وعروق يصبغ بها . والهردي : المصبوغ به ، فالمهرودة : الثوب المصبوغ بالأحمر .

(٦) الجمان : حبات من الفضة تصنع على هيئة اللؤلؤ الكبار . والمراد : يتحدر منه الماء على هيئة اللؤلؤ في صفائه .

(٧) أي لا يمكن . (٨) بلدة قريبة من بيت المقدس .

(٩) رواه مسلم : ٢١٣٧ وأحمد وأصحاب السنن .

٧ ــ وعن عثمان بن أبي العاص :

« ينزل عيسى ابن مريم عند صلاة الفجر ، فيقول له أميرهم : يا روح الله ! تقدم صلِّ • فيقول : هذه الأمة أمراء بعضهم على بعض ، فيتقدم أميرهم فيصلي » • (أحمد ج٤ ص ٢١٧)

٨ ــ وعن جابر رضي الله عنه :

« وإذا هم بعيسى ، فيقال : تقدم يا روح الله : فيقول : ليتقدم إمامكم فليصلِّ بكم »[١] •

٩ ــ وعن أبي أمامة :

« وجلهم[٢] ببيت المقدس[٣] ، وإمامهم رجل صالح فبينما إمامهم قد تقدم ليصلي بهم الصبح ، اذ نزل عليهم عيسى ابن مريم الصبح • فرجع ذلك ينكص يمشي القهقرى ليتقدم عيسى يصلي بالناس ، فيضع عيسى يده بين كتفيه ثم يقول له : تقدم فصلِّ فإنها لك أقيمت • فيصلي بهم إمامهم »[٤] •

١٠ ــ وعن عائشة رضي الله عنها :

« ويمكث عيسى في الأرض أربعين سنة »[١] •

١١ ــ وعن أبي هريرة : « أقرئوه من رسول الله السلام »[١] •

وفي ذلك أحاديث كثيرة أخرى لا نطيل بذكرها • قال الإمام ابن كثير رحمه الله :

« وقد تواترت الأحاديث عن رسول الله ﷺ أنه أخبر بنزول عيسى ــ عليه السلام ــ قبل يوم القيامة إماماً عادلاً وحكماً مقسطاً »[٥] •

---

(١) رواه أحمد • (٢) أي : المسلمون •

(٣) لعله ينزل أولا شرقي دمشق ، ثم ينتقل الى بيت المقدس • ويقال له كل مرة : تقدم صلِّ • فيمتنع عن الامامة ، ويصلي مقتدياً بامام المسلمين •

(٤) رواه ابن ماجه ج٢ ص ١٣٦١ رقم : ٤٠٧٧ •

(٥) تفسير ابن كثير ج١ ص ٥٧٦ ــ ٥٨٣ ، ج٤ ص ١٣١ ــ ١٣٣ ، فتح الباري ج٦ ص ٤٩١ ــ ٤٩٤ •

وبذلك يتبين لنا خطأ من رد هذه الأحاديث بقوله :

«وحديث الرفع والنزول في آخر الزمان حديث آحاد متعلق بأمر اعتقادي ، لأنه من أمور الغيب • والأمور الاعتقادية لا يؤخذ فيها إلا بالقطعي ؛ لأن المطلوب فيها هو اليقين • وليس في الباب حديث متواتر » !

وعدم صحة : « تأويل نزوله وحكمه في الأرض بغلبة روحه وسر رسالته على الناس ؛ وهو ما غلب في تعليمه من الأمر بالرحمة والمحبة والسلم والأخذ بمقاصد الشريعة دون الوقوف عند ظواهرها[1] » •

وتجني من قال : « وأما صعوده الى السماء فلا يوجد فيه نص قاطع الثبوت والدلالة ، ولا حجة للجمهور في القول بأنه رفع الى السماء ، لأنه لا يوجد ذكر للسماء بازاء قوله : « ورافعك إليّ » • وكل ما تدل عليه هذه العبارة أن الله مبعده الى مكان لا سلطة لهم فيه » •

مع أن صاحب هذا القول لم يجزم به ، إذ عقب عليه بقوله :

« ونحن نفوض العلم بذلك الى الله تعالى • فقد يكون أماته في الأرض ، أو أصعده الى السماء[2] » •

فالأحاديث متواترة ، ولا بد من الاعتقاد بمضمونها •

ومن التكلف والبعد عن الحقيقة جواب من سئل عن الدجال وقتل عيسى له فقال : « الدجال رمز للخرافات والدجل والقبائح التي تزول بتقرير الشريعة على وجهها والأخذ بأسرارها وحكمها »[1] •

---

(١) رشيد رضا ـ تفسير المنار ، ج٣ ص ٣١٧ •
(٢) عبد الوهاب النجار ـ قصص الأنبياء ، ص ٤٢٩ ـ ٤٣٠ •

١٣ ـ صفات المسيح

كان عيسى ـ عليه السلام ـ متوسط القامة ، ضخم الجسم ، عريض الصدر ، مكتنز اللحم ، نضر الوجه ، حسن السمرة ، يميل الى البياض والحمرة . وشعره سبط ليس بجعد ، وطويل يلامس كتفيه ، قد سرحه ودهنه . وهو في غاية النظافة والصفاء والنضارة والبهاء ، يبدو وكأن الماء يقطر من رأسه ، وكأنه خرج من حمام .

ويدل على هذه الصفات عدة أحاديث منها :

١ ـ عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال : قال النبي ﷺ ليلة أسري به : « ولقيت عيسى ، فنعته النبي ﷺ فقال : ربعة[١] أحمر ، كأنما خرج من ديماس[٢] ـ يعني الحمام ـ ، ورأيت ابراهيم ، وأنا أشبه ولده به[٣] » .

٢ ـ وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال : قال النبي ﷺ :

« رأيت عيسى وموسى وابراهيم ، فأما عيسى فأحمر جَعْد[٤] ، عريض الصدر . وأما موسى فآدم جسيم[٥] سبط[٦] ، كأنه من رجال الزط[٧] ، [٨] » .

٣ ـ وعن عبد الله بن عمر قال : ذكر النبي ﷺ يوماً بين ظهراني الناس[٩]

---

(١) ليس بطويل جداً ولا بقصير جداً ، بل وسط .

(٢) المراد بذلك وصفه بصفاء اللون ونضارة الجسم وكثرة ماء الوجه .

(٣) رواه البخاري : ٣٤٣٧ .

(٤) صفة الجعودة في جسمه لا شعره ، والمراد بذلك اجتماعه واكتنازه .

(٥) المراد بالجسيم هنا : الزيادة في الطول .

(٦) ليس بجعد .

(٧) طوال الأجسام مع نحافة فيها .

(٨) رواه البخاري : ٣٤٣٨ .

(٩) أي جالساً في وسط الناس .

المسيح الدجال فقال : إن الله ليس بأعور ، ألا إن المسيح الدجال أعور العين اليمنى ، كأن عينه عنبة طافية[1] .

وأراني الليلة عند الكعبة في المنام ، فإذا رجل آدم[2] كأحسن ما يُرى من أُدْم الرجال ، تضرب لِمتُه[3] بين منكبيه ، رجِل[4] الشعر ، يقطر رأسه ماء[5] ، واضعاً يديه على منكبي رجلين ، يطوف بالبيت . فقلت : من هذا ؟ فقالوا : هذا المسيح ابن مريم .

ثم رأيت رجلا وراءه جعداً قَطِطاً[6] أعور عين اليمنى، كأشبه من رأيت بابن قَطَن ، واضعاً يديه على منكبي رجل يطوف بالبيت . فقلت من هذا ؟ قالوا : المسيح الدجال »[7] .

٤ ــ وعنه قال: «لا والله، ماقال النبي ﷺ لعيسى أحمر[8] ، ولكن قال : بينما أنا نائم أطوف بالكعبة ، فإذا رجل آدم ، سبْط الشعر ، يُهادى بين

(١) رواية مسلم : ١٠٠ ــ (١٦٩) : « كأن عينه عنبة طافئة » .
فالطافئة : هي التي ذهب نورها . والطافية : التي فقئت ، وطفت مرتفعة وفيها ضوء . والعور : العيب . وعيناه مصيبتان عوراوان .
(٢) أي أسمر .
(٣) يقال لشعر الراس لِمّة : إذا جاوز الأذنين وألمّ بالمنكبين .
(٤) أي قد سرحه ودهنه . وفي رواية مالك : « له لمة قد رجلها فهي تقطر ماء » .
(٥) محتمل لأن يراد الحقيقة ، وأنه عرق حتى قطر الماء من راسه ، ومحتمل أن يكون كناية عن مزيد نضارة وجهه . ويؤيده مافي حديث أبي هريرة عند احمد وابي داود : « كأن رأسه يقطر وان لم يصبه بلل » .
(٦) المراد به شدة جعودة الشعر .
(٧) أخرجه البخاري : ٣٤٣٩ ــ ٣٤٤٠ ومسلم : ٢٧٤ ــ (١٦٩) .
(٨) ما أنكره ابن عمر حفظه غيره . وقد ظن أن الوصف اشتبه على الراوي ، وان الموصف بكونه أحمر إنما هو الدجال لا عيسى . ويمكن الجمع بين كونه آدم وأحمر بأنه في الأصل أسمر ، واحمرّ لونه بسبب كالتعب .

رجلين[1] ، ينطف[2] ــ أو يُهراق[3] ــ رأسه ماء • فقلت : من هذا ؟ قالوا : ابن مريم •

فذهبت فإذا رجل أحمر جسيم ، جعد الرأس أعور عينه اليمنى ، كأن عينه عنبة طافية • قلت : من هذا ؟ قالوا : هذا الدجال • وأقرب الناس به شبهاً ابن قطن » •

قال الزهري : « رجل من خزاعة هلك في الجاهلية »[4] •

٥ ــ وعن أبي هريرة ــ رضي الله عنه ــ ان النبي ﷺ قال :

« ليس بيني وبينه نبي ــ يعني عيسى ــ وإنه نازل ، فإذا رأيتموه فاعرفوه • رجل مربوع ، الى الحمرة والبياض ، بين ممصرتين[5] • كأن رأسه يقطر وإن لم يصبه بلل • فيقاتل الناس على الاسلام ، فيدق الصليب ، ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية • ويهلك الله في زمانه الملل كلها إلا الاسلام • ويهلك المسيح الدجال • فيمكث في الأرض أربعين سنة • ثم يتوفى ، فيصلي عليه المسلمون »[6] •

٦ ــ وعنه قال : قال رسول الله ﷺ :

« الأنبياء إخوة لعلاّت ، أمهاتهم شتى ودينهم واحد • وإني أولى الناس بعيسى ابن مريم ، لأنه لم يكن بيني وبينه نبي • يوشك أن ينزل فيكم

---

(١) يمشي متمايلا بينهما • (٢) أي يقطر •
(٣) شك من الراوي •
(٤) أخرجه البخاري : ٣٤٤١ ، ٧١٢٨ •
(٥) المُمصَّر ، كمعظم : المصبوغ بالطين الأحمر • والثوبان الممصران هما المرادان بقوله : « بين مهرودتين » في الحديث السادس من الفصل السابق •
(٦) أخرجه أبو داود : ٤٣٢٤ •

ابن مريم حكماً عدلا ، وإنه نازل على أمتي ، وخليفتي عليهم ، فاذا رأيتموه فاعرفوه ، فإنه رجل مربوع الخلق الى الحمرة والبياض ، سبط الشعر ، كأن رأسه تقطر ، ولم يصبه بلل . ينزل بين ممصرتين ، فيكسر الصليب ، ويقتل الخنزير ويضع الجزية ، ويفيض المال . ويهل من الروحاء حاجاً أو معتمراً أو ملبياً بهما جميعاً . ويقاتل الناس على الاسلام ، حتى يهلك في زمانه الملل كلها غير الاسلام ، وتكون السجدة واحدة لله رب العالمين . ويهلك الله في زمانه مسيح الضلالة الكذاب الدجال . وتقع الأمنة في الأرض .

ثم يلبث في الأرض أربعين سنة ، ويتزوج ويولد له . ثم يتوفى ويصلي عليه المسلمون ، ويدفنونه في المدينة بجنب عمر »[1] .

أما المسيح الدجال الذي يخرج في آخر الزمان قبل نزول عيسى بقليل ، والذي يدعي الالهية ، ويفتتن به خلق كثير ، وأكثر اتباعه من اليهود . ويأتي بالخوارق . ثم ينزل عيسى ويقتله بباب لد . ويهزم الله اليهود ويمحو الكفرة . فهو شاب قصير القامة ، عظيم الجثة ، شعر رأسه كثير متفرق شديد الجعودة ، عينه اليمنى جاحظة كأنها عنبة بارزة ، وعينه اليسرى مطموسة ممسوحة . و « مكتوب بين عينيه كافر يقرؤه كل مؤمن »[2] .

وقد سمي بالمسيح لأنه ممسوح العين أعور ، ولأنه يمسح الأرض . وسمي بالدجال لأنه يغطي الحق بباطله[3] .

---

(١) رواه البيهقي وأحمد . (ج٢ ص ٤٠٦) .

(٢) رواه مسلم : ٢٩٣٢ عن أنس وحذيفة .

(٣) فتح الباري ج٦ ص ٤٧٢ ، ج١٣ ص ٩١ ، ٩٧ ــ ٩٨ ، تفسير ابن كثير ج١ ص ٥٨٠ ــ ٥٨٢ ، قصص الأنبياء للثعلبي ص ٣٥٠ .

١٤ ـ شهادة عيسى على قومه

تنتهي قصة عيسى ـ عليه السلام ـ بهذا المشهد من مشاهد يوم القيامة ، الذي يصور دعوته الى التوحيد ، واقراره لله بالربوبية ، وانكاره على من أشرك به :

« وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم ءَأنتَ قلتَ للناس اتخذوني وأمِّي إلهين من دون الله •

قال سبحانك ما يكون لي[١] أن أقول ما ليس لي بحق إن كنت قلتُهُ فقد علمتَهُ تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك[٢] إنك أنت علام الغيوب • ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أنِ اعبدوا الله ربي وربَّكم وكنتُ عليهم شهيداً ما دُمتُ فيهم فلما توفيتني كنتَ أنت الرقيبَ عليهم وأنت على كل شيء شهيد • إنْ تعذبهم فانهم عبادك وإن تغفر لهم فانك أنت العزيز الحكيم •

قال الله هذا يومُ ينفع الصادقين صدقهم لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك الفوز العظيم » • (سورة المائدة ١١٦ ـ ١١٩)

وقد جاء الخطاب بصيغة الماضي مع أنه سيكون يوم القيامة بحضرة من اتخذه وأمه الهين من دون الله ؛ ليدل على الوقوع والثبوت • والمراد بهذا السؤال تهديد النصارى وتقريعهم على رؤوس الأشهاد حتى يتداركوا أنفسهم ولا يشركوا بالله شيئاً •

---

(١) ما ينبغي لي •

(٢) نفس الشيء : ذاته • والمعنى : تعلم معلومي ولا أعلم معلومك •

وجواب عيسى ــ عليه السلام ــ يدل على أدب في القول وشفافية في النفس • اذ نزّه الله أولا عن الشرك ، ثم بين أنه بلغ ما أرسل به ، ودعا الى عبادة الله ، وأقر له بالعبودية • وبعد ذلك فوض أمر قومه الى الله الذي يعلم ما دعاهم إليه ، ويشهد أقوالهم وأفعالهم ، وهو ربهم إن شاء عذبهم ، وإن شاء غفر لهم ، وهو عزيز حكيم ، يعذب من كفر وأشرك ، ويغفر لمن تاب وآمن • وهذا الكلام يتضمن التبرؤ من النصارى الذين كذبوا على الله وعلى رسوله ، وجعلوا لله نداً وصاحبة وولداً ، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً •

وبعد أن يدلي عيسى بشهادته يصدر قرار الحكم من الله تعالى :

هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم والموحدين توحيدهم ، ويدخلون جنات تجري من تحتها الأنهار ، يمكثون فيها لا يحولون ولا يزولون • وينالون رضى الله وكرامته ، ويفوزون فوزاً عظيماً[1] •

---

(١) تفسير النسفي ج١ ص ٣١٠ ــ ٣١١ ، تفسير ابن كثير ج٢ ص ١٢٠ــ١٢٢ •

فهرس الآيات القرآنية في الأجزاء ١ ـ ٤

٢١ ـ سورة الأنبياء

فهـــرس

الأحاديث النبوية في الجزء الأول : نــوح

الأحاديث النبوية في الجزء الثاني : ابراهيم

الرقم	راوي الحديث	المخـرج	الحديث أو موضوعـه	الصحيفة
١ ـ	عبد الله بن مسعود	البخاري وأحمد وابن أبي حاتم	الشرك ظلم عظيم	٧٠
٢ ـ	المغيرة بن شعبة	البخاري ومسلم	الكسوف والخسوف	٧٤
٣ ـ	عبد الله بن عباس	البخاري	حسبي الله ونعم الوكيل	٩٠
٤ ـ	أبو هريرة	البخاري ومسلم	نحن أحق بالشك من ابراهيم	١٠٠
٥ ـ	عبد الله بن عمر	أحمـد	نهى الرسول أن يسافر الرجل وحده	١٠٢
٦ ـ	عبد الله بن عمر	البخاري	لو يعلم الناس مافي الوحده ..	١٠٢
٧ ـ	ـ	البيهقي والنسائي والحاكم	أشد الناس بلاء الأنبياء ..	١٠٤
٨	أنس بن مالك	أبو يعلى	أعطي يوسف وأمه شطر الحسن	١٠٥
٩ ـ	أبو هريرة	البخاري	دخول ابراهيم وساره على قرية الجبار	١٠٥
١٠ ـ	أبو هريرة	البخاري	لم يكذب ابراهيم الا ثلاث كذبات	١٠٧
١١ ـ	أبو هريرة	مسلم	كذبات ابراهيم	١٠٨
١٢ ـ	عبد الله بن عباس	البخاري	أول ما اتخذ النساء المنطق ..	١١٠، ١٢٣
١٣ ـ	عبد الله بن عباس	ابن أبي حاتم	رؤيا الأنبياء في المنام وحي	١١٦
١٤ ـ	عبدالله بن محمد العتبي	الحاكم والذهبي	أنا ابن الذبيحين	١١٧
١٥ ـ	عبد الله بن عباس	أحمـد	كان رأس الكبش معلقاً بالكعبة	١١٧
١٦ ـ	علي بن أبي طالب	الفاكهي	زيارة ابراهيم ابنه اسماعيل	١٢٣
١٧ ـ	علي بن أبي طالب	ابـن راهويـه والطبري وابـن أبي حاتم	كانت البيوت قبل البيت الحرام	١٢٨
١٨ ـ	عبد الله بن عمرو	البيهقـي	بعث الله جبريل الى آدم ..	١٢٨
١٩ ـ	عبد الله بن عباس	الفاكهي	ما بني البيت بقصة	١٢٩
٢٠ ـ	النعمان بن بشير	أبوداود والترمذي والنسائي وابن ماجه والحاكم	الدعاء هو العبادة	١٣٠
٢١ ـ	أنس بن مالك	الترمذي	الدعاء مخ العبادة	١٣٠
٢٢ ـ	أبو أمامة	أحمـد	أنا دعوة ابراهيم وبشرى عيسى	١٣٣

الرقم	راوي الحديث	المخـرج	الحديث أو موضوعه	الصحيفة
٢٣ـ	عبد الله بن مسعود	البزار والترمذي	لكل نبي ولاة من النبيين ..	١٣٧
٢٤ـ	جابـر	الخطيب	بعثت بالحنيفية السمحة	١٣٩
٢٥ـ	أبو هريرة	أحمد وأبو داود والنسائي وابن ماجه وابن حبان	أنا لكم بمنزلة الوالد ..	١٣٩
٢٦ـ	الحارث الأشعري	أحمـد	ادعوا المسلمين بأسمائهم	١٣٩
٢٧ـ	العباس	الترمذي	من آذى عمي فقد آذاني	١٤٠
٢٨ـ	أبو ذر الغفاري	الطبري	الكتب والصحف المنزلة	١٤١
٢٩ـ	أبو هريرة	البخاري ومسلم	أكـرم الناس	١٤٨
٣٠ـ	ابن عمر	البخاري ومسلم	الكريم بن الكريم بن الكريم .	١٤٩
٣١ـ	أنس بن مالك	مسلم وأبو داود والترمذي	خير البرية ابراهيم	١٤٩
٣٢ـ	مالك بن صعصعة	البخاري	ابراهيم في السماء السابعة	١٤٩
٣٣ـ	أبو سعيد الخدري	البيهقي	ابراهيم بجانب البيت المعمور	١٤٩
٣٤ـ	أبو هريرة	الطبري	ابراهيم جالس عند باب الجنة	١٤٩
٣٥ـ	كعب بن عجرة	البخاري	الصلوات الابراهيمية	١٥٠

الأحاديث النبوية في الجزء الثالث : موسى

الرقم	راوي الحديث	المخرج	الحديث أو موضوعه	الصحيفة
١ ــ	جبير بن نفير	أبوداودوالبيهقي	مثل الذين يغزون من أمتي	١٦٥
٢ ــ	أبو ذر الغفاري	البــزار	أي الأجلين قضى موسى ؟	١٧٢
٣ ــ	عمر بن الخطاب	البخاري والحاكم والطبراني	ألا أدلك على ختن ؟	١٧٣
٤ ــ	سهيل بن سعد	البخاري	عرضت امرأة نفسها ..	١٧٣
٥ ــ	عبد الله بن عباس	البخاري	أي الأجلين قضى موسى ..	١٧٥
٦ ــ	عبد الله بن عمر	البخاري	إن من البيان لسحراً	١٩٨
٧ ــ	حذيفــة	أحمد وأبو داود	كان الرسول إذا حزبه أمر صلى	٢١٤
٨ ــ	عبد الله بن عباس	البخاري ومسلم والنسائي وابن ماجه	صيام عاشوراء	٢٢٩
٩ ــ	صهيب	مسلم والنسائي	عجباً لأمر المؤمن ..	٢٣٨
١٠ــ	أبو ذر	مسلم	يا عبادي لو أن أولكم وآخركم ..	٢٣٩
١١ــ	عبد الله بن عمر	البخاري ومسلم	رجم يهوديين زنيا	٢٦٣
١٢ــ	أبي بن كعب	البخاري ومسلم	لقاء موسى بالخضر	٢٦٦
١٣ــ	أبو هريرة	البخاري ومسلم وأحمد والترمذي	تسمية الخضر	٢٦٧
١٤ــ	أبي بن كعب	البخاري	حيــاة الحوت	٢٦٩
١٥ــ	ابن عباس	مسلـم	أحاديث موسى والخضر	٢٧١
١٦ــ	سعد بن أبي وقاص	البخاري ومسلم وابن حبان	من سأل عن شيء فحرم ..	٢٧٦
١٧ــ	أبو هريرة	البخاري ومسلم والترمذي وابن ماجه	قتال المسلمين لليهود	٢٨٤
١٨ــ	أبو هريرة	البخاري	لولا بنو اسرائيل لم يخنز اللحم	٢٨٧
١٩ــ	أبو هريرة	البخاري ومسلم	اغتسال موسى وفرار الحجر بثوبه	٢٩٣
٢٠ــ	عبد الله بن مسعود	البخاري ومسلم والترمذي	صبر موسى على الأذى	٢٩٤
٢١ــ	أبو هريرة	البخاري ومسلم والنسائي	وفــاة موسى	٢٩٤
٢٢ــ	أبو هريرة	البخاري	صفات موسى	٢٩٦
٢٣ــ	مالك بن صعصعة	البخاري	التقاء محمدبموسى فيالسماء السادسة	٣٠٠ـ٣٠٢
٢٤ــ	أبو هريرة	البخاري ومسلم	لا تخيروني على موسى	٣٠٢
٢٥ــ	أبو هريرة	البخاري ومسلم	لا تفضلوا بين أنبياء الله	٣٠٣

الأحاديث النبوية في الجـزء الرابع : عيسى

الرقم	راوي الحديث	المخرج	الحديث او موضوعه	الصحيفة
١ ـ	أبو هريرة	البخاري ومسلم	مس الشيطان للمولود	٣١٢
٢ ـ	علي بن أبي طالب	البخاري ومسلم	خير النساء	٣١٥
٣ ـ	عدي بن حاتم	أحمد والترمذي	عبادة الأحبار والرهبان	٣٣٥
٤ ـ	جبير بن مطعم	البخاري ومسلم والترمذي والنسائي	أسماء النبي محمد	٣٤٥
٥ ـ	عبد الله بن عباس	الواحدي	سبب نزول : « إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم »	٣٥٨
٦ ـ	أبو هريرة	البخاري ومسلم	نزول عيسى بن مريم	٣٦١
٧ ـ	أبو هريرة	أحمد والترمذي	نزول عيسى	٣٦١
٨ ـ	أبو هريرة	مسلم وأحمد	إهلال عيسى بالحج والعمرة	٣٦٢
٩ ـ	أبو هريرة	الحاكم	حج عيسى وزيارته قبر النبي	٣٦٢
١٠ ـ	أبو هريرة	البخاري ومسلم وأحمد	نزول عيسى	٣٦٢
١١ ـ	النواس بن سمعان	مسلم أحمد وأصحاب السنن	قتل عيسى الدجال	٣٦٢
١٢ ـ	عثمان بن أبي العاص	أحمد	صلاة عيسى مقتديا بإمام المسلمين	٣٦٣
١٣ ـ	جابر	أحمد	اقتداء عيسى بإمام المسلمين	٣٦٣
١٤ ـ	أبو أمامة	ابن ماجه	اعتداء عيسى بإمام المسلمين	٣٦٣
١٥ ـ	عائشة	أحمد	يمكث عيسى أربعين سنة	٣٦٣
١٦ ـ	أبو هريرة	أحمد	اقرئوا عيسى مني السلام	٣٦٣
١٧ ـ	أبو هريرة	البخاري	لقاء النبي بعيسى ليلة الاسراء	٣٦٥
١٨ ـ	عبد الله بن عباس	البخاري	صفة عيسى وموسى	٣٦٥
١٩ ـ	عبد الله بن عمر	البخاري ومسلم	صفة عيسى والدجال	٣٦٥
٢٠ ـ	عبد الله بن عمر	البخاري	صفة عيسى والدجال	٣٦٦
٢١ ـ	أبو هريرة	أبو داود	نزول عيسى ومكثه ثم وفاته	٣٦٧
٢٢ ـ	أبو هريرة	البيهقي وأحمد	الأنبياء إخوة لعلات	٣٦٧
١٣ ـ	أنس وحذيفة	مسلم	الدجال مكتوب بين عينيه كافر	٣٦٨

فهرس الجـــزء الأول : نــوح

فهرس الجزء الثاني ابراهيم أبو الأنبياء

فهرس الجزء الثالث : موسى كليم الله

فهرس الجزء الرابع : المسيح عيسى ابن مريم

تـــم القسم الاول ويليـــه القسم الثاني

وهـــو يشمل الجــزء الخامس

محمـــد رسول الله

هـذا الكتاب

في القسم الاول من هذا الكتاب دراسة تاريخية لسيرة نوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام ، تبين دعوتهم إلى التوحيد والايمان ، وتزكية النفس والوجدان ، وتوضح رسالتهم وجهودهم للقضاء على الشرك والوثنية .

اما القسم الثاني من الكتاب فهو دراسة دقيقة موجزة لسيرة خاتم المرسلين محمد ﷺ ، تشمل حياته ودعوته ، وغزواته وسراياه ، وصفاته وشمائله . وقد التزم المؤلف في دراسته بالمنهج العلمي ، ونبذ الخرافات والأساطير،وحرص على أن يكون كتابه سهلا في عباراته،مألوفاً في موضوعاته،جديداً في منهجه وطريقته، معززاً بالآيات والاحاديث النبوية ليستفيد منه كل طالب علم ومثقف .